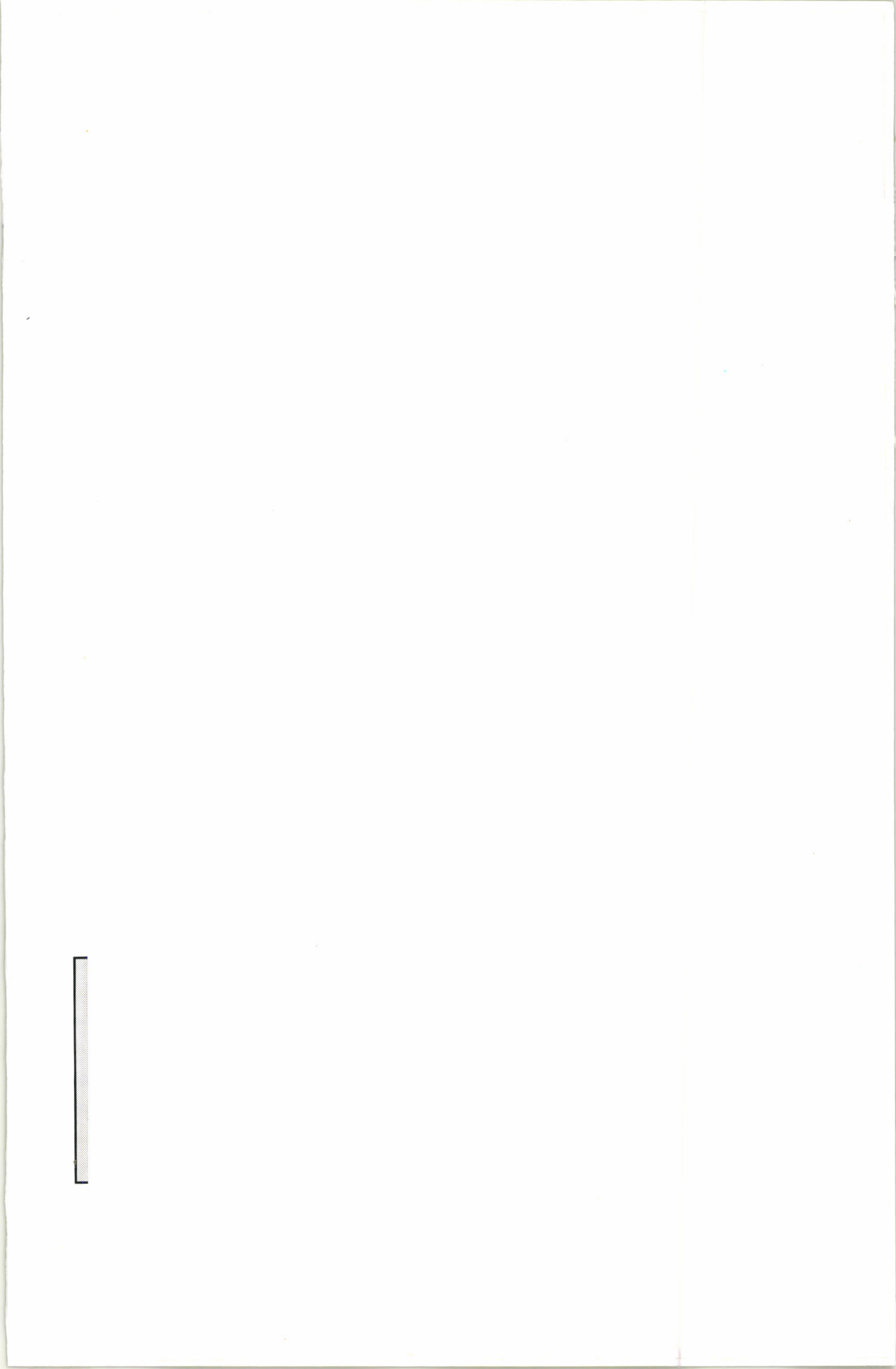


العدد ٤٣ - يوليو ١٩٩٧م

الكشكول (٢)

د / حسن ظاظا







الكشكول

٢

د.حسن ظاظا

ح مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤١٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ظاظا، حسن توفيق
الكشكول ٢ ... الرياض.
٢٩٢ ص؛ ١٤,٥ × ٢١,٥ سم - (كتاب الرياض؛ ٤٣)
ردمك ٢ - ٤٢ - ٧٨٠ - ٩٩٦٠
ردمد : X ١٩٠ - ١٣١٩
١ - المقالات العربية - السعودية أ - العنوان ب - السلسلة
ديوي ٨١. ١٨/٠٣٩٠
رقم الإيداع: ١٨/٠٣٩٠
ردمك : ٢ - ٤٢ - ٧٨٠ - ٩٩٦٠
ردمد : X ١٩٠ - ١٣١٩


٤٣
الرياض

إن كنت لا تدري ..

كان في الطرف الآخر من الهاتف صديقنا الشيخ عبدالسلام، يقول: ابني بيّومي يسأل من موضوع كشكولك هذا الاسبوع - فأجبته ضاحكاً: أنت تعرف أن هذا المقال ليس له موضوع محدّد، احتراماً لاسمه، ولكنه - دائماً - له عنوان، وعنوانه هذا الاسبوع: إن كنت لا تدري! فانطلق الشيخ منشداً:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة　　أو كنت تدري فالمصيبة أعظم!

قال: يعني موضوع سياسي .. صدّام حسين مثلاً .. أو المجرم الصربي ريدوفان كاراديتش .. أو السياسي الواقعي البعيد النظر شمعون بيريتس .. أو صاحب الرداء الفضفاض جداً، حتى ليكاد يغطي العالم بأسره، الرئيس كلينتون .. فقاطعته قائلاً: كفى يا

❁ جريدة الرياض الخميس ٧ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ - ١٠ نوفمبر ١٩٩٤م - العدد ٩٦٣٥

مولانا، فأنا بعد «لا أدري»، فأجاب: على كل حال بيومي لن يجد ما يبغى هذا الاسبوع. وسألته: وماذا يبغى؟ فقال: الوجدانيات والغراميات، فهو يقرؤها لك بنهم شديد، لكن هذه المرة سيلتهم هذا الكشكول «الحاف» أيضاً.

قلت: اصبر يا شيخ! فكل عاشق وجد نفسه ـ ولو مرة ـ يغالب طوفان الغرام.. ولا يدري. والأغنية القديمة الشهيرة التي كتبها الشاعر أحمد شوقي، وغناها محمد عبدالوهاب، تقول في ثناياها:

لم أدْر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك

قال الشيخ مداعباً: وأنت، في شطحاتك، أكنت دائماً تدري أنك غارق في بحر العسل؟ قلت: حيناً.. وفي بحار الزفت أحياناً؟ قال: فاختر له بعض العسل، واكتم عليه كل الزفت، فهو بعد صغير! قلت حباً وكرامة! مثلاً:

عندما أقبلت، فلم أدر ماذا كان قولي، وكيف كان صنيعي

كنت قلباً يهفو، وكانت جمالاً عبقرياً، والوقت وقت الربيع

تقول لي: أنت حبي، وأنت مالك قلبي، ومنك مري وعذبي - وأنت عذري وذنبي.

أجبتها: أنت سحري، وأنت ربة شعري ـ ومنك حلوي ومري ـ وأنت ذنبي وعذري.

صالح: يالك من شيطان! وطبعاً انتهى كل هذا! أجبته: فظن خيراً، ولا تسأل عن الخبر!

قال الشيخ: أنا دائماً أظن خيراً، وأضاف: عليك لا عليهن، قلت: الحب قدر، يعلمه مقلب القلوب، وابن آدم - وبنت آدم ايضاً - لا يدريان متى يصيبهما. وكم يعجبني هذا الشعر من عمر بن أبي ربيعة!

ولقد قالت لجارات لها كالمها يلعبن في حُجرتها

خُذُن عني الظلَّ، لا تْبَعُني ومضت تسعى إلى قبتها

لم يطش قطُّ لها سهم ومن تَرْمه لا ينجُ من رميتها

قال الشيخ عبدالسلام: ابني بيومي قد بلغ طور المراهقة، وهو كثير الاقبال على القصص الغرامية وأشعار الحب، وإذا خشيت عليه من ذلك طلبت منه اعراب بعض ما يقرأ، حتى يمل هذا النوع من الأدب. قلت: حرام عليك يا شيخ! لماذا تدس للولد السم في العسل، تنفيراً له من الغزل!

أجابني: ومع ذلك فإنه لا ينفر منه بما فيه الكفاية. قلت: فهذا بيت قديم من الغزل، اسأله في اعرابه:

أهابك إجلالاً، وما بك قُدْرةٌ عَلَيَّ ولكن ملء عين حبيبُها

لكن لا تنس أن تعطيه جائزة سخية إذا أعربه لك. قال: إذاً .. فأنا نسيت وجوهاً من اعرابه، وما لهذا الاعراب من أسباب، لكنك - في ظني - لم تنس غرامك الأول. قال: صحيح والله؛

وكلام خبير مجـرب. وانتظرني بعد صلاة العشاء ـ ان شاء الله ـ بالقهوة والتمر، قلت: والشواء؟ أجاب، نعم!.

ورحت وحدي أفكر في العنوان الماثل أمـامي، فتذكرت قـصة لصديق لبـناني، اجتمـعت له الرقة والشـباب والجمـال والذكاء، وكان يعـمل صحفيـاً، قال لي: إذا كنت جالسـاً تتمتع بالطبيـعة الخـلابة عند نـبع «البـاروك» في رفـقـة من الشـعــراء والفنانين والصحفيين، كلهم ـ رجالاً ونساء ـ من أشهر الأسماء التي يحبها الجمـهور، ويفخر بهـا، ورأيت أمامك على ظهر اعـلان تجاري، بخط! احدى الأديبات الجميلات الجالسات معنا ـ بل هي أجملهن ـ عبـارة (ان كنت لا تدري...) فـما تأويلك؟ فـسألتـه إذا كان يعرفها. وأجابني: معرفة مـهنة فقط، فهي أيضاً صحفية. قلت: لا أدري! فأجاب: ولا أنا! وذهب ظني إلى أنهـا تعلّق على خبر ربما نشرتُه دون رويَّة أو تمحيص، فاغتـظت. وكتمت غيظي حتى لا أفتح مناقشـة مُرّة في هذه الجلسة الحلوة، ومرت شـهور طويلة لم أرها، ولم أقرأ لها، ثم سألني رئـيس التحرير: هل تأتي معي إلى كنيسة (انطلياس) لحضور زواج فلانة؟ قلت بدون حماس: إن شـئت. وما أن رأتني حـتى تورد خداهـا للمفـاجأة، وبجـانبهـا العريس، يكبرها بأكثر من عشرين سنة! وعرفت أنه تاجر ثري من تجار المخلفات المعدنيـة المستهلكة وفتحت عيني مـعبراً عن دهشتي لهـذا القـران. فـابتـسمـت بأسف، وهمـست إليَّ: إن كنت لا تدري!.. وهنا فهمـت أنني كنت قد وقعت منها مـوقع القبول، وبقيت كالحمار ـ الله يعزّك ـ لا أفهم شيئاً، إلى أن التقطها تاجر

الحديد! قلت: مثل هذا يحدث كثيراً، وفي كل المجتمعات، وأنت؟ ألم تتزوج؟ قال: مازلت انتظر .. انتظر فرصة أخرى.. وانتظر ان ادري! قلت: ادعو لك ألا يطول انتظارك، وأن توفق إلى بنت الحلال، وتدري أنها هي في الوقت المناسب.

تذكرت هذه القصة وأنا اقرأ حول موضوع آخر تماماً، في كتاب عن معتقدات الأمم والشعوب. وكان الفصل الذي قرأته بعنوان (المرأة)! يسأل المؤلف: ماذا تعكس المرأة؟ ويجيب بسرعة: تعكس الحقيقة، والصدق، وخبايا القلب والضمير.. تنظر إليها وإذا بك تصل إلى مستوى جيد من المعرفة، وتشعر أنك (تدري)! ثم ذكر نصاً صينياً على مرآة أثرية في متحف «هانوي» في فيتنام يقول: مثل الشمس، مثل القمر، مثل صفحة الماء، مثل الذهب.. كوني واضحة، متألقة، واعكسي ما قرّ في أعماقك بأمانة! .. ومع الزمن، أصبح هذا النص ـ في الصين وغيرها من أقطار الشرق الأقصى ـ دعاء يردده السحرة، واتباع المذاهب الباطنية، وصارت المرأة عندهم رمزاً للدراية، ومصدراً لألوان من التأمل، وطريقاً إلى المعرفة. أما اليابانيون فكانوا ينظرون إلى المرأة على أنها أداة يستعين بها «ياما» أمير مملكة الموتى ليساعد الصالحين من الراحلين للوصول إلى السلام الأبدي للروح، الذي يُسمى في اللاهوت البوذي «كَرْمَا». ثم عرف المنجمون والعرّافون (المرايا السحرية) التي يظهر عليها ما كان وما هو كائن وما سيكون ففتنوا بها الناس.

هذا العمق، والاشـراق، والشفـافية، شـدت أبصار الإنسـانية البـدائية إلى سـؤال المرايا عن الأسرار المخـزونة المكنونة، في كل كتلة لامـعة شفـافة حتى آنيـة الماء، أو الزيت، أو كرات البلّور، وفي هذه الحالـة الأخيرة مـازال أكثـرهم يرفض البلور الصناعي، ويستـخير البلّور الصـخري الطبيـعي المصقول، حـتى في الغابات الاستوائية الافريقـية. لكن تظل المرأة سيدة هذه المواد التي تكشف الحجب عن الغـيب، وتقدم صـورة الماضي كما كـان، بل تعرّف بعلل ما حدث وأسـبابه! ومن هنا اتخذت قبائل بدائية كـثيرة من المرأة رمزاً لـلحكمة والمعـرفة والذكـاء الابداعي، خصـوصاً في المذاهب البوذية في التـبت. وفي معتقدات كـثيرة من هذا النوع ـ خصوصاً فـي الهند ـ وقعت على نص يحتاج إلى أن نستفـتي فيه علمـاء الفيـزياء فـهم يقولون أن الـنور الواقع على سطح الماء لا يخترق هذا الماء في أعماقـه، أما إذا وقع هذا النور على مرآة فإنه يخترق كل عمقها، ويرتد عنـها مرة أخرى إلى الفضاء! ويبدو لي أن العكس هو الصحيح.

ولاحظ كثـير من البـدائيين، العلاقـة القائمـة بين المرأة والماء، فكلاهمـا تنطبع عليه صـور الأشياء مـقلوبة، المرايا تجعـل اليمين يساراً، والماء يجعل الأعلي مـتجهاً إلى أسفل، مـثل الشجر على ضفاف الأنهار. وجرت عادة قبائل التـمبارا في افريقية ان يوجهوا إلى السماء قطعاً من مرايا مكسورة ليستنزلوا بها المطر . . . والآن وصل الشيخ عبدالسلام.

قرأ ما كتبته وصاح: خرجت عن الموضوع! قلت: ألم نتفق على وجوب الخروج عن الموضوع حتى يستمر «الكشكول» جديراً باسمه؟ ثم انك يا مولانا سترى بعد التأمل أن من ينظر في المرآة في كرة البلور أو في الماء، إنما يريد أن يدري، وأن الفلكي والرياضي اليوناني فيثاغورس ـ كما زعموا ـ كان قد أعدّ لنفسه مرآة صغيرة يحفظها في جيبه، ويستعين بها على مراقبة النجوم، لا في السماء، ولكن متألقة في مرآته هذه، ووصفوها بأنها كانت «سحرية» فمن شفافية الأرواح لدى العشاق، إلى شفافية الماء والبلور، والمرايا، عندنا صنف من الناس يريد أن يدري، أي يريد أن يخطو الخطوة الأولى نحو المعرفة، مهما حفّت بها الأساطير والخرافات، والناس في بلاد شتى من العالم الإسلامي ينهون عن النظر ليلاً في المرآة، لأن ذلك ـ كما يقولون ـ يجلب الموت، أو الجنون، أما الموت فيعيدنا إلى «ياما» الياباني أمير عالم الموتى بمرآته، وأما الجنون فإنه يعيدنا إلى أقوال متفرقة عند أفلاطون اليوناني وافلوطين السكندري، إذ اعتقد أن علاقة الصورة الجسمانية بالروح، كعلاقة الوجه بالمرآة واطالة التأمل فيها تفسد الروح، وتغيّر عليها مسلكها. فهذه جولة يبدو منها ان الإنسان كان منذ وجوده على هذه الأرض يبحث عن المعرفة، ويحب الحكمة، ويحرص على أن يدري.

قال الشيخ: نسيت ـ كالعادة ـ رؤية المرآة في المنام. قلت: منك نستفيد يا مولانا، قال: من نظر إلى نفسه في المرآة أو في ماء رزق بولد، وإن كان أعزب تزوج، والمرآة المجلوة هم ينجلي،

والصدئة هم يتراكم. وإذا كـانت المرآة صافية وكبيـرة نال خيراً بقدر كبرها وصفـائها، وإذا كانت المرآة من فضة دلت على الهم، ومن الذهب تدل على قوة في الدين وسـعادة في الدنيا. وإذا نظر الإنسان في المرآة فرأى وجهاً آخـر أصيب في عقله! والعياذ بالله، وسلّمنا الله وإيّاك.

أسرار القلب .. وقلب الأسرار!

في ذروة الحرب الباردة بين روسيا وأمريكا، كان الرئيس الروسي خروتشوف يدلي بالكثير من التصريحات الصحفية، ولا يكفّ عن إلقاء الخطب الساخرة في كل مكان، حتى في هيئة الأمم المتحدة. وفي تصريح صحفي نصح الشباب الروسي بالبحث عن الحبّ، فاهتمت أمريكا بهذا الموضوع، وظهرت هناك خريطة عن (جغرافية الحب في العالم) وكانت الخريطة تحوي المدن الأمريكية التي يزيد فيها عدد الشباب الباحثين عن الزواج عن عدد الشابات، وكانت ملونة باللون الأحمر، والمدن الملونة بالأزرق تبين أن الرجال الراغبين في الزواج ترتفع بينهم نسبة الأغنياء، واللون الأصفر يشير إلى قلة عدد الذكور، وصعوبة اصطيادهم للزواج. واهتم الباحثون بالموضوع، فقال بعضهم: لما كان الحب

✿ جريدة الرياض الخميس ١٤ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ - ١٧ نوفمبر ١٩٩٤م - العدد ٩٦٤٢

طريقاً إلى الزواج، فـقد تبين ان الارتفاع عن سطح البحـر يجعل (الإصابة) بالحب أسهل وأرق. وانبرت وسيطة من أشهر محترفات «الخطوبة» فـي ذاك الوقت، هي «إيثل بـانيسـتـر» تؤكـد هذه الملاحظة، وتقـول ان أنسب الأماكـن لاشتـعال هذه الشـرارة هو السفر بالطائرات، فـالرجال فيها يكونون أكثـر شعوراً بالوحدة، وانفتاحـاً للوقوع ـ لا من الطائرة سلمكم الله، ولكن في الحب ـ سلمكم الله أيضاً، كمـا أكدت ان النساء كلما اقتـربن من السماء ارتفعت عندهن الجـاذبية الجنسية إلى ضعف مـا كانت وهنّ على الأرض! واعترض قارىء لتصريحـات صاحبتنا بأن أجرة الطائرات مرتفعـة، وكأن هذه المستشـارة القاسية تسـعى إلى تعبيـد مسالك الحبّ الوردية للأغنياء فـقط، فردّ عليه كاتب من مـؤيديها قائلاً: إذا عجزت عن اجـرة الطائرة فإن استعـمال «المصعد» في الـعمائر الشاهقـة قد يفيد بعض الفـائدة، أما الذين رفضوا أية عـلاقة بين أسـرار القلـب والخطوط الجـوية فكانـوا كل المشـتـغلـين بالنقل (البحري) لا سيما الشركات البـريطانية صاحبة السفن الفاخرة من عابرات المحـيطات، إذ قالوا إنه ـ منذ سنين طويـلة ـ توجد في هذه السفن مـعارض أنيـقة جداً لبـيع (خواتم الخطوبة) وتجـارتها رائجة نشـيطة! فمن الجو إلى البـحر عفا الله عن نزار قـباني في قوله:

الحبّ فـي (الأرض) بعـض من طـبـائعـنا

لو لـم نجـده عـليـهـا .. لاخـتـرعـناه!

وفجأة أحسست في أعماق قلبي بالتقصير في تقصي كنه هذه العاطفة الجارفة، مع طول معايشتي لها واكتوائي بنيرانها، ورحت أقلب في بعض المظانّ من كتب التراث، فقرأت خبراً يرويه الأصمعي، قال: دخلت على هارون الرشيد، فقال لي: إنني أرقت ليلتي هذه، قلت: بـمَّ؟ لا أسهر الله عين أمير المؤمنين! فقال: فكرت في العشق، ممّ هو؟ فلم أقف عليه، فصفه لي حتى أتصوره جسماً مجسَّماً. فأطرقت ملياً ثم قلت: نعم يا سيدي! إذا تقادحت الأخلاق المتشاكلة، وتمازجت الأرواح المتشابهة، التهب لمح نور ساطع، يستضيء به العقل، وتهتز لاشراقه طباع الحياة، ويتصور من ذلك النور خلق خاص بالنفس، متصل بجوهريتها يسمى العشق. وانبثق في فكري أنا خاطر آخر، هو أنهم كانوا يقولون لنا (العلم نور) والأصمعي يقول (العشق نور).

وتذكرت في حيرتي هذه أن العشق ـ بمراتبه المختلفة: من الاستلطاف والاستئناس، إلى انتظار المحبوب، وتمنيه، والبحث عنه، والسعي إليه، إلى مصارحته بالحبّ، إلى السعادة القصوى إذا بادله الطرف الآخر نفس الشعور، إلى ما يربطهما من شوق، فيصبو كل منهما إلى الآخر فإذا هما في مرتبة الصبابة، ثم يستسلم هذا لذاك فيهويان إلى أعماق الهوى، فيستعبدهما الهوى كلاً للآخر، فيصبحان مُتيمّين، ثم يشعران بأنهما خارج الزمان والمكان يهيمان معاً في عالم مسحور، وذلك هو الهيام، وأصله شدة العطش، والتخبط في جميع الاتجاهات بحثاً عن الماء ـ ماء الحياة ـ ثم قد ينقلب ذلك كله إلى الجنون، أو ان يموت العاشق

شهيداً، كما جاء ذلك في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام. وأضاف بعض الأدباء القدامى درجات أخرى منها: العلاقة وهي تعلق القلب بالمحبوب. قال الشاعر:

علاقة حُبّ لجَّ في زمن الصبا   فأبْلى، وما يزداد إلاّ تجدداً

وذكروا الكلف، وقالوا إنه شدة الحبّ. وأذكر سطوراً كتبتها في «سيرة البهلول، على لسان مجنون يغني على المزمار: الحبّ نادر بكوننا الخرف/ إن ذقته يوماً فسوف تعترفْ/ أنا بعينيها كَلفْ/ ومن بعادها تلف/ واستعيد صوتها/ وصمتها/ ليت العذول ينخسف! وأضاف بعض اللغويين مرتبة الشغف وهو الحب الذي يخترق شغاف القلب، وهو غشاؤه الواقي: وأما الحب فقد أشار العزيزي في (غريب القرآن) إلى أنه الشغف الذي يصل إلى حبة القلب، ولما كان القلب هو مركز الحب، على الاقل عند الشعراء والعشاق، فقد سألت نفسي: أهو تلك المضخة التي تتحكم في الدورة الدموية؟ وما هذه العاطفة التي لا تعمل إلا بمضخة؟ والآن أمكن تأمين الدورة الدموية بزراعة قلب آخر، إذ تلف القلب الأصلي، فهل يستقر القلب الجديد بصباباته وغرامياته القديمة، أو يؤدي عمله في ضخّ الدم فقط، وتمنيت لو كنت طبيباً، أو جراح قلب حتى اتلصص على هذه الأسرار، ثم استحضرت سلسلة من محاضرات أساتذة زراعة القلوب في جميع أنحاء العالم، فكانوا يتحدثون عن مضخة الدم فقط، ولا يدخلون في العواطف. ولجأت إلى حكايات القلوب العاشقة في التراث

الضـخم الذي تركه لنا أئمـة هذا الموضـوع فيـما لا يحـصى من الكتب، فتـصفحت «مـصارع العشـاق» لابن السّراج، ثم «طوق الحمـامة في الإلفـة والألاف » لابن حزم، ثم «ذمّ الهـوى» لابن الجـوزي، ثم «تزيين الأسواق بتـفـصيل أشـواق العشـاق» لداود الانطاكي، ثم «مطالع الـبدور في منازل السـرور» للغـزولي، ثم «ديوان الصبابة» لابـن أبي حجلة التلمساني، فلم أجـد إلا كلاماً منمقاً، تتخـلله أشعار رقراقة في رقتهـا، مما تكرر وشاع في كتب الأدب.

ولما لم أجد ما أبحث عنه لجأت إلى كلمة «القلب» في اللغات السامية ـ أخوات لغتـنا العربية، فرأيت ان ما يدل على القلب في جميع هذه اللغـات هو لفظ واحد وهو (اللبّ). وأصل اللبّ هو ما يوجد في النباتات والثمار مما يحتوي على بذور استمرار النوع، أو ما يلذّ طعـمه للآكلين. وقلت: فأين هـنا من القلب، والفؤاد عندنا، إلى جانب اللبّ. وتبين أن اللب عندنا هـو موضع الفهم والادراك، وأن القـرآن الكريم عندمـا قال: يا أولي الألبـاب، إنما كان يقـصد الفطنة والذكاء وصفـاء القريحة، وعـدت إلى الكلمة نفسـها في استـعمالها العـبري (لبْ) فوجـدت المفسرين اليـهود لأسفار (العهد القديم) ينصوّن على أنهـا استعملت في كتبهم نحو عشر مرات فقط بمعناها الحقيقي، وهو العضو الذي يدفع الدم إلى العروق ويستقـبله منها، أي المضخة إياها، ولكنها استـعملت اكثر من ألف مرة مجازاً، للدلالة على العناية والانتباه، يقال: «وَضَعَ لُبّه على كـذا» أي «اهتم به»، واللب هو منطقة العـاطف والحالة

النفسيــة للإنسان عمومــاً، والحب خصوصاً، وفي غــزل في سفر نشيد الأناشيد:

قد خَلَبْتِ لُبيّ يا أختي العـرُوس/ خَلَبْتِ لبيّ بإحدى عينَيْك، وبعقَدْ في عنقك!/ ما أرقّ حبّك يا اختي العروس!/ حبّك أشهى من الشراب/ وأريج عطرك أغلى من كل العطور!/ شفْتاك تقطران شهداً، يا عروس!/ وتحت لســانك عسّل وحليب/ وَشَذى ثيابك كبــخور اللبان/ (نشـيد الأناشيــد ٤ : ٩ ـ ١١). واللب في اللغة العبرية هو سرّ الله في الإنســان، وهو مكان الذكريات والشجاعة والاحتــمال للمكاره كمــا هو عندنا في اللغة العربيــة، وهو أيضاً مثل مــا هو عندنا مــوضع الذكاء والفــهم وسرعــة البديهــة. وقد اشتهر في شعرنا العربي قول الشاعر الحكيم:

وتأكُلُّ ذي لُبّ بمؤتيك نصحهْ ... وما كلّ مُؤْتٍ نصُحَهُ بلبيب

واســتوقــفتني في هذه الجــولة مكانة القلب في ديانة الفــراعنة المصريين. ونحن نعْلم أنهم كانوا عندما يقومون بتحنيط الموتى، يستخرجون الأحــشاء من داخل الجسد بعد استئصــالها ويضعونها في وعــاء خاص بــها مــصنوع من الحــجــر، يوضع مع الميت في القبــر. ولكنهم كانوا يبــقون القلب في مكانه من جــثة الميت، لا يستأصلونه، وقد لاحظ الأثريون أن قلب كل الجثث المحنطة كانت في مكانها من الصــدر في كل مومياء. ذلك أن المصــريين القدماء كــانوا يؤمنون بالآخرة وبالحــســاب والميزان والثــواب والعقــاب، وبالمثول أمــام الإله أوزيريس الذي يحــاسبهم. فــإذا جحــدوا ما

يتهمهم به، اعترفت به قلوبهم. فكانت هناك صيغة سحرية تكتب على رقعة صغيرة على شكل جعران يكون مع الميت، فيها هذه العبارة: رَبُّ كل إنسان هو قلبه .. وقلبي راض عن أعمالي! وفي نقش فرعوني آخر: ليَسهُل عليك عبور الآخرة بقلب مطمئن، بفضل الإله الذي تحمله بين اضلاعك! أما في تراثنا العربي فكان القلب مكان الفهم، لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، ومكان الجرأة والشجاعة، أما مكان الألم والحُزْن واليأس فكان أولاً الكبد، قال الشاعر:

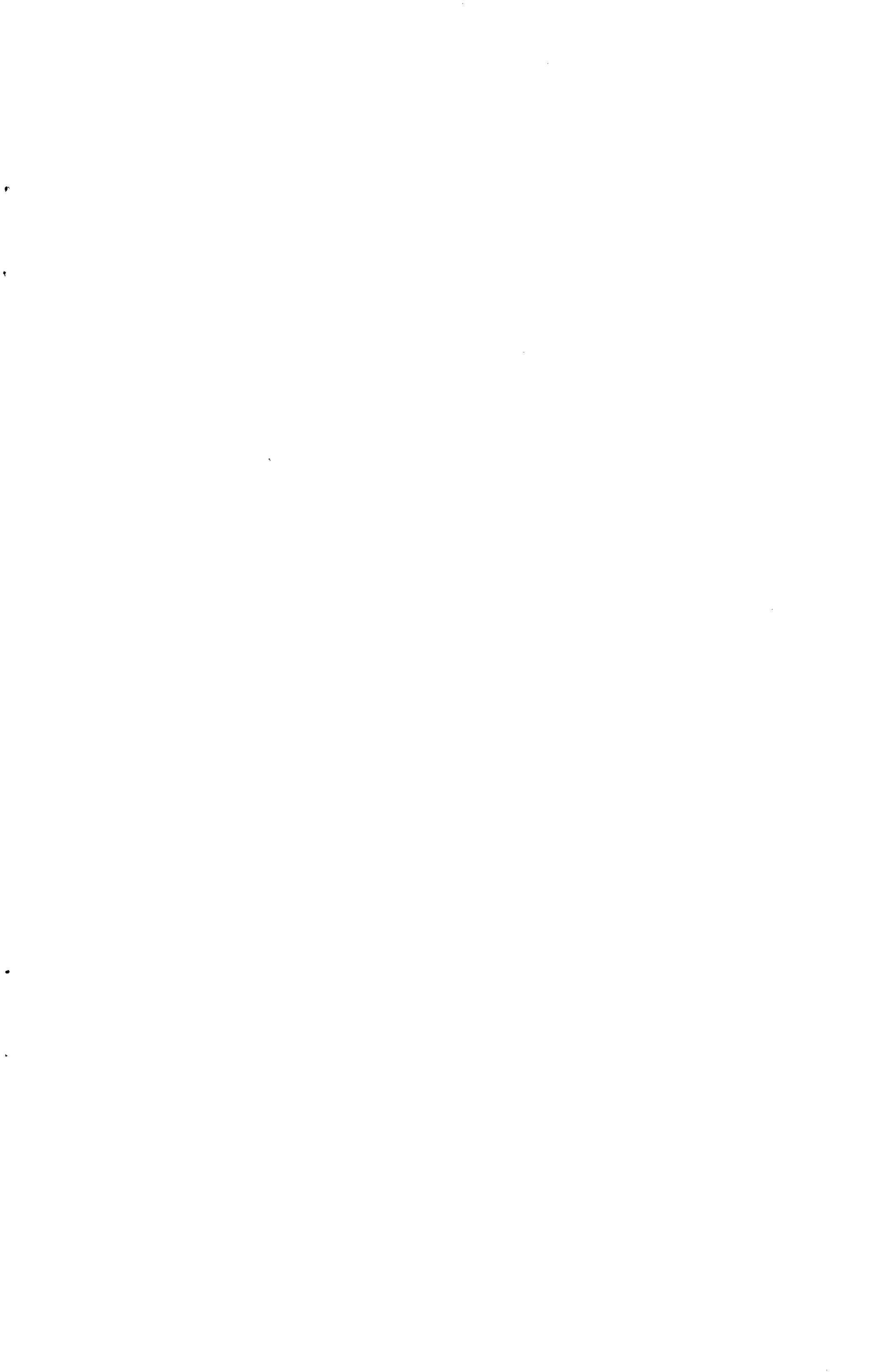
وَلي كبدٌ مَقْروُحةٌ من يبيعني بها كَبدا ليْسَتْ بذات قروح

أباها عليّ الناس، لا يشترونها ومن يشتري ذا علّة بصحيحِ

وقال غيره:

وَاكبداً قد تقطعّتْ كَبدِي وفَلتّتهَا لواعجُ الكُبّد

ورأيت صديقنا الشيخ عبدالسلام قد وصل على غير موعد، يقول: معذرة يا أستاذ، فأنا اليوم أحمل إليك رسالة من أم بيومي تقول إن كثيراً من قارئات الكشكول يطلبن بإلحاح مزيداً من الغراميات والوجدانيات، وأبلغتني أم بيومي هذه الرسالة وهي تضحك، فلما سألتها عن السبب قالت: حتى طائفة العجائز يطلبن هذا، قلت: الطرب إلى حديث القلوب لا يتوقف على الأعمار بقدر ما يتوقف على ما كان في الحياة ـ مهما كانت طويلة من الحرمان. فجلس قائلاً: قوّاك الله!



إسرائيليات للبيع!!

في هذه الأيام يكثر الكلام عن الحكومة الصهيونية في فلسطين، والكلام معها أيضاً، وأنا أعلم أن هذا الدكّان الصهيوني أصبح لا يغطّي نفقاته، لانتهاء عصر السمسرة اليهودية في الحرب الباردة بين الشيوعية الروسية المهيمنة على نصف أوروبا، ومعظم آسيا، وأجزاء من أمريكا اللاتينية. ثم سقطت هذه الشيوعية جثة هامدة، وانتهى شهر العسل الرأسمالي مع اسرائيل، وأحسّ المتبرعون اليهود بأن (الجزية) التي يدفعونها لهذه الدولة، التي ظلت منذ «هرتسل» ـ أي منذ قرن من الزمان ـ تزعم أنها (دولة اليهود) وهو عنوان الكتاب الذي ألهب به زعيمهم هذا كل مشاعرهم الدينية والعنصرية، فكان ذلك وبالاً عليهم، إذ ألهب في نفس الوقت جذوة (اللاسامية) في الغرب، حتى تمضخت عن

❁ جريدة الرياض الخميس ٢١ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ ٢٤ نوفمبر ١٩٩٤م ـ العدد ٩٦٤٩

«ألمانيا الهتلرية» ووقعت الكارثة الكبرى باشتعال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥). ودفع اليهود من دمائهم وأموالهم ثمناً باهظاً جداً، قرباناً للعجل الجديد الذي عبدوه في شخص تيودور هرتسل، واستمروا بعد هذه الحرب العالمية يعانون من أزمة الثقة بهم في روسيا وسائر بلاد الكتلة الشيوعية، ثم من المقاومة الفلسطينية والمقاطعة العربية الجماعية، ومن تضامن معظم دول العالم الإسلامي مع العرب، مما أجبر «دولة اليهود» على مواجهة حروب اضطرت أمامها إلى تجنيد كل من يصلح للخدمة الميدانية، أو للخدمة المدنية، من أجل المعركة وهو عدد قد يتجاوز نصف سكان اسرائيل من اليهود. وفتح زعماؤهم أبواب فلسطن لهجرة اليهود إليها، فتقاطرت عليهم حثالة من الناس لا يؤمنون بالصهيونية، جاءوا إما مكرهين وإما مخدوعين، وإما مغامرين، لأنهم لا يملكون شيئاً يخشون عليه الضياع. ثم تعاقبت الأحداث بسرعة، فبدأت الانتفاضة العربية الفلسطينية التي استمرت إلى الآن، ولا تزداد إلا اشتعالاً. وفجأة سقطت الشيوعية، وخلا لأمريكا الجوّ في العالم كله تقريباً، وأصبح كلب الحراسة الصهيوني غير ذي فائدة تبرّر حتى مصاريف إطعامه. وتبيّن لساسة العالم ـ مع أزمة مالية حادة ـ أن السلام أرخص نفقة، وأحبّ إلى النفوس، وأنجع أثراً في رقيّ الحضارة، من دعم سياسة القوة والتهديد والعنف، في أي مكان من هذه الدنيا التي أصبحت تبدو صغيرة جداً مع وسائل الاتصال.

وشيوخ الصهيونية قوم أذكياء، وإن كان ذكاؤهم يعمل ببطء

جداً. وقـد لمسوا أن المستقـبل لن يساعد «الجيش الذي لا يقـهر» على الاستمرار في التوسع، بل تأكـدوا ان احتفاظهم بما سيطروا عليـه في أيام العزّ أمـر مسـتـحيل، وأنهم أيضـاً في حاجـة إلى السلام، حـتى يتفرغ الشبـاب المعبأ للحـروب، ولإقرار الأمن في وجه المقاومة الـفلسطينية، للانتاج. وقد يستطيعـون إذا نجحوا في استعـادة بعض ثقة العرب، أن يجدوا عندنا أسواقـاً لهذا الانتاج. وتبين لهم أن دعوى «أرض الميعاد» ـ التي لم يطأها بقدميه موسى ولا هارون ـ قـد صارت مـعزوفـة مملّة حتى في أوسـاط اليهـود أنفـسهـم كمـا ان الذين تورطوا منهم فـي الهجـرة إلى اسـرائيل أصبحـوا أكثرية في فلسطين، وكرهوا الحروب، وصـاروا يخافون مما حولهم كالسارق الذي رآه العالم كله مـتلبساً بجريمته. ولاحظ القادة القدماء أن جيلهم أخـذ بسرعة في الانقراض، وأن الآخرين الذين سيـخلفونهم لم يتلقوا نفس الدروس، ولا نفس التـجارب فهم يريدون الآن ان يبرئوا ذمتهم مـن تلك التجارة الخاسرة. وهنا تختـفي المثاليـات، والشعـارات البراقة، وتبـقى دفاتر الحـساب، ويحكي رواة الغرب هذه النكتة في توضيح حقائق الموقف:

التقـى الحاخام اليـهودي، بالأسـقف الكاثوليكي، والقـسيس البروتسـتانتي، وجرى الحـديث بينهم لا في أصول العقـيدة، ولا حـتى في الديـن، بل في إيرادات كل منهم من صـناديق النذور. فقال الأسقف: عندما افتح الصندوق واستخرج منه النقود، أرسم دائرة على الأرض، والقي النقود في الـهواء، فما سـقط منها في الدائرة فهـو لله، وما نزل خـارجها فـهو لي أنا! وقال القـسيس

البـروتستـانتي: أنا أتبع تقريبـاً نفس الطريقـة ولكنني أرسم على الأرض خطاً مسـتقيمـاً، فما نزل من النقود إلى يمين الخط فـهو لله، وما كان عن يساره فهـو لي أنا! وجاء دور الحاخام فقال: أنا لا أرسم خطاً ولا دائرة، بل أرمي النقـود إلى أعلى فمـا عاد إلى الأرض فهـو لي، وما بقي مـعلقاً فـي الهواء فهـو لله! فقـال له النصـرانيان: فلن يـبقى لله شيء، لأن كل النـقود سـتهـبط إلى الأرض. قال الحـاخام: كيف تكونون من رجـال الدين وتنكرون المعجزات؟ إذا كان الله يريد نقوداً فما عليه إلا أن يبقيها معلقة في الهـواء! وكم من مرة أطلق مـفكرون ـ حـتى من غيـر اليهـود ـ وصف المعجزة على الصـهيونية. وعندمـا تأخذ حجمهـا الطبيعي بالنسبـة لأمم العالم، وليـهود العالم أيضـاً، سيعـود حديث هذه (المعـجزة) أسطورة تـلحق ببقـيـة الاسرائيليـات التي تتـراكم مع الزمن، وتتسـرب إلى العقول الضـعيفـة فتفرض نفـسها عليـها. ولمجـرد المسامـرة سأسـرد بعض ما جـاء من تلك الأساطيـر في التلمـود والمدراش، وهي كتب يقـدسها اليـهود ويتـبركـون بها، واختـرت مجالاً مـحايداً هو ما حكـاه رواتهم حول (خلق آدم)، وناقل الكفر ليس بكافر:

في اليوم السادس من بدء الخليقة تمخضت الأرض، بأمر الله، فولدت آدم. وكمـا تظلّ النُفَسَاء نجسة طيلة الثـلاثة والثلاثين يوماً التالية لولادة الطفل، فقد بقيت الأرض نجسة ثلاثة وثلاثين جيلاً، امتدت من آدم إلى حكم سليمان بن داود. حـينئذ فقط بدأ يشيد

لله معبداً في أورشليم! وامتزجت النار، والماء والهواء، والظلام، لتخرج من أحشاء الأرض كل المخلوقات الحية. وفي خلق آدم لم يستعمل الله طيناً كما اتفق، بل اختار تراباً طاهراً، حتى يتوّج بآدم بقية الكائنات. وسماه آدم لأنه خلقه من (أديم) الأرض، وإن كان بعض شيوخنا يرى أن (آدم) مكوّن من الألف والدال والميم الموجودة في كلمة أَدُمْ التي تدل في اللغة العبرية، على اللون (الأحمر) إشارة إلى أنه خلق من الطين الأحمر الموجود في حبرون (مدينة الخليل) في سهل دمشق؟ قريباً في المغارة المزدوجة التي سيدفن فيها إبراهيم وسارة! واعترض آخرون بأنه من غير المحتمل أن يكون الله قد استخدم طينة حبرون (الخليل). فهو مكان أقل في قدسيته من (موريا) تلك القمة الناتئة من جبل القدس، لأنها سرّة الدنيا! وعليها بنى هيكل سليمان، كما همّ إبراهيم بذبح ابنه إسحاق. وقالوا: إن الله أمر أحد رؤساء الملائكة، وهو ميكائيل، قائلاً: احضر لي تراباً من الموضع الذي سيقوم فيه معبدي المقدس! فأخذ هذا التراب وخلق منه آدم، لربط البشرية كلها بهيكل سليمان!! وقال آخرون: إن الله استخدم نوعين من التراب، جزء من جبل (موريا) والباقي خليط من تراب من جميع مناكب الأرض، وعجنه بماء من الأنهار العذبة، والبحار الملحة، وأن الأحرف الثلاثة في اسم (آدم) ليست الا اختصارات: فالألف من (إِفِرْ) بالعبرية، أي تراب (وأقول أنا إن الشيخ المشار إليه مخطىء لأن هذه الكلمة بالعبرية معناها الرماد)، والدال من كلمة (دم) والميم من كلمة المرِّة أو المرارة). فإذا تعادلت هذه

الأخلاط في الإنســان، صحّ بدنه، وإذا لم تتعــادل فإنه يمرض ثم يموت؟

قالوا: ولم يتنازل الربّ فـيمدّ يده لجمع التراب، ولـكنه أخيراً مدّ يده عندما قـاومت الأرض ميكائيل في أخذ قبـضة من ترابها. ويؤكد آخرون ان الطينة التي خلق منها جزْع آدم أخذت من أرض (بابل)، ورأسه وارد من (إسرائيل)، ومؤخــرته من حصن (أغما) وبقية أعضائه من بلاد أخرى كثيرة. أما روحه فموطنها السماء!

وتساءل شـيوخنا عــن الساعة المحــددة من هذا اليــوم السادس الذي نفخت فـيه الروح في آدم؟ فـقال لبعـضهم إنهــا كانت عند مطلع الفــجــر، وزعم آخــرون أن الروح ســرت فــيــه في اليــوم الخامس، قــبل خلق الكائنات البحرية، وزعم آخــرون أن آدم كان أول كائن حي خلقه الله! وزعم غيرهم أن روح آدم مخلوقة أيضاً من طين! (وكل هذه المزاعم تخالف ما تقوله توراة اليهود التي بين أيديهم).

أما قــامة أبينا آدم، فـقد زعم أصحــابنا أنه عندما يرقـد يغطي الأرض من أقــصــاها إلى أقــصاها، فـإذا وقف كــان رأســه على مستــوى عرش الله (تعالى عن ذلك علواً كبــيراً!) وأنا مضطر أن أوقف القــلم عند هذا الحـــد، بعـــد أن وصل الكذب والـصلف والتنطّع اليــهودي في الخــلاف والمساءلة إلى أقــصى حدود الكــفر وثقل الظل، وكأنــهم كانوا واقفين تحت يد الله عــندما خلق آدم! وأفكر كيف ينتسب هؤلاء إلى هذا العمــلاق الخرافي وفيهم أقزام

مـثل مناحم بيـجين واسحق شـاميـر؟ ولكن التلمـود والمدراش مصراعان لبـاب اللامعقول تتسرب منه كل الخـرافات والأساطير. وكان المعـبد اليهـودي هو المكان المختار لكل مـتصل بالدين، من قريب أو من بعيـد، حتى يوغل في الخيال، موهمـاً السامعين أن هذا حق وكان صندوق النذور يمتلىء كلمـا جلس واحد من تجار الخرافة اليهودية واسترسل في حكاياته، ثم صلى بجمهوره وجمع الصـدقات. وكـان أكثـر من يرتادون المعـبد يتـهربون عند جـمع التبرعات أو الصدقـات . . ولاحظ الحاخام هذه الظاهرة، فوضع أحد الخدم حارساً على باب المعـبد، يطالب بالنقود قبل الدخول، وإلاّ منع الآتي من الدخول. وذات مساء جاء غـلام يهودي صغير وحاول التسلل دون أن يدفع شيئاً، فأوقفه الحارس، فحلف له أنه جاء يخبر عـمه الموجود في داخل المعبد بأن زوجـته مريضة، وأن الطبيب في الطريق إليـها. وبعد تردد تركه الحـارس يدخل قائلاً: أدخل! لكن إيّاك أن تصلي!

قال الراوي: كـانت جمـاهير الحجـاج اليهـود قد وصلت إلى القدس بمناسـبة يوم الغفـران وازدحموا عند حـائط المبكى، وعلا بكاؤهم وصـراخهم وعـويلهم. وكـان رجلان منهم مـتجـاورين يبكيان أحـرّ بكاء، وتنهمر الدمـوع من أعينهم، فالتفت أحـدهما إلى الآخـر وقال: لا بد أنك مـثلي تعـمل في تجارة الأسـهم في البورصـة! فأجابه الثـاني وهو يبكي بكاء مراً: أنا صـاحب وكالة لتجهيز الموتى ودفنهم، وقرأت أمس في الجريدة أنهم وجدوا أدوية للإيدْز والحمّى المخية الشوكية!

وفي ميناء تل أبيب كانت سفينتان ضخمتان محملتان باليهود، إحداهما تغـادر والأخرى تصل. واليهود في السفينتين يـصيحون كل منهما نحو الآخر: مجانين! مجانين!

الرباط المقدس ..
غرامياً وسياسياً ..

أخيراً رأيت صديقنا الشيخ عبدالسلام ماثلاً أمامي، وأنا ملقى على فراش المرض ـ عافاكم الله ـ وظننت في دهشة المفاجأة أن ذلك من خيالات الحمى. ولكنني أحسست به يربت على كتفي، ويهم بتقبيلي. فصحت به: ابتعد يا مولانا، فأنا «مسكون» بجمهور من الجراثيم في حجم الفيلة! قال: لا حول ولا قوة إلا بالله! ومنذ متى؟ قلت: منذ اختفيت فجأة بلا أثر ولا خبر. فقال: جاءني الشيخ عبدالقوي وقد عزم على العمرة، فرافقته في رحلته ودعونا لك هناك، لكن مم تشكو؟ قلت: بدأ معي بلفحة (هواء) بارد .. فقاطعني ضاحكاً: لعلها نفحة (هوى) ساخن! قلت: يا مولانا، إن بعض الظن إثم! أجاب: أنا أعرفك جيداً، وأعرف أن الهواء البارد يتحطم قبل أن يلقيك في الفراش، هل

❁ جريدة الرياض الخميس ٢٨ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ ـ ١ ديسمبر ١٩٩٤م ـ العدد ٩٦٥٦

رآك طبـيب؟ قلت: نعم! وكـتب لي شراباً للـسعـال، ونقطاً في الأنف للزكام، وغرغـرة لالتهاب الحلق، وحبوباً لتطهيـر الأمعاء واقراصاً للحمى، وزيتاً للاستنشاق بعد العطاس، وفواراً للصداع، وقطرة لاحمرار العـينين، ومرهماً لتشقق الشفـتين، مردخاً لألم العظام، ولزقـة لوجع الظهـر، وإبراً لتنشيـط المقاومـة. فصـاح الشيخ: وتأخـذ هذا كله؟ أجبـته متـردداً: اقتصـرت على أقراص الحـمّى، والغرغـرة. أجاب: حـسناً فـعلت، ولولا ذلك لكانت حـالتك اسوأ، لا قـدّر الله، ورأيي أن تعـود إلى ما تعـودته من الضحك والسـخرية، فهذا دواؤك الـناجع، وطريقك إلى النجاة من الصيدلي والطبيب. وقد قرأت وأنا في مكة المكرمة كشكولك في الإسرائيليـات، وضحكت لما ذكرته فـيه من أساطير اليـهود، وأضاحيكهم. قلت: لقد كتبته وأنا في شرّ حال من الألم، فقال: ليس فيه أدنى أثر من ذلك، لا الهواء البارد، ولا الهوى الساخن. ألم تفكر وأنت مـريض في الزواج؟ صحت: وزوجـتي أم مالك .. هل نسـيتـها؟ أجـاب: لكنها بعـيـدة عنك منذ سنين، وديننا الحنيف فيه سـعة، والحمد لله. قلت: الطلاق من امـرأة مخلصة عاشت مع الإنسان أربعين عـاماً أمر عسيـر، وتعدد الزوجات في الإسلام له ضـوابط تساهل المسلمـون في تطبيـقها، حـتى صار الزواج ـ للقادر ـ مثل شراء سيارة جـديدة أو اقتناء فرش للسباق، أو تجديد الأثاث في البيت. قال الشيخ: أنت على حق في بعض ما تقول، فالزواج في الإسلام رباط مـقدّس، يشترط قبول الرّجل والمرأة، وفي حالة التفكير في التعدد ينبغي أن تكون الزوجة على

علم بذلك، وأن تكون موافقة عليه. فقاطعته قائلاً: هناك ظروف قاهرة لتلك الزوجة على الاذعان، مسلّمة أمرها لعلاّم الغيوب والقلوب والجيوب.

قال: وكأنه يريد أن يبعدنا عن بؤرة المناقشة: لقد رأيت عند الكعبة رجلاً نيجيرياً تركني مفكراً إلى الآن. كان يؤدي العمرة ومعه زوجته، فتجاذبنا أطراف الحديث، وعلمت منه أنه تزوجها في الاسبوع الماضي فقط، وأنه اعتاد كلما عقد على زوجة جديدة أن يحضرها معه للعمرة وسألته: وهل عندك غيرها؟ فأجاب: ثلاث اخريات. فقلت: وهل هن راضيات وموافقات؟ وهل تستأذنهن قبل الزواج؟ فردّ ضاحكاً: بل أنا أتبع (سياسة الأمر الواقع) ولا أرغم أحداً، بل أطلّق الرافضة لهذا الوضع وأتزوج غيرها. فسألته: كم مرة تزوجت؟ أجاب: تقريباً خمسين مرة. قلت: أنت تسمي الأمر الواقع (سياسة)، ورباط الزوجية رباط ديني (مقدّس) لا دخل له في السياسة. قال: لقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم مرات كثيرة. قلت: أنت لست بالنبي عليه الصلاة والسلام، ومعروف أن زواجه كان بتوجيه من الله عز وجل، ثم إنه لم يطلّق قط، فأين هذا من (الأمر الواقع) وتوالي الزواج والطلاق؟ فأجاب بشيء من الحيرة: أقام العباد فيما أراد، والدين يسر لا عسر! ثم تركني وانصرف. وبقيت أتحدث مع الشيخ عبدالقوي، فقال مبتسماً: هذا البطل الصنديد جدير بالاعجاب، وفضيلتك يا شيخ عبدالسلام تعلم أن إقدامي على الطلاق لم يحدث إلا وأنا على حافة الموت يأساً وكمداً وألماً،

لعلمي أنه أبغض الحلال عند الله، خصوصاً إذا كان الطرف الآخر من هذا الرباط المقدس مستهتراً بواجباته نحو شريكه، ممارساً للشقاق والخلاف والارهاب، لأوهى الأسباب. فذكرت له أن الشرائع التي تحرم الطلاق وتعدد الزوجات قد أوقعت أهلها فيما هو أشنع، مثل الزنا، وتعدد العشيقات. قلت للشيخ عبدالسلام ضاحكاً: إن الامبراطور لو قيدس فيردس (١٣٠ ـ ١٦٩م) كان كثير العشيقات جداً، حتى إن زوجته انبته على اهماله لها، وتفرغه لهذه المخلوقات الحقيرة، فأجابها قائلاً ليكن في علمك أن لقب (زوجة الامبراطور) له من الهيبة والعظمة ما يمنع من ابتذاله حتى وراء السور وفي غرف النوم! والمصيبة ان هذه المسكينة وجدت كلامه معقولاً! وفي عصرنا الحديث، واحتراماً لتشدد الكنيسة في أمر الطلاق. جرت العادة أن يتفق الرجل والمرأة الراغبان في الانفصال على أن تتهم المرأة الرجل بالخيانة الزوجية، وأن يقرّ هو بذلك، حتى لو كان كاذباً، فيتم الطلاق بسرعة بسبب الزنا، ولأن هذه الجريمة تدخل في اختصاص القضاء المدني الآن. فإن المقر بها لا يتعرض لعقوبة إلا إذا لاحقته النيابة، وهي لا تلاحق أحداً إلا بناء على شكوى ووصل الأمر إلى أن المرأة في أمريكا (تتبرع) بالاعتراف!

ومن الصعب على أي مصلح اجتماعي أن يجعل ضوابط الزواج جامعة مانعة، لا تقبل العبث حتى زواج الحب من أول نظرة، وانجذاب الطرفين كل منهما نحو الآخر، وارتفاع شعلة

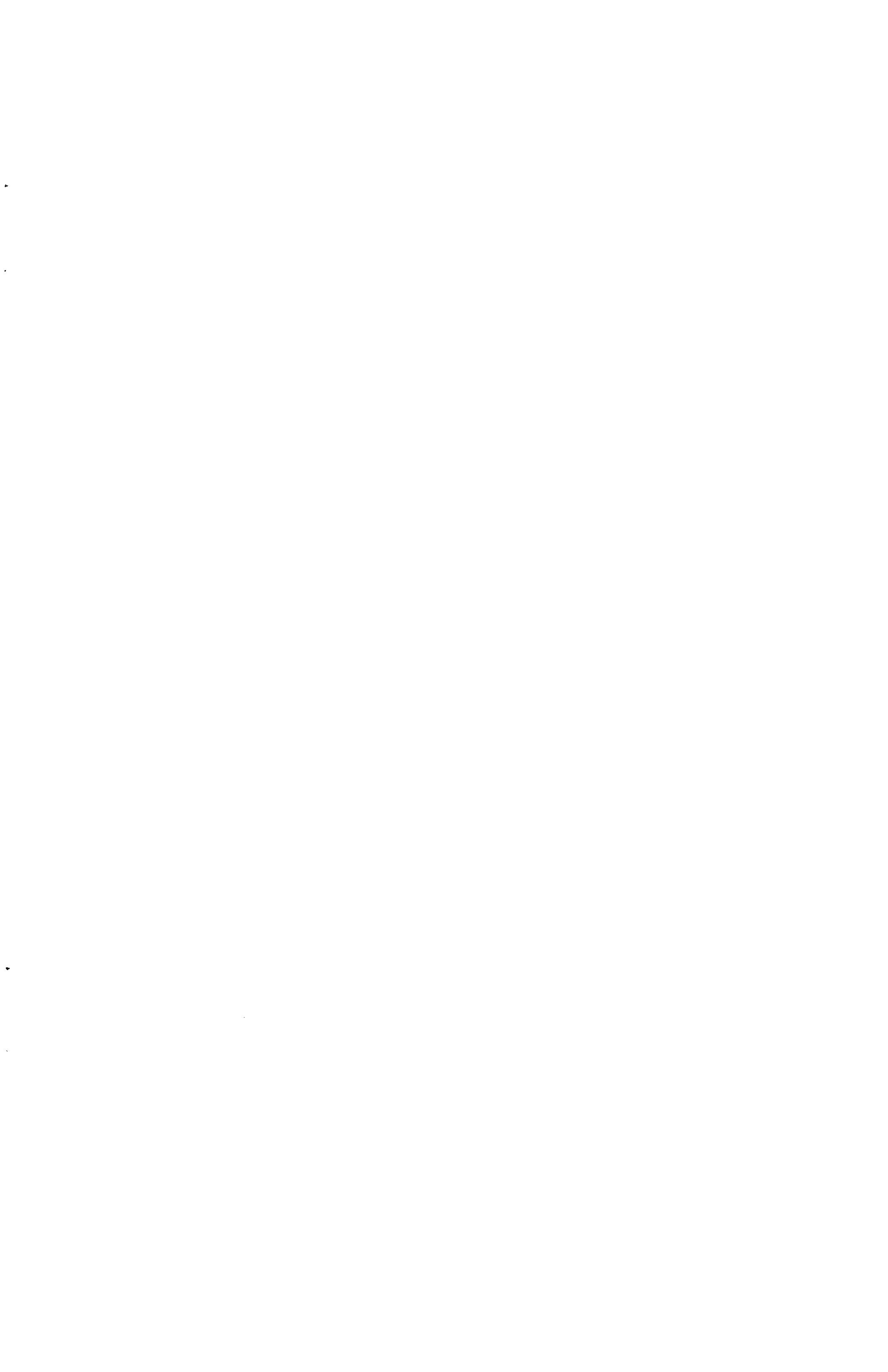
الغرام عالية خفاقة متألقة بينهما لا تؤكد شيئاً في مستقبل الزواج، حتى في أكثر البلاد علماً وتقدماً. وقد كثرت عندهم الأشعار والأمثال التي تقول: اعقد زواجك بسرعة، فعندك الحياة كلها لتندم ومع ذلك لا بد أن يكون أساس هذا الرباط المقدس (المودّة والرحمة) كما نص عليه كتاب الله. فالكاتب المسرحي اللاتيني بلاوطوس يقول: إذا زوجت امرأة برجل لا تحبه، فإنها لن تصير له صديقاً، بل عدواً. قال الشيخ عبدالسلام: والظاهر أن الغرام بين الزوجين لا يكفي وحده لاسعادهما، وربما كان اليسر المادي المعقول أساساً للسعادة الزوجية وهنا تختلف وجهات النظر: الثراء الواسع، والانفاق الأرعن، من غير حساب قد يدمر الحياة بين الاثنين، والأمر هنا نسبي. وأحياناً يكون الطرفان من الأثرياء، لكنهما يختلفان في نظرتهما إلى الثروة: هو مبسوط اليد مثلاً، وهي كزة شحيحة، أو العكس، فهذا الموقف والذي يعوزه التناسق والانسجام قد يعصف بالحياة الزوجية نفسها. ثم هناك زواج المصلحة، فالعريس واسع الثراء، والعروس فقيرة فيتخيل العريس أنه امتلكها بماله واستعبدها، والعكس كذلك صحيح، وهذه الزيجة دائماً معرضة للخطر، قال الراوي: إن عروساً من أسرة غنية جداً تم زفافها إلى قاض فقير ولكنه إلى جانب ذلك كان في غاية البخل فأرهقته بمطالبها، وبالغت في ذلك عندما تبين لها خوفه الشديد من انفاق المال. وذات يوم ذهب يشكوها إلى أبيها، الغني جداً، فظل الرجل ينصت بهدوء إلى أن أنهى زوج ابنته شكواه فقال له: اذهب وقل لها إذا تكررت شكوى زوجها

منه فإنه سوف يحرمها من الميـراث! ولم يعد هذا العريس البَخيل إلى الشكوى أبداً.

وإذا كان رباط الزواج، ورباط الحب مـقدسين على الرغم من كل هذه العواطف، فإن رباط السيـاسة ـ الذي قال عنه أنه مقدس أيضاً ـ بمـا فيه من مـعاهدات ومـخالفـات واتفاقـيات للصـداقة والتعـاون، تؤكدها المواثيق والحـفلات والتوقـيعـات، والنشر في أجهزة الإعلام، فإنهـا تساير مجرى السياسة ارتفـاعاً وانخفاضاً، فتحالف الدول العظمى الديمقراطية ضد النازية الهتلرية، وخوضها أشرس حرب عرفـها التاريخ، ما كادت تنتهي بهـزيمة ألمانيا، حتى قسـمتـها هذه الدول إلى مناطق نفـوذ عسكري بحيث يـبقى كل جيش مـحتلاً لجزء من المانيـا، لا يتصل بحليفـه إلا نادراً وبحذر شديد.

وعندنا في الشـرق، لأقل خـلاف تبـدأ أجـهـزة الإعـلام في الصراخ ونشـر جميع الصفـات المذمومة في حق الخـصم، بألفاظ يستحـيل أن يعيدها أي مفكر محـترم نفسه ويحتـرم الإنسانية ثم يدور الزمن دورته، ويلتـقي الخصوم بالأحـضان والقـبل، وكأن شيئاً لم يكن وقد تكون أجهزة الإعلام هذه مغالية في الثقة بالغد، ففي حـرب عام ١٩٦٧م بين العرب وإسـرائيل، وقف المذيع ذو الصوت المجلجل يذكر أعداد الطائرات التي أسقطتها قوات الدفاع أثناء الغارات الجويـة الإسرائيلية، ونسي الرجل نفســه فراح يقذف بأعـداد هائلة من الطائرات الصـهيـونيـة المحطمة، ولو صـدّقناه

وجمعنا هذه الأرقام بعضها إلى بعض لنتج منها ما يمكن أن يكون سقفاً يغطي كل سماء الشرق الأوسط، وهذا في الوقت الذي كانت الطائرات المصرية واقفة في مرابطها لأن اليهود بدأوا بتدمير ممرات الاقلاع والهبوط في المطارات المصرية منذ الدقائق الأولى لعدوانهم، ثم دار الزمن دورته، وحل محل هذه الأيمان المغلظة بالقاء الصهاينة في البحر، صلح يجعل من حرب ١٩٧٣م «آخر الحروب»! وبعدها بقليل كان الجيش الصهيوني يزحف على لبنان حتى بيروت! ثم جرت الأحداث على النحو الذي نراه الآن، وكان الأولى ألا يتم أي (رباط مقدس) في السياسة، فالأخوة والصداقة، والتكافل، وحتى الوحدة أمور تحددها المصالح الزمنية بين الدول، وفي العالم الشيوعي كان الذي يكفر بكارل ماركس، أو الذي يحرّف في مفاهيم «الإعلان الشيوعي» أو «رأس المال» التي دبجها آخر مدعي النبوة الكذابين . . كان من يكفر بها أو بما كتبه لينين أو ستالين أو ماوتسي تونغ يقتل. مثل أي كافر أو مرتد في أي دين من الأديان، ثم تبين للناس هناك أن رباطهم المقدس إن هو إلا شعوذة حول بعض الأصنام، فهبوا وحطموها وبقينا إلى الآن نتذكر غرام قيس بليلى، وروميو بجولييت ونخشع أمام رباط الحب المقدس في حين أننا نسينا كارل ماركس، وشاوشيسكو ولينين وستالين، وبعض عاقدي الرباط السياسي المقدس من الأحياء.



شطارة...

في القطار، وعلى خط طويل مـن الخطوط الكثيـرة التي تشق القارة الأوروبية، اتخذت مكاني من العـربة، ووجدت نفسي قريباً جداً من امـرأتين شابتين جـميلتين مـزخرفـتين بأسلوب محـبوك مـسبـوك. ولمّا كـانت سحنتي ترفـض بوضوح أن أكـون من بني جلدتهما، فقـد استمرتا في حديثهما، كل منهـما أمام فنجان من الشاي، ولعلهما قد وثقتا من أنني لا أفـهم لغتهما فلم تتوقّفا عن ثرثرتهما. قالت إحداهما: أمّا بنت «شاطرة»! كيف اصطادت هذا العريس الثري؟ أجابت الأخرى: بلعـبة الحب! جاء إلى العاصمة ليـتعـاقد على تصـدير الخنازير من مزرعـته في الريف، وكـانت «سُونيا» عاملة تليفون في احـدى المؤسسات التجارية، فعرفت من لهـجتـه في الحـديث أنه ريفي على الفطرة، وأن طـول عشـرته

❁ جريدة الرياض ٦/٧/١٤١٥هـ - ٨/١٢/١٩٩٤م - العدد ٩٦٦٣

للخنازير قد أضافت إليه المزيد من البلاهة . . . ثم انفجرت ضاحكة، وصاحبتها تسأل: وبعد؟ . . أجابت: اتصل الحديث بينهما ناعماً كالحرير، وانتهى بموعد بينهما على العشاء، اختارت له واحداً من أفخم مطاعم المدينة. وإلى أن حان الموعد كانت سونيا تحت أصابع مصففي الشعر، وطاليات الأظافر، وبائعي «الأضافيات» البرّاقة من العقود والدبابيس والأقراط، ثم تكحلت، وتخططت، وتعطرت، وتهندمت، ووقفت على مقربة من مدخل المطعم تراقب وصول صاحبنا، وكانت علامته المميزة كما قال لها، زهرة قرنفل على سترته. ورأت «الزبون» تحلّي صدره زهرة قرنفل كبيرة حمراء فانتظرت دقيقة ثم دخلت مسرعة تعتذر عن تأخرها، ولم تجلس حتى أشار إليها بالجلوس مرحباً، ومصافحاً بكف ثقيلة كبيرة مكتنزة. قالت صاحبتها: ثم ماذا؟ أجابت: ومع الطعام والشراب بدأت معه لعبة الحبّ ممزوجة بالأفلاطونيات العذرية المثالية . . ومع اللقاء اليومي كل مساء، تزحزحت المثل العليا قليلاً قليلاً، وبعد اسبوع معه في المدينة كانت تجلس بجانبه في سيارته الفاخرة، في الطريق لا إلى حظيرة الخنازير، بل إلى مكتب عمدة البلد لعقد الزواج، والدخول في حظيرة الحب، فأضافت الثانية بخبث: وعاشا في الثبات والنبات، ورزقا بكثير من الخنازير! ونظرت الأخرى إليها بعتاب قائلة: بعدها معك يا جوليا، إنها صديقتنا ولابد أن نفرح بما حققته لنفسها. اجابت: أنا ما قلت شيئاً، ولكنه تاجر خنازير!

وخطر ببالي بيتان من شعر أبي الحسين الجزّار، وكان شاعراً،

وبائع لحم يقول:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت بصدق وأمقت الآدابا

وبها كانت الكلاب ترجّيني وبالشعر صرت أرجو الكلابا؟

وطالت الرحلة وأنا أفكر في «الشطارة» ما هي؟ ما أصلها وفصلها؟ يقول أبوبكر بن دريد في معجمه «جمهرة اللغة» أقدم معجم عربي وصل إلينا كاملاً: الشطير = البعيد، ومنه سمّي الشاطر لتباعده عن الخير. وفي هذا التعليل تكلف، فالشطر النصف، والشطر أيضاً الاتجاه المستقيم كأنه خطّ قطع بالسكين. ومنه قوله تعالى: ﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ والأصل في الشطر القطع إلى نصفين متساويين، ومنه سمي نصف بيت الشعر في وزنه العمودي الشطر، ومن مستحدثات الاشتقاق «الشاطور» وهو سلاح كبير للجزار يقسم به الذبيحة نصفين، وقال المحدثون (الشطيرة) أي القطعة من الخبز، وأطلقوها بعد ذلك على قطعة الخبز التي وُضع فيها الإدام، أي «السندوتش»، وهذه الكلمة الأخيرة اسم علم لجزيرة كان أميرها بريطانياً، وكان يُصنع له هذا الخبز بالإدام حتى يأكله ولا يضطر إلى ترك مائدة القمار الذي كان مولعاً به، فاستعمالها بلفظها لا بأس به مثل غيرها من أسماء الأعلام التي أطلقت على أشياء مثل (أمبير) في الكهرباء، وكذلك (فولت) ومثل (البورصة) وأيضاً (المكدام) وغيرها. وان كان السندوتش منتشراً عند العرب وغيرهم منذ أقدم العصور. قال الراوي إن

«أشعب» الطمّاع رأى رجلاً يبيع قوساً فسأله عن ثمنه فقال: دينار. قال أشعب: والله لو ضربت به الطائر فنزل مشوياً بين رغيفين ما شتريته بدينار! وحكى الجاحظ عن نفسه أنه كان يضع السمك المشوي في الخبز ويبيعه للبحارة في ميناء البصرة. فهذان الوصفان ينطبقان على «السندوتش» لكن لم يكن لهما اسم اصطلاحي في ذاك الوقت.

وتذكرت وأنا تلميذ في المدرسة الابتدائية ما كان يقوله لنا كل معلمينا من أن «التكرار يعلم الحمار» إلا معلماً واحداً كان في غاية الرفق والدماثة، فكان يقول «التكرار يعلم الشطّار» وفهمنا أنهم الأذكياء.

أما ما أراه أنا في أصل الشاطر فهو نوع من اللصوص يهجمون على القافلة، ويشقون ما تحمله من كيس أو خرج أو غبيط، فهذا هو الشاطر، وصناعته (الشطارة) ويقوي هذا عندي استعمال اخواننا المغاربة للفظة (شفّار) وهو الذي يستعمل حدّ السكين ليبعج به الكيس والربطة وجيوب الناس، والبربر يسمون اللصوصية في لغتهم (تاشفارت)، ولا يخفى ما بين الشفّار والشاطر من تشابه.

وكانت عند العرب مصطلحات تعيّن أنواع العابثين بالأمن في المجتمع منها (الخارب) وهو لص الإبل خاصة و(الفاتك) وهو المنصرف إلى الخمر ومجالس المغنين والقيان ومغازلة النساء، ومعظم هؤلاء شعراء. ومنهم (الخليع) وهو الذي خلعته قبيلته

لكثرة جناياته وما يجلبه عليها من غرامات وسمعة سيئة. و(الصعلوك) وهو رجل انقطع للسرقة واغتصاب الأموال، يختفي دائماً حيث لا يعلم أحد، ويظهر لارتكاب جناياته، وفيهم شعراء مشهورون مثل: الشنفرى، ثابت بن جابر الملقب (تأبط شراً)، مالك بن الريب التميمي (قبل توبته)، بكر بن النطاح، توبة بن الحميّر، السليك بن السلكة .. وغيرهم (والمقينون) وهم أصحاب المواخير يقصدهم المنحرفون لسماع الغناء ومعاقرة الشراب وما يتبع ذلك من المباذل نظير عطاء يأخذونه من الروّاد، والواحد منهم يوصف بأنه قوّاد، أو كشخان، أو قلتبان. (واللصوص) وهم محترفو السرقة في البيوت والمتاجر والأسواق، ولهم حيل كثيرة و(الطفيليون) وهم الذين يعيشون من غشيان الأعراس والولائم دون أن يدعوهم أحد، وسلاحهم الصفاقة وقلة الحياء، والاحتيال للتسلل في زحمة الناس، قال شاعرهم:

نحن قوم إذا دعينا، أجبنا وإذا لم ندع يدعنا التطفيل

ونقول: علّنا دعينا فغبنا أو أتانا فلم يجدنا الرسول!

والمكدّين، أو الشحاذين، أو المتسولين، أو بني ساسان، أو أهل الكشكول، أعزنا وأعزكم الله! ومن أجمل ما ورد في الأدب العربي عنهم (القصيدة الساسانية) من شعر واحد من شيوخهم هو العالم والأديب والرحّالة أبودُلف الخزرجي الينبوعي مسعر مهلهل. وقصيدته هذه في أكثر من مائتي بيت تحتوي على (الشفرة السرية) للمكدين، ذكر معظمها أبومنصور الثعالبي في

الجزءالأول من كتابه (يتيمـة الدهر، في شعراء العصر) مع شرح لهذه الشفرة السرية، كما دارت على هذه الطائفة فكرة (المقامات) لا سيمـا تلك التي أبدعها بديع الزمان الهـمذاني ثم الحريري من بعده.

فهذه جولة سريعة لأهم محترفي الازعاج الاجتماعي في الفكر العربي القديم، وهناك محتالون يعتمدون على أية وسيلة للوصول إلى أغراضهم، حتى (غسل المخ) أو (التـأثير النفسي). فمن ذلك ما ذكـره ابن الجوزي في كـتاب (الأذكيـاء) من أن حاجب أمـير المؤمنين المهدي العباسي قال للخـليفة: رجل بالباب، يزعم أنه قد رأى لأميـر المؤمنين رؤيا حسنة. وقـد أحب أن يقصّهـا عليه . . فأدخل إليه سـعيد بن عبدالرحمن وكان لـه رؤية وجمال ومروءة ظاهرة، ولحية عظيمة ولسـان. فقال له المهدي: هات! بارك الله عليك! مـاذا رأيت؟ قال: رأيت يا أمـير المؤمنين ـ آتيـاً أتاني في منامي فقال لـي: أخبر أمير المؤمنين المهـدي أنه يعيش ثلاثين سنة في الخـلافة، وآية ذلك أنه يرى في منامـه كأنه يقلّب يواقـيت ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة كـأنها قد وهبت له. فقال له المهدي: ما أحـسن ما رأيت! ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقـبلة على ما أخبرتنا به، فـإن كان الأمر على ما ذكـرته أعطيناك ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعـاقبك لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقتْ، وربما اختلفت. قال سعيد: يا أمـير المؤمنين، فما أصنع الساعة إذا صرت إلى منزلي وعـيالي فأخبرتهم أني كنت عنـد أمير المؤمنين، ثم رجعت صفراً؟ قال المهدي: فكيف نعمل؟ قال: يعجُل لي أمير

المؤمنين ما أحبّ، وأحلف له بالطلاق اني قد صدقت، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وأمر أن يؤخذ منه كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم .. فكفله خادم من حاشية الخليفة، وقبض المال وانصرف. فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفاً حرفاً.. وأصبح سعيد بالباب واستأذن فأذن له .. قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك مبيناً! قال له سعيد: الله أكبر! أنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني. قال له: حباً وكرامة! ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار، وعشرة تخوت ثياب من كل صنف، وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة، فأخذ ذلك وانصرف .. فلحق به الخادم الذي كان قد كفله، وقال له: سألتك بالله هل كان لهذه الرؤيا التي رأيتها من أصل؟ قال له سعيد: لا والله!! قال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له؟ قال: هذه من المخاريق الكبار، التي لا يأبه لها أمثالكم، وذلك أني لما ألقيت إليه هذا الكلام، خطر بباله، وحدث به نفسه، وأشربه قلبه، وشغل به فكره، فساعة نام، حلّ في قلبه، وما كان شغل به فكره في المنام... فطلبه المهدي لمنادمته وحظي عنده، وقلّده القضاء على عسكر المهدي فلم يزل كذلك حتى مات المهدي.

قال ابن الجوزي وقد سئل أحمد بن حنبل عن سعيد بن عبدالرحمن هذا فقال: ليس به بأس، وقال يحيى بن معين هو ثقة واتهم هذه القصة بأنها موضوعة عليه من الهيثم بن عدي، فقد قال يحيى بن معين: الهيثم بن عدي كان يكذب، وقال علي بن المديني لا أرضاه في شيء، وقال داود وأحمد بن عبدالله

العجلي: الهيثم كذاب، وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: الهيثم ساقطاً!

والله أعلم بالحقيقة بين أولئك الشطّار.

أفكار.. عن الحمار..

من أشــهر آثار الأديـب البريطاني الـساخـر المعـاصر «جــورج أورويل» رواية «مزرعة الحـيوانات» التي يتناول فيهـا بالنقد اللاذع جميع النظم الثورية الاشتراكية المنبثقة من الماركسية، جاعلاً أبطاله من حيوانات المزرعــة التي تملكها أسرة عريقــة من بني آدم، وكأنه يريد إحـياء الحكمة علـى لسان الحيـوانات مثل بيـدبا الهندي في «كليلة ودمنة» واليوناني «ايزوب» في قصصـه القصيرة، والفرنسي «لافونتـين» في أقاصيـصه الشـعرية. . وتبـدأ الرواية عند أورويل بخلية سـرية يتزعمـها الثور، فتـخطط حيوانات المزرعـة لانقلاب مـفزع، وثورة عـارمـة، تنتـهي بطرد أصحـاب المزرعـة من بني الإنسان، واختيار مجلس ثوري اشتراكي من الدواب، ونشر ميثاق يضمن حـرية ذوات الأربع وذوات الجناحين، وحقوق الحـيوان،

❁ جريدة الرياض ١٣/ ٧/ ١٤١٥هـ ـ ١٥/ ١٢/ ١٩٩٤م ـ العدد ٩٦٧٠

والقاء كل مسؤولية في الاستعباد والاستغلال والقتل والذبح على العدو الأكبر الذي هو الإنسان.. ولم يتخلف عن المشاركة في «التنظيم السري» أو «النشاط الثوري النضالي» إلا الحمار. فأرسل إليه «مجلس الثورة» من يحاسبه على هذا الجبن والتخاذل.. فاكتفى الحمار في دفاعه عن نفسه بأن يقول: هل رأيتم حماراً مذبوحاً؟ هل تشهدون على الانسان بأنه يقتل الحمير ويأكلها مشوية؟ طبعاً لا! وبالتالي فلنفرض أن نظامكم نجح واستقر، فإنني سأظل فيه كما كنت من قبل.. حمارا! أحمل الأثقال، وأكد ونجحت الحيوانات أولاً، وفشلت أخيراً لأن العدو، الإنسان.. وجد له من بني جنسه «حلفاء» هزموا هذه الدواب، ودحروا كلاب الحراسة التي كانوا ربوها للدفاع عنهم.

ولم أجد فيما قرأت حماراً مذبوحاً ومشوياً ومأكولاً إلا مرة واحدة في أسطورة كتبها الشاعر الفرنسي المعاصر «جاك بريفير» وهو أديب مرهف الحس، شفاف الرؤية، أحببته لبعده عن الحذلقة والتكلف، وعمق شعوره بإنسانيته وعنوان أسطورته هذه «الأسلاف الأوائل للحمير» وتعبيره فيها من نوع «قصيدة النثر» فأحببت أن تشاركوني في قراءتها، وها هي ذي مترجمة عن الفرنسية.

كانت الحمير ـ في ماض من الزمان ـ برية وحشية تماما/ فكانت تأكل إذا جاعت، وتشرب إذا عطشت، وترتع في العشب كما تشتهي/ وأحياناً. يجيء الأسد فيفترس منها حماراً/ فتهرب

البقية، صارخة صراخ الحمير/ ولكنها - في اليوم التالي - لا تفكر في ذلك/ وتعود إلى نهيقها، وشربها وأكلها وجريها ونومها. . باختصار - باستثناء يوم الأسد - كان كل شيء يسير بطريقة لا بأس بها/ وذات يوم، وصل «ملوك الخليقة» - كما يحب الناس أن يسموا أنفسهم - إلى ديرة الحمير/ مسرورة برؤية هذه المخلوقات الجديدة/ فهرولت لمشاهدة البشر/ وقالت الحمير بعضها لبعض وهي تهرول/ يالها من حيوانات متجهمة! تمشي على رجلين!/ وآذانها صغيرة جدا!/ انها ليست جميلة!/ لكن علينا - على كل حال - أن نعد لاستقبالها حفلة بسيطة/ فذلك أول ما يجب/ وراحت الحمير تسليهم بالتمرغ في العشب/ والوثب بقوائمها/ ثم انطلقت تغني ألحاناً «حميرية»!/ وبعد ذلك بدأت - من باب المزاح - تدفع بني آدم بأجسامها دفعاً خفيفاً، ليسقطوا أرضاً/ ولكن الإنسان لا يحب المزاح إذا لم يكن هو الذي يمزح/ وفي خمس دقائق كانت جميع الحمير مكتوفة بأيدي الناس!/ ماعدا جحشاً صغيراً أخذوه وذبحوه/ ثم شووه على السفود/ والبشر حوله في أيديهم السكاكين/ وعندما نضج الجحش بدأ الناس يأكلون/ وقد بدا عليهم الامتعاض، وعدم الاستحسان/ فرموا سكاكينهم على الأرض، وقال أحدهم لنفسه: إن طعمه لا يشبه العجل. فقال آخر: إنه غير طيب. . أنا أفضل الغنم/ وصاح ثالث وهو يبكي: إنه رديء/ أما الحمير التي أسرها الناس وكتفوها فقال أحدها: هذا يبكي!/ فظننت أن بكاءه لأسف على ما فعلوا/ واستبشرت الحمير، وقالت: سيطلقوننا أحرارا/ أما

الناس فـراحوا يتحـدثون، ويشيـرون بأيديهم ورؤوسـهم اشارات غريبة/ ثم قـالوا معاً: إنها حيـوانات لا تصلح للأكل، وأصواتها منكرة/ وآذانها مفرطة الطول/ ولابد أن تكون في غاية البلادة/ لا تقرأ ولا تعرف الحـساب وسوف نسمي كلاً منهـا «حماراً»/ هكذا قررنا/ وسوف تحمل أثقالنا.. هيـا بنا!/ وساق الناس الحمير منذ ذلك اليوم..

ونقلتني هذه الأسطورة إلـى موقف آخـر من سـيرة البـهلول، يسير صاحـبي فيه في أرض تتكلم فيها الحيـوانات، وسمع الحمار يهـودياً يقول: نحن شـعب الله المختـار.. نحن أبناء الله! فـثار وصاح مستنكراً، رافضاً هذا الادعـاء الجريء البذيء ثم عاد فهدأ وهزأ:

قـال الحـمار ضـاحكاً: تبـاً لزاعم!/ يـدعى إلى الله، وتأباه البهائم/

يا ويله! هذا نسب/ لا ظـل فيـه للأدب!/ لو قـال: مـوسى لي.. لقلنا ربما/ أو ادعى العـزيز.. كان أسلمـا!/ لكن.. إلى الله؟ إلى الله انتـمي!/ صـاح جحـا: هذا مطيـة العزيز!/ قـال الحـمار: ليس في ذلك ضـيـر/ كنا مطايا الأنبـياء/ والصـابرين الفقراء/ ظهـورنا دوماً حرام/ على الطغاة العـاصفين بالسلام/ أو البـغاة الظالمين لـلأنام/ حتى اليـهـود.. حين كانوا مـؤمنين../ توسل الأعداء بالسـحر المبين/ وساحر يـريهم بمعجله/ لكن أبت أتانه أن تحمله!/ قالت ـ وقد جاءت على استحياء/ أتان تلعام بن

باعــوراء/ لـم أقبــل السحــر. . ولعن الأبرياء/ ولو أتى اليــوم. . لسرت حيث شاء!. .

ووصل شيــخنا عبــدالسلام فــسألني عن الموضــوع الذي أكتب فيــه. . فأجبت: الحــمار. . الله يعــزك! فعاد يســأل بخبث: من ذوات الأربع، أم من ذوات الاثــنين؟ أجـــبــت: ذوات الأربع يا مــولانا أســهل حصــراً، وأقل خطراً من ذوات الاثنين فــضــحك وقال: الحمد لله! حسبــتك تتكلم في السياسة! قلت ضاحكاً كان مروان بن محمد، آخر خلفــاء بني أمية، يلقب بالحمار ولا أدري لماذا؟ قال: قارن ـ طال عمرك ـ بينه وبين معاوية، أو عبدالملك بن مروان أو عمر بن عبدالعزيز، وستجد هذا اللقب كبيراً عليه، بعد أن تسبب في ضياع الخلافة، وسقوط هيبة العرب، وسيادة الفرس والتــرك في عهــد بني العبــاس. . قلت: يا فــضيلة الشــيخ وهل يستحق الحــمار أن يكون سبه ولقــبا يتقاذفــه الناس؟ قال: أشراف العرب لم يكونوا يركبون الحميــر. . رووا عن عبدالحميد بن يحيى الكاتب قوله: لا تركب الحمار، لأنه إن كان فارها اتعب يديك. . وإن كان بليــداً أتعب رجليك! وظهر الطاعــون في محلة، فــأخذ أعرابــي حمــاراً وراح يعدو به هرباً من الوباء، فــرآه أعرابي يفــر ويستحث الحمار فقال:

لا يسبق الله على حمار ولا على ذي حافر خطار

وكثر ذم الحمار في الأدب العــربي حتى قالوا: ومن العرب من لا يركبه أبداً، ولو بلغت به الحاجة والجهد، إذ كانوا يعتقدون أنه

مطية الدجال الذي يفتن الناس عن دينهم في آخر الزمان. . قلت: ولماذا يا شيخ عبدالسلام لا يأتي الدجال ـ نعوذ بالله منه ـ راكباً سيارة أو طيارة أو صاروخاً فضائياً؟ فرفع سبابته قائلاً: سؤال وجيه، يا أستاذ! لكن كل هذه الوسائل للمواصلات لم تكن قد تم اختراعها في عصر هؤلاء القصاصين، ومن يدري؟ ربما ركب حزمة من أشعة الليزر! ومع ذلك فقد أجمل أعرابي ذم الحمار بقوله: إن أوقفته أغرق الطريق بولاً، وإن تركته ولى، كثير الروث، قليل الغوث، سريع إلى الفرار، بطيء عند النفار، ولا تودى به الدماء، ولا تمهر به النساء، ولا يحلب في الإناء! قلت للشيخ: لعل ذلك يرجع إلى أنه عندما خلقه الله كان وحشياً برياً، حراً، كما قال الشاعر الفرنسي «جاك بريفير» أجاب الشيخ: كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى تولد حرة ـ حتى الإنسان طال عمرك ـ ثم تطرأ ظروف يتكيف فيها المخلوق مع الحياة التي فرضت عليه، بشرط أن يكون التكيف معها ممكناً، لا مستحيلاً. . ولعل الإسرائيليين يعقلون ذلك في رغبتهم في السلام مع العرب، والروس في حرصهم المتعجرف المتخلف على استعمار بلاد الشاشان المسلمين، واستخدام القوة العسكرية في هذا، وكذلك الصرب في حرصهم على التطهير الديني العنصري ضد المسلمين، لا لشيء إلا لأنهم يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، كما أعلن ذلك مراراً وتكراراً المفتي الإسلامي في البوسنة والهرسك. . قال الشيخ: هؤلاء الذين يتصرفون بهذا الاجرام في عصر الحضارة والمدنية والشرائع. . حمير، بل هم أشد غباء من

الحمير، كما رووا عن حمار كان يركبه فيلسوف فقال: متى ينصف الزمان فاركب؟ فأنا جاهل بسيط والفيلسوف جاهل مركب.. وقال الإمام الزمخشري شعراً في مثل هذا المعنى:

وإن الحمار، ومن فوقه   حماران، شرهما الراكب

وسمعت أخيراً نكتة ضحكت لها كثيراً، قال الراوي: كان القرد يمشي مع صاحبه، فصاح رجل: أين تذهب بهذا الحمار، فرد عليه صاحب القرد قائلاً: إنه قرد، لا حمار! فأجاب الرجل على الفور: أنا أسأل القرد!

وهناك تأملات وتأويلات وأفكار، تدور حول الحمار.. منها أن البشر في عالمنا المحيط بنا كانوا يخشون أشد الخشية من استبداد الشهوة الجنسية بالرجل والمرأة على السواء، ويتخذون في أساطيرهم رموزا أشهرها الشيطان والحمار وقليل من الدواب والطيور، ويروون أن التغلب على هذه الشهوة الحقيرة يكون بالوقاية من الفراغ الروحي.. ومن هذا القبيل رواية كتبها (أبيوليه) بعنوان: «الحمار الذهبي، أو تناسخ الروح» وبطل هذه الرواية أمير روماني اسمه (لوقيوس) الذي يطالعنا في البداية في كامل قوته وثروته، في مخدع مخملي معطر، مع عشيقة جميلة، وفيما هو يرتكب معها خطيئته ـ أو خطيئتهما، نظر إلى وجهها الفاتن، فتذكر الإلهة التي يعبدها، واسمها ايزيس.. وعلى الفور مسخ حماراً بسبب عبوديته لشهواته البهيمية، ثم ما زال يعيش في مسوخ أخرى أذكى من الحمار إلى أن كاد بشراً سوياً حكيماً ذكياً،

عفيفاً تقيا. . وراح يقص قصته على الناس للموعظة، وكيف أعماه غرور المال عن رؤيته كنه روحه، واقترن هذا العمى بالعبودية لنزوات الجسد، حتى ما عاد يستطيع التحكم فيها، ثم أضاء له نور السماء، فتعلق به، وراح يرقى من رتبة إلى رتبة، وينسى ضلاله القديم، حتى صار حكيماً. . لا حماراً!

القمة الاسلامية.. والأدب...

منذ عرف الانسان الكتابة والأدب أصـدق وثيقة لتاريخ الانسان وأحب آثار الفكر البشـري الى النفوس. تستـريح اليه، وتتناوله، في جدّها وهزلهـا، وترويه في كتبها ومـسامراتها، بل يشـير اليه الوحي السماوي كثيراً قبل ان يعـثر عليه المنقبون والأثريون بأزمان طالت او قصرت. . والقرآن الكريم حافـل باخبار خلق السماوات والارض وحياة آدم وحـواء وذريتهما، وبذكـر نوح والطوفان وبما صح من تاريخ بني اسرائيل وانبـيائهم وملوكهم وشرائعـهم وبسير وحكم من تاريخ اليـونان والروم وعاد وثمـود والفراعنةوالبـابليين واليمن والفـرس حتى قـبائل العرب المعـاصرة لظهـور الاسلام، يلخص هذا الإيجاز عـبدالرحمن السهلي الاندلسي شـارح السيرة النبوية في كتاب لطيف من تأليفه عنوانه : التعريف والإعلام فيما

❁ جريدة الرياض ٢٠/٧/١٤١٥هـ ـ ٢٢/١٢/١٩٩٤م ـ العدد ٩٦٧٧

أبهم من الاسماء والأعلام في القرآن الكريم ومن ذلك يتضح ان الكتاب الكريم الذي يتوج رأس القمة الاسلامية الاخيرة في الدار البيضاء وهي وسابقاتها يتوج ايضا رأس الحضارة الاسلامية الشامخة منذ القرن الأول وحتى القرن الخامس عشر الذي نعيش فيه..

ومع ذلك ومع بلوغ الدعوة الاسلامية منذ اجيالها الأولى الى مئات من الشعوب والقبائل والأمم والحضارات واللغات بقي المسلمون متشرذمين، متمترسين وراء حدود حضارية او ذهنية او لغوية او فكرية لاتكاد كل شرذمة تعرف عن جارتها او اختها شيئا وهو امر ينافي جوهر الدين ومدلوله اذ هو في جوهره ودلالته. حتى اللغوية (الارتباط) بايمان واحد وشريعة واحدة ومصلحة واحدة مهما تعددت فروعها وتطبيقاتها بحكم المناخ والبيئة والخلفية التراثية التي كان لكل امة قبل دخولها في الاسلام ، من منا يعرف امة الشاشان؟ وهم مسلمون يقرأون كتاب الله باللغة العربية منذ اكثر من الف سنة! ومن يعرف جيرانهم الاذربيجان، الذين أسلم معظمهم منذ اول الخلفاء الراشدين ابي بكر الصديق؟! او الطاجيق والأوزبك والتركمان وغيرهم؟ واين المعاجم الدقيقة التي تضم شتات لغاتهم؟ بل اين المعاجم الدقيقة الحديثة التي تكشف عن كنوز لغة العرب اقدم لغة سامية تاريخا واحدثها كتابة؟ ان الحمل لباهظ الثقل، ولكنه ضروري وواجب..

ولو عدنا الى الحضارة الغربية لتبين لنا ان شعوبها قد ارتطبت حضاريا بالفكر فلا يكاد كتاب او اغنية او رواية او مسرحية او مذهب فلسفي او اجتماعي يظهر في بلد اوروبي الا وجد مطبوعات ببقية اللغات الاوروبية بعد مدة وجيزة من ظهوره بلغته الأصلية فشاعر الانجليز شكسبير مترَجم بمنتهى الأمانة والجمال الى جميع اللغات الأوروبية بلا استثناء وكذلك الأديب الممتاز برنارد شو، ومن قبله جون ميلتون والأمر مثل ذلك تماما مع الايطالي دانتي والاسباني سرفانتس والفرنسي فولتير والالماني جوته والروسي دستويفسكي، فضلا عن اليوناني هوميروس والروماني مزجيال، وهذه الاسماء ليست الا عينات وراءها جماهير من عظماء الادباء والمفكرين الذين تُتداول آثارهم في شعوب اوروبا وامريكا في ترجمات رصينة امينة يعيش منها الناشرون والمترجمون ومن بقي حياً من المؤلفين او ورثتهم عيشة رغداً، تنهض بها الثقافة في كل تلك الأمم نهوضا كان غير ممكن لو ان هذا النتاج بقي محصورا في لغته القومية المحلية لا يطلع عليه قوم آخرون..

وعندما أسست الصهيونية وكالتها اليهودية في تل ابيب بفلسطين، كان من اهم انجازاتها إنشاء قسم لترجمة الآثار الفكرية العالمية في جميع نواحي المعرفة الانسانية وكانت هذه الأعمال تنشر بهيئة واحدة في ثوب واحد، وتباع بأسعار معتدلة وهي الآن عشرات الآلاف من امهات الكتب وفي مقدمة ما ترجم الى اللغة العبرية القرآن الكريم وعدد من كتب التاريخ والادب العربي الى جانب ما تتعتز به امم الغرب من ادب قديم وحديث ومن علم

وفلسفة وسياسة واقتصاد وقامت بجانب االوكالة اليهودية مؤسسات اخرى كثيرة تتّبع آخر ما يصدر في العالم ترجمة او عرضاً او تلخيصا ودراسة وهي خطة أثرت المعجم الحديث للغة العبرية الصهيونية بما لابد منه من المصطلحات العلمية والفنية والتقنية على نحو ما كانت العربية القديمة المحدودة بقادرة على الوصول اليه ولم يكن الاختيار للترجمة عشوائيا او مقتصرا على ما يؤيد اليهود من الأعمال بل كانوا يترجمون كتب اعدائهم قبل اصدقائهم . .

والأمنية التي أرجو ان تتحقق هي أن تتمخض القمم الاسلامية عن سوق دولية للفكر الاسلامي فنترجم من الفارسية ادبها، وهو باستثناء رباعيات الخيام والشاهنامة ومنطق الطير والمثنوي ومقتطفات من ديوان حافظ الشيرازي وكتاب جلستان للشيخ سعدي الشبراوي ماتزال طي الكتمان اللغوي الايراني مع ان في الادب الفارسي الحديث من الدواوين الشعرية والمسرحيات والروايات والقصص المتوسطة والقصيرة اشياء على اعلى مستوى من الجودة اما المسحة الشيعية التي قد توجد فيها فان القارىء المثقف لا يواجه منها خطرا على اسلامه السني، فهو يقرأ من الادب العربي المترجم آثارا كثيرة تحمل الطابع العلماني او الشيوعي او الفوضوي او الإباحي دون ان يتأثر بشيء من ذلك وقد انتشر منذ خمسين عاما بترجمة عربية جيدة. كتاب «كفاحي» السميك الضخم الذي ألفه أدولف هتلر اكبر دعاة التفرقة العنصرية

والدكتاتورية والحروب الاستعمارية في العصر الحديث ولم يتأثر به احد وكذلك ترجم الى العربية كتاب «نحن الحرية» للمهندس الروسي «كرافشنكو» وهو يفند الشيوعية الروسية ويهيىء الأذهان لقبول الرأسمالية الاحتكارية على الطريقة الامريكية. وكان يوزع مجانا وبالملايين من النسخ وبقي الاسلام بخير قبله وبعده..

من منا عرف الأدب الالباني الحديث أو ادباء البوسنة والهرسك وكوسوفو، أو الأدب التركي الحديث او الافغاني او الباكستاني او السنغالي او النيجيري او الماليزي او الاندونيسي او البنغالي.. الخ فكل هذه الشعوب مسلمة، ولا اشترط هنا ان يكون الكاتب فقيها او داعية اسلاميا، لأن الاسلام اوسع دائرة من ذلك، يستظل بمظلته الفكرية كل من نشأ فيه. بل ان العالم العربي الناطق بالعربية اكثر ادبائه لا يعرف بعضهم بعضا الا فلتات تأتي احيانا كالفاكهة النادرة ، واذا كان العراقي يعرف ادباء سوريا فإن معرفته بأدباء مصر يتقلص ظلها مع بعد الشقة والمصري عنده من كتائب الادباء والشعراء والمتأدبين والمتشاعرين والفلاسفة والمتفلسفين زحمة هائلة لا أول لها ولا آخر ومعرفته بادباء اليمن او دول الخليج او فلسطين محدودة، يزيد من ضيقها ضيق ذات يده وغلاء الكتاب ونفس الملاحظة تنطبق على السودان والصومال وموريتانيا. اما المغارب العربية من بنغازي الى الدار البيضاء فتكاد تبقى بالنسبة لقارىء المشرق العربي رسالة مغلقة لا يطّلع عليها أحد من خارج هذه المنطقة الا بمحض الصدفة. والنقاد في العالم العربي كله مسئولون عن هذا النقص فهم بإقليميتهم وعصبيتهم القومية لا

يكادون يأبهون لما يظهر خارج دائرتهم من نتاج فكري، لا يعرّفون به لأنهم لا يعـرفونه ولا يقوّمـونه لأنهم لا يقيـمون له وزناً، ثم تتدخل اعتبارات منحرفة في عـمل الناقد فهو يرتشي احيانا ويطيع نداءات عقائدية حينا،، وتـوجيهات خنفشارية متـشنجة لا علاقة لها برسالته، ناقدا وقاضيا في بعض الأحيان! هذا ونحن في دائرة الفكر العربي باللغة العربية..

وهذا الفكر العربي من كـافة البلاد العربيـة من حق كل مسلم غيـر عربي ان يطلع عليـه بلغته فـاذا كانت اللغـة تحمل الصبـغة القوميـة فان الاسلام حضارة، وهو جـدير بأن تصل اصواته بكل لغات المسلمين الى الناطقين بها. ومن هنا يتبين مقدماً طموح هذه الفكرة الى آفاق بعيدة ومع ذلك فانها تستحق كل هذا الجهد. وقد يرد بعض المترددين بأن العالم الاسلامي اكثره تتفشى فيه الأمية مع الفقر والذي لا يقرأ ولا يجد قـوت يومه الا بصعوبة لن يفكر في شـراء كتـاب وهو اعتـراض له قوته، ولكن اذا امكن انتـاج هذه المترجمات في طبعات شعبية، وبنسخ كثيرة العدد وساعدت الدول المشتركة في مؤتمرات القمـة الاسلامية بشيء من العون المادي ولو في البداية فإن اولئك الأمـيين سيسعون الى تعـلم القراءة والكتابة بلغتهم او يعلمون ابناءهم عـلى الأقل حتى يقرأوا لهم هذا النتاج الثقافي النابع من بلاد المسلمين فنكون قد أصبـنا عصفورين بحجر واحد: التخـفيف من تفشي الأمية الى درجة الاخـتفاء الكامل ان شـاء الله وتعريف كل مـسلم بأن وراءه الف مليـون مسلم مـثله آمالهم من آماله، وآلامـهم من آلامه. وحاضرهم ومسـتقبلهم لا

ينفصل عن حاضره ومستقبله ولا أشترط هنا ان تكون هذه المترجمات من نوع «الأدب الاسلامي» في أضيق معانيه الوعظية والحماسية، بل تكون مرآة للأمة التي انتجته بخيرها وشرها، فكل بلاد المسلمين الآن وككل البلاد تشهد لونا أو ألوانا، من صراع الخير والشر، لا تشذ في ذلك عن بقية أمم الأرض، ولكنها تنزوي وتنطوي على آلام تبوح بها داخل حدودها ولا يكاد يطّلع عليها احد من المسلمين في الأمم الأخرى..

ولقد تبكي.. فما أفهمها ... ولقد ابكي.. فما تفهمني

غير اني بالجوى أعرفها ... وهي ايضاً.. بالجوى تعرفني

وهنا النقص الذي أشعر به وأُشير اليه لم يبدأ الآن بل بدأ واستفحل منذ اكثر من الف سنة فشاعر العرب ابوالطيب المتنبي لا يكاد يجد نفسه في ايران القريبة منه جدا حتى يصيح:

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان!

اما المترجمون في عصرنا هذا فكثيرون، ويكون من التفريط من جانب امة نزل القرآن بلسانها الا تفهم بقية المسلمين..



الأوانس العوانس...

هن كثيرات جدا في الغرب، وكثيرات منهن كن مخطوبات لشباب كعيدان الخيزران مرونة وصلابة، وكعيدان الزئبق نضارة واريجا، كعيدان البلور شفافية ونورا. ثم نادى النفير لحرب ما، في ركن سحيق من اركان هذه الأرض التعسة، فتحطمت تلك العيدان تحت وقع الألغام والرصاص والقنابل والنابالم، وبقيت هذه الأوانس على وفائهن للحبيب الراحل، لا يرضين بديلا. ومنهن من آثرن راحة اليأس من الزواج، وصرن راهبات، وكأنهن اصبحن وقفاً خيريا على روح المرحوم، وذكراه. وأولئك الراهبات هن الاسعد حالا بين العوانس، بصحبة امثالهن في الدير، ومشاركتهن في الأعمال اليومية من طبخ وغسيل ورعاية لبعض المرضى والايتام المستحقين لرعياة الكنيسة. هذا اذا التزمن بالعفة

❁ جريدة الرياض ٢٧/٧/١٤١٥هـ - ٢٩/١٢/١٩٩٤م - العدد ٩٦٨٤

والاستقـامة، ولم تغلبهن شياطين الجن، وشـياطين الانس ايضا، على امرهن. مما جعل الحكايات، والنكت الساخرة، تكثر عنهن. وكان يمر بالدير راهب مسـن كل اسبوع، فيعـترفن له بخطاياهن، ويختار لكل منهن ما يقابل ذنبها من الاستغفار والكفارة والتوبة.

وتقدمت اليه راهبة شابة رائعـة الجمال، فقال: احكي يا بنتي! قـالت يا أبانا رأيت - في المنام فـقط - فـارس احـلامي نازلا من السمـاء. ثم دخل غرفـتي، فعانقني. فـسأل الراهب بلهـفة: ثم ماذا؟ قالت: كشف شعري! قـال الشيخ وانفاسه تسرخ: ثم ماذا؟ - ثم قبل شعري وجبيني قال الكاهن وهو يلهث: ثم ماذا؟ قالت: ثم سحب الرداء عن كتفي! قـال وهو يكاد يفقد الوعي: ثم ماذا؟ قالت: ثم القـيت نظرة على باب الحجـرة فرأيت الراهبة العـجوز رئيسـة الدير واقفـة، وأفقت من نومـي.. فصاح الشـيخ: ولماذا وقفت بالـباب هذه السخـيفـة؟ عليهـا اللعنة! ثم جمع حـوائجه وانصرف وهو يهز رأسه اسفاً! وحكايات اخرى كثيرة.

اما عانس (الحياة المدنية) فانها عندهم علي نوعين، اولاهما من نوع «الأرملة الـطروب» التي حـزنت بـعض الوقت على فـقـد المرحـوم، ثم انطلقت لا تحـرم نفـسـهـا من شيء إلا من الزواج الشرعي، لأن: «الحـياة الحـرة» اقل في الواجبـات والمسئـوليات، واكثر (تنوعـا) وجاذبية. والنوع الآخر العـانس الكاملة العنوسة، تعـيش في عزلة عن الناس، وفي ذبـول الزهرة التي اخطأها المطر وضربها حـر الهجيز. وهذه غـالبا ما تعيش مـتدينة، قارئة، لا

ترحب إلا بصحبة مثيلاتها من العوانس. وهن ـ الا من عصم الله ـ يتلذذن بالخوض في اعراض المتزوجات والعـاشقات، والجميلات المشرقات الشابات.

حسداً حملنه من شأنها وقديما كان في الناس الحسد

وفي هؤلاء تكثر النكت والحكايات عن فـضولهن، ومراقبـتهن للجيـران، وتتبعهن لاسـرار الهوى بين المحبين، وتسمـعهن وراء الابواب ومـتابعـتـهن لكل حركـة في الحـارة، في الطريق او في البيوت قال الراوي:

تقدمت احـدى العوانس «المزمنات» الى الشـرطة تشكو من ان جيـرانا لها ـ الرجل وزوجـته ـ يرتكبـان اعمالاً «فـاضحـة» امام عينيها، فقـام معها احد مفتشي الشرطة، وصحـبها الى مسكنها، وفي حجرة من المنزل قالت له مشيرة الى كوة في الجدار: من هنا يا سيدي الضابط ارى كل شيء. فرفع الرجل بصره ولم ير شيئاً. فقالت له: خـذ هذا الكرسي واصعد عليه، ثم تـسلق فوق خزانة الملابس واجلس فـوقها، واخـرج رأسك من الكوة، وسـترى كل شيء. وانصـرف الضابط وهو يأسف لأنه لا سلطة له فـي ارسال الناس الى مـستـشفى المجـانين. والطف اولئك العوانس مـن تجد لذتها التعويضية في الأكل، انهـا تكتنز لحما وشحما فلا تجف ولا تندى، وتحتـفظ بكثيـر من المرح والرضا. بخـلاف من تضعف، ويجف جلدها، وتزداد نظراتها شراسة.

وحضـر صديقنا الشيخ عـبدالسلام، فـالقى نظرة على الورقة

وصاح: موضوعك ناقص يا استاذة فأنت الى الآن لم تتكلم إلا عن العانسات، والعانسون هم ايضاً مشكلة. فسألته: اهي نفس المشكلة؟ ضحك وقال: هيهات! صلي على النبي! قالت: ألف صلاة! فجلس وقال: البنت العانس في اغلب الاحيان لا ذنب لها. فهي! ما ان يكون فاتها قطار الزواج، او رأت الكثير من لداتها ورفيقاتها لم يسعدن في زواجهن، ورأتهن متعطشات لم يجدن في الزواج إلا سراباً ومزيداً من الهم والكد والعذاب والعاقل من اتعظ بغيره اما العانس الذكر فذلك عدو المرأة اللدود، الذي يرى في النساء جميعاً مصدراً للارهاق والازعاج واتلاف المزاج والاعصاب، فيجبن عن اقتحام العقبة، ولو عرف الحب مرة واحدة في حياته، وارجع نفسه، لوجد ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق جميع الرجال عادلين ولا جميع النساء شياطين. وهذه العنوسة التي خاضها بارادته، بل بانانيته، قد حولت الكثير من امثاله الى مخلوقات عنيفة متجبرة، لا تعرف رقة الشمائل، تقدر متعة المشاركة في الحياة، بل كان منهم الارهابيون وقتلة الرجال والنساء على السواء. هذا الى ان كمال العفة، وتمام الدين، واستيفاء الرجولة لا تكون الا بالزواج.

وقفت اصب لي وله الشاي، وانا مشدودة امام هذا الفيض من الدفاع عن المرأة! فاضاف: ثم انك لم تحدد سن العنوسة في المرأة والرجل، اجبت كنت انوي ان المس هذا الآن. فسن العنوسة في المرأة يتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين بحسب الاجناس

والمجتمعات والعادات ففي اوروبا وامريكا الـشمالية يحتفلون بعيد كل سنة يسمونه عيد سانت كاترين، وفيه تخرج العوانس - ابتداء من سن الخامسة والعشرين فما فوق - وقد ميزن انفسهن بقبعة خاصة، حتى يفهم الباحثون عن الزواج انهن ايضا باحثات عن هذه الضالة المنشودة. فهو سوق كبير للزواج ينتهي بآلاف من الزيجات، قال الشيخ بطيبة قلبه المعهودة: الناجحة، ان شاء الله. قلت: يظهر هذا في يوم آخر اسمه عيد سان فالنتان، وهو عيد المحبين والعاشقين، ويشارك فيه السعداء من المتزوجين.

ومع ذلك فإنني - مع كثرة اطلاعي على المسرحيات والقصص والروايات المشهورة في الغرب، وجدت ذكر العوانس - لاسيما من النوع الجاف - كثيرا، اما العانسون ففي النادر ان يأتي نموذج منهم في موقف المدقق في سفاسف الأمور، او الشخص المللي بالعقد، الذي يرتبك ولا يستطيع ان يتصرف على طبيعته مع امرأة.

وفي الأدب الفرنسي المعاصر، كتب «غبرابيل شفالييه» رواية وضع فيها مجموعة من العانسات تتزعمهن واحدة من ذلك النوع الخشن الشرس، ومجموعة من العانسين على رأسهم قسيس القرية وهو عانس بأمر الكنيسة الكاثوليكية التي لا تسمح لرجل الدين بالزواج. ولكنه في عنوسته هذه لم يكن دقيقاً في الالتزام، اذ كانت تخدعه عانس من النوع السليم المتين، وكانت (ترتكب) معه من شهوة الجسد ما لا يرضي إلا الشيطان. وكان الشيطان قسيساً

آخر في قرية مجاورة، تخدمه امرأة مماثلة، فكانا يتبادلان التوبة والغفران ببرقيات مكتوبة باللغة اللاتينية المقدسة ـ لغة البابوات، حتى لا تفهم موظفة البرق ما يقولان.

وجاء يوم تنظر فيه البلدية في ميزانيتها، ويتكون مجلس البلدية من العمدة (رئيسا) وهو من كبار الملاك الزراعيين، ومدير المدرسة الابتدائية، وهو شيوعي متعصب، ومن القسيس إياه وهو يميني متطرف، ومن معلم القرية وهو شاب معجب بجماله، وبقدرته على جذب قلوب أولئك القرويات، وهو ايضا ـ كما يقول ـ شاعر، وعند النقاد لا يستحق حتى لقب (شعرور) وأخيرا صاحب الحانة التي تضم الكثير من رجال القرية، ومنهم العانسون الذين يجعلون سهرتهم كل ليلة في الحانة، لأن زوجة صاحبها امرأة جميلة ومثيرة ولا ترد يد لامس. وعندما اجتمع هذا المجلس لم يوجد منه اثنان على رأي واحد فالقسيس يريد صليبا كبيرا من الرخام المذهب في المقبرة، ومدير المدرسة الشيوعي يطالب بالغاء، جميع الصلبان وألا تنفق أموال الأحياء على الأموات. . وهكذا. وأخيرا وجد رئيس المجلس حلا ذكيا للخلاف، بصرف هذا المال في بناء (مبولة) ينتفع بها أهل البلد جميعا بدل الوقوف صفوفا أمام الحيطان والجدران. ولسوء حظهم اختاروا لهذا البناء الحضاري ميداناً قريباً من الحانة وتحت شباك تلك العانس المريرة، وبعد حفلة افتتاح المبولة بحضور وزير اشتراكي سابق، كانت جموع القرويين قد تجمهرت في الميدان تسمع لخطبة الوزير. واذا بفلاح جري صاح به حتى يفتتحها (عمليا)، وهلل الجمع ونزل الوزير درجات

المنصة متجها الى المبنى وهو يـقول للعمدة: يا له من عمل شاق! فأنا أفـضل ان اقول خمسين خطبـة على ان (ارتحل) بولة واحدة! مع ذلك انتهت المهـمة بسلام، وعـاد يودع الجماهيـر قائلا: هذه المبولة صورة صادقة لدستور فرنسا، لأن الكل أمامها سواء، الغني والفقير، والعظيم والحقير، والخفير والوزير!.

لكن بعد هذا بدأت العانس تخطب في صديقاتها من العوانس ضد هذا البناء اللعين، وقررن الذهاب الى القسيس لتحريضه على الهدم فقال: مستحـيل! فقد أقيم بقرار اجماعي من البلدية، وهو يضمن النظافة أكـثر من عمل هذا أمام الجدران والحـيطان. فقالت العـانس بغـضب: ومـا يقـول أبونا في أولئك الـسكارى الذين يقصدونها وهم يغنون أغانيهم المنحطة، بأصـواتهم القبيحة؟ قال: مـزالوا في الشارع! ولما لم يحصلن من الـقسـيس على نتـيجـة استأجرن صـحفيا فاشلا من صحافـة الأرياف فكتب عدة مقالات ضد هذه المبولة. وتأثر نصف القوم بما كتب فقرروا أن يذهبوا إلى الكنسيـة يوم الأحد والقـسيس يلقي موعظتـه، فيـشغبـون عليه. وانتهى الأمر بمعركـة بين المصلين ورواد الحانة، وجاء قوات النظام من العاصمة لقمع هذه «الحرب الأهلية». فعاث الجنود في الأرض فسادا وأغروا النساء وفـتنوهن. وتكونت من الفلاحين نواة مقاومة سرية بالارهاب، مما أوجـد أزمة وزارية كادت الحكومـة أن تسقط بسـببـها، لولا انـها أمـرت بسحب الجـنود وإعلان نهـاية الحكم العسكري في الـقرية. وفي ذلك اليوم شـوهد الجنود ينسحـبون، وبعضهم جـرحى، وبعضهم يسير علـى عكاز، وملابسهم رثة،

وأحذيتهم ممزقة، والمطر يهطل عليهم مـدرارا فتغوص أقدامهم في الطين. على حين ظهـرت اطلال الحـانة والمبـولة والكنيـسة بعـد تدميرها في المعارك، ووقفت العانس تفرك كفيها شامتة، وتصيح: لقـد أصبـحت بطلة الفـضيـلة والدين والأخلاق، وكـدت اروح (شهيدة) مثل «جان دارك»!..

مخدرات في رؤوس البشر!

باريس .. مرة أخرى .. وقد عدت إليها بآلام ظهري، لأستأنف العلاج، وباريس تعطيك الجمال، وقد تعطيك الحرية، وجائز أن تمنحك الحب، وربما جادت عليك بالشفاء إذا كان مرضك خفياً محيراً، أما الزكام ووجع العضلات وبرودة الأطراف وخشخشة المفاصل، فإن الراحة والدفء والنوم العميق والمسخنات الخارجية والداخلية هي ما ينصح به الناس والأمناء من الأطباء. وفي انتظار موعدي مع المستشفى بعد بضعة أيام، اخرج من بيتي فامشي - الهوينى جداً، ثم الجأ إلى أحد المقاهي التي أعرفها، وقد أخذت زخرفها وازّينت في هذه الفترة من أعيادهم وتربع في صدر كل منها رجل يلبس الثياب الحمراء، بحواشيها من الفراء الأبيض الناصع، وتتدلى من عارضيه لحية بيضاء فخمة

❁ جريدة الرياض ١١/٨/١٤١٥هـ - ١٢/١/١٩٩٥م - العدد ٩٦٩٨

مستعارة، لم يتـعب في تربيتها لحظة واحدة، إلى أن وصلت إلى حـزان، فهـو رجل «العيـد» الذي يسمـيه الانجليـز سانتـاكلوز، والفرنسـيون بابانويل، والارثـوذكس القديس نيـقولا. ولا يمر به طفل إلا تبادل مـعه المزح والمسح: هذا على لحيـته الكاذبة وذاك على رأسـه الصادق البـريء، وقد ينفـخه شيخ الـعيد قطـعة من الحلوى.

رأيت في هذا المقهى أحد الزملاء القـدامى في جامعة باريس، وكان صـاحبي يهـودياً جمـعتني واياه دراسـة التلمود في حـلقة الحاخام الأكـبر «موريس ليبـر» فبادرته سائلاً: مـاذا يفعل هنا مع النصارى؟ فأجاب من فوره: مـثل ما يفعله مثلك، من المسلمين! فبلـعت ريقي وقلت: نحن والنصارى من أمم الأرض (الجـوييم) ولسنا من (شـعب الله المخـتار) فـضحـك ملء حنجرته وقـال: اجلس، ودعك من هذا، فكلّنا بشـر، أولاد آدم وحواء، فسـألته بالحاح: ليست عادتك الجلوس في المقاهي، فاصدقني!.. اجابني بحسرة: أنا الآن غارق في الغـرام إلى أم رأسي! تصوّر؟ أجبت: لو كان معي الشيخ عبدالسلام لردّ عليك قائلاً: رحمك الله! أنتم السـابقون، ونحن الـلاحقـون! قال: ومن الشـيخ عـبدالسـلام؟ أجبت: شـيخ من شيـوخ المسلمين. قال: بلّغـه تحيـات شيخ من شيوخ اليهود! قلت: وما قصة غرامك هذه؟ أجاب: لا أدري.. بلى! أنا أدري انهـا أشبـه الناس بحور الجنة .. إنهـا سمـاوية لا أرضيـة! أرق من النور.. أخف من نسيم الأصـيل .. أشف من خيال الشعراء.. أحلى من ألحان داود! فصحت به: كفى، كفى!

وهل واعدتك هـنا؟ قال: ياليت! إنهـا تعمل في المسـرح المجاور للمقـهى، وتمر من هنا قبل بـدء المسرحيـة بساعـة، فأراها. . إي والله! . . وأعود إلى بيـتي سعيـداً منشرح الصـدر. آه! لو كانت يهودية، بنت الجوييم هذه! قلت وتنتظر مرورها كل يوم؟ فاجابني بحماس: بل انتظر وقع نعليها على هذا التراب! وقفز في ذاكرتي بيت ديك الجن الحمصي:

فلأجْل نعليْها! وما وَطيءَ الثَرىَ شـيء أعـز عليَّ من نعليْهـا

ثم ترجمت له البيت بالفـرنسية فصاح: أما أنا فأكـثر . . أكثر بكثيـر! قلت مداعباً أرجـو لك العون! فأجابني منتـهراً: اسكت! انت لا تعرف الحب! قلت إني أسامحك! لو تركت لنفسي العنان لوجدتني بجـوارك باكياً، لا شوقـاً إلى هذه الممثلة، بل إلى . . . لكن اسمع ترجمة لبيت آخر من الشعر العربي:

ويبكي، فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً، بكيت له دَماً

فصـاح: عاش العرب! لهم في كل خـاطرة من خواطر النفس آيات بينات من شـعـرهم! وسـألته: هـل اقتـربت لحظة اشـراق صاحبتك، فنظر في معصمـه وقال: بعد ربع ساعة، ثم نقر على كتـفي وقال: تستطيع ان تبـقى معي، فـهي تمرّ ولا تعرفني، ولا تشعر بوجودي! قلت متعجباً: ولِمَ هذا العناء؟ فصاح: أدمنتها! ـ صارت جـزءاً من وجودي! وبعد دقـائق تتابعت أنفاسـه. . وكأنه يلهث من العطش وسمـعته يهمس: وصلت! وصلت! وسـمعنا طقطقة كعبها على الطريق، واشرأب صاحـبي يستشرفها من بعيد

وأنفاسه تتسابق من صدره، وكل شيء في وجهه يتزلق لمعاناً: عيناه، زجاج نظارته، العرق الذي يتفصد من جبينه على الرغم من زمهرير الشتاء، أسنانه التي تفتر عن ابتسامة سعيدة، أما أنا فلم أشعر حيالها الا بصورة جميلة تذكرني بقول بشار بن برد:

صدّتْ بخد وجلتْ عن خد ثـم انثنت كالنـفس المرتـد

وما كادت تمر حتى تمتم: تبارك الله أحسن الخالقين! قلت: وهل لك زوجة؟ فأجابني: نعم! وخمسة أولاد، وثمانية أحفاد! لكن ضع نفسك في مكاني! قلت في سري: معاذ الله! ما هذا الحب؟ وكأنه قد سمعني فسأل: لماذا لا يعجبك هذا الحب؟ أجبت: لأنه غير متبادل، بل ينطلق في اتجاه واحد .. بلا عودة! صاح: وحبنا لله، أهو متبادل؟ قلت: نعم! كما تكرر ذلك في التوراة والانجيل والقرآن، أم على قلوب أقفالها؟ أجابني بحدة: إنه ادمان، هل تحب الخمر من يدمنها؟ وهل يحب الحشيش المدمنين؟ قلت: الله أعلم! أما في مذهبي فتبادل الحب مع اخواتنا من البشر شرط أساسي لحدوث الغرام، إنه العدل، أيها الحاخام، وإلا فإنه يكون الضنى والعذاب والجنون، وحملق في وجهي ببلاهة وقال: ربما! ولكنني لا أستطيع اكثر من هذا. ثم ودعني وانصرف.

وعدت إلى بيتي وأنا لا أفكر الا في كلمة كان يكررها: إدمان .. إدمان .. إدمان ثم تناولت مجلة «الرقيب الجديد» (نوفل أوبسرفاتور) الفرنسية بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٩٤م فوقعت على خبر

ردني إلى صاحبي اليهودي. يقول هذا الخبر «إن فريقاً من الأطباء والصيادلة والكيميائيين، الفرنسيين والايطاليين، قد اكتشفوا في المخ البشري مادة لم تكن معروفة من قبل تبيّن بتحليلها انها مخدّر قوي فعّال، يشبه في تركيبه الملاصة المركزة في القنّب الهندي (الحشيش) وأطلق عليها مكتشفوها اسماً علمياً هو (أَنَنْداميد) صنعوه من لفظة هندية في السنسكريتية القديمة هي «أَنَنْدا»، ومعناها: الانشراح، أو الانبساط أو النشوة وتتركز أبحاثهم الآن على تحديد نسبة هذه المادة في المخ، واختلاف هذه النسبة من رأس إلى آخر، وتفاوت نسبتها في الرأس الواحد بتفاوت المؤثرات الخارجية، وأثرها ـ زيادة ونقصاناً ـ في سلوك الانسان والأجهزة التي تفرزها في رؤوس الناس، وما يتصل بذلك من الحقائق والدقائق.

وقد أسبق الحوادث فاتصور دور (الأنندامَيد) في النقد الأدبي والفني، فقد كنا نسمع من قديم الزمان بشعراء ـ من العشاق على الخصوص ـ كان في شعرهم وفي سلوكهم من غرابة الأطوار ما حمل النقاد على أن الحقوهم بالمجانين، وربما كان الزمر كله زيادة وقتية في افراز الأنندامَيد في رؤوسهم في بعض (حالات التجلي)، وسمعنا من يتهم بعض الشعراء والأدباء والفنانين بمعاقرة الخمر أو تعاطي المخدرات لهز القريحة نحو الابداع والاغراب، وكثر ذكر الكحول بأنواعه والمخدرات بأسمائها من الأفيون والحشيش والكواديين والمورفين والكوكايين والهورايين والماريجوانا والأكتدرون والداتورة وغيرها منسوبة إلى بعض

المبـدعين المشـهورين مما شـجع الخـاملين على الاقـدام على تلك العادات المدمرمة دون ان يخرجوا من دهاليز غباوتهم إلى ما كانوا ينشدونه من التفوق والفوز بالاعجاب.

وعندما تصل هذه الدراسة إلى تفـاصيلها المرجوّة، فقد يـتيسر للناقد البارع أن يميز بين الانتاج الـذي بعثه الغني بمادة (الأنندامبد) الطبـيعي، وبعض الانفـعالات الزائفـة التي اكرهت على العـمل بتأثير السُكر أو تعاطي المخدرات فالشاعر الذي يقول:

لو برجلي ما برأسي　　　لـم أبـتْ إلا بنجـد

خفة ليست لغيري!　　　لا أراني الله فقدي

قال هذا وهو في ايران، فأحس بخفـة تستطيع أن تطير به إلى نجد، هل كان تحت تأثير بعض الأشـربة أو المركبّات الأخرى، أو في حـالة حنين جارف إلى حـبيـبة له في نجـد، تذكرها فـارتفع منسـوب الانندامبـد في مـخه، فـوجد نفـسـه في حالة النشـوة والانبسـاط والنشاط التي يتحـدث عنها؟ وعندما اعتـرف الأعشى بالسكر وقال:

وقدْ غدوتُ إلى الحانوت يتبعني　　شاو مشلَلُ شلولٌ شُلْشُلُ شَولُ

أكانت هذه القعقعة الصوتية من هذيان الخمر أم من تأثير افراز الانندامبد؟

وهذا المحموم الذي أخـذته رعدة الحمى فكتب قصـيدة طويلة مطلعها

ددنْ ددنْ ددنْ ... هَبي　　　أنا علي بن المغربي

عســاكري تَحَفــزي　　　كتــابتي تـــاهبي

أكانت هذه الـقصيـدة العموديـة، المتصلة الحلقات، كـلها من هذيان الحمى، أو دخل في صـياغتهـا الاننداميد فجـاءت ـ حتى الشطر الأول من مطلعها، مـترابطة لا ترتعش من المرض ومازلت أفكر في إدمان الحاخـام العاشق وأقول: لعلها جرعة ضـخمة من الأنندامـيد!

الشيخوخة السعيدة!..

وقفت أمام المرآة وأنا أنشفّ وجهي، وهالني أن أرى رأسي كله متوجا بالشعر الأبيض الناصع، لا تعكر صفاءه شعرة واحدة سوداء، ولما كان ذلك في غرفة بالمستشفى حيث اقضي يوما وليلة للفحص والتحليل والأشعة، فاجأني هاجس لا أحبه، واهرب منه ما استطعت: عفريت من الجن يهمس في اذني: يا ابن خمسة وسبعين عاما.. أما كفاك؟ أما تشعر باقتراب النهاية؟.. فرددت عليه في غضبي: يا ابن خمسة وسبعين عفريتا؟.. مالك ولي.. أنا حر! قال ساخرا: ولماذا أنت هنا؟ هذا مستشفى يا حبيبي، وأنت مريض! صحت مرة أخرى: مرض في عينك أو في قلبك! لقد صرتم - يا أبالسة - مثلنا في قلة الأدب! قال ضاحكا: دعك من هذا، وعد إلى شعرك الأبيض، لقد أحسن ابن بنابة بقوله:

❁ جريدة الرياض ٢٥/٨/١٤١٥هـ - ٢٦/١/١٩٩٥م - العدد ٩٧١٢

تبســـم الشـــيب برأس الفـــتى

يوجب شح الدمع من مـــقلتــه

وكـــيف لا يبكي على نفـــســه

من ضـــحك الشيب على لحـــيتــه

واصطنعت شـيئاً من الاناة والرصانـة، وقلت: ان الناس يصبغون شعورهم ولحاهم إذا شابت باللون الأسود، فلماذا لا يحق لي أن أصبغها باللون الأبيض إذا طال بقاؤها سوداء؟ فرد ساخراً: أطال الله بقاءك أنت! واياك ان تحدثك نفسك بالضحكة على عفريت! ثم لماذا تغضب؟ قلت: من تدخلك في شئوني الخاصة، حتى فيهم ثقل؟ فنفث صيخود لهب من أنفه وقال بكبرياء: وما أدراك ما ثقلاء الجن! لا يشق لهم غبار! قلت: هذا صحيح! قال: سنفرغ لكم أيها الثقلان، صدق الله العظيم. قلت: هل أنت مؤمن؟ أجاب: سمعنا وعصينا.. مثل كثير منكم! قلت: لقد خرجنا عن الموضوع، كنا نتكلم في الشيب. قال: نعم! وأردت أن أعزيك، واذكرك بأن كثيرين ممن هم أصغر منك سنا بكثير قد أتى الصلع على رؤوسهم، فلم يترك بها بيضاء ولا سوداء، أجبت: شكرا، فسألني: هل تحب؟ قلت: وانت مالك؟ قال: لابد انها شمطاء حيزبون.. كذلك قلت: اخرس! فسألني: وهل هي تحبك! أجبت: نعم! قال: وبهذه الشيبة؟ صحت: أما إنك عفريت قليل الذوق.. والانسانية! قال معذرة.. هل رأتك بعينيها؟ قلت: نعم! وأحببتها وأحبتني..

وامتـزجت روحي بروحها وقـلبي بقلبها وفكري بفـكرها وعقلي بعقلها وعواطفي بعواطفها. . هل اقتنعت؟ قال: أبداً. . لكن كان الله في عونك! صرخت في وجهه: اغرب عن وجهي فهذا حب من نوع لا تعـرفه الشـياطين! فـهو حب روحي شـريف نظيف، ملائكي لا شيطاني. . قل أعـوذ برب الفلق، من شر ما خلق. . وسمـعت هذا العفريت المزعج يـلوذ بالفرار، وفي أعقـابه يصرخ اعصـار، بعده هدوء. واسمع اذيال ريح الجنوب/ توشـوش فوق هشيم السـهوب/ بصوت حيّ كلون الغروب/ كـرفق الشفق/ اذا ما غفا فوق صدر الغسق/ يقول: حبيبي! حبيبي/ يصب المنى في ثنايا الوجيب/ وسـحر الهـوى في عيون المهـا/ وآهات وجد من العندليب/ تـرف على سـدرة المنتـهى/ الا انما الحب أمـر عظيم/ يغيب عن المستكين المضيم/ فـهو لب اللباب/ وصواب الصواب. اذا القلب فـي القلب بالحب ذاب/ وصـارا رحـيـقـا. . فنعم الشراب!/ عذوبته تتحدى العذاب/ وقوته تستلين الصعاب.

وانفتح باب غـرفتي، وأقبل الطبـيب تتبعـه الممرضة، فـأمرني بالقـيام وطلب مني أن أمـشي، وأن أقـبل وأدبر، وأن أقف على طرف قدمي، ثـم نشر صورة الأشـعة، بما يزحـمها مـن الدعائم المعدنية، والمسامير، وراح يقيس على ظهري هنا وهناك، ثم راجع نتيـجة التـحليل، وقاس النبـض، وضغط الدم، وضرب بمـطرقة مطاطيـة على المفـاصـل، وشك ابرة على جلدي، في الـظهـر والساقين، ثم قال لي بابتـسامة عريضة: أبشر! فالجـراحة ناجحة والأعصاب سليمة، والصحة غاية في الجودة. قلت: وهذا الألم

يادكتور؟ قال: لم يستكمل الجسم نسج العضلات على الدعائم والمسامير، وهي مسألة وقت فقط، مع رياضة خفيفة، وأقراص مخففة للألم، وتذكرت قول أديب فرنسي: ان كل شيء يمكن تفسيره، ويصعب تبريره! ثم اطلق الطبيب سراحي من المستشفى وهو يقول ضاحكا: ان صحتك العامة صحة شباب! وأرجو ان يكون قلبك كذلك.. وعقلك ايضا! فترجمت له بيتين من الشعر العربي، وانا اضحك مسرورا بنتيجة الفحص الطبي:

قالوا: جننت بنت تهوى، فقلت لهم

العشق أعظم مما بالمجانين

العشق يأخذ عقل المرء اجمعه

وانما يصرع المجنون في الحين

فنظر إلى الممرضة قائلا: ربما كان عشيقك جوزيف غير مجنون، كما تزعمين، وانك انت السبب في ما تتوهمين انه جنون: وتورّد وجه الفتاة. وأشرقت عليه ابتسامة وتمتمت: وانا ايضا.. أحب جوزيف! وودعتهما وخرجت من دفء المستشفى الى زمهرير الشارع قاصداً منزلي، بعد أن اشتريت بعض الصحف.

وعلى الصفحات الأولى من هذه الجرائد طالعني خبر هام «في الموضوع» يحمل عناوين عريضة خلاصتها: الشيخوخة السعيدة! باقة أمل للكبار!. هزيمة الشيخوخة أمام العلم! العثور على

الشباب الدائم! وتذكرت قصة الشيوخ الثلاثة الذين لا يريدون الاقرار بأثر الزمن فيهم، ثم لما وجدوا أنفسهم منفردين جاءت ساعة الاعتراف، فقال الأول: انا لا أتذكر سني الكبير الا عند صعود الدرج، بما أشعر به من خفقان.. انه القلب! وقال الثاني: وأنا لا أفكر في ذلك الا عندما أشعر بالألم في الأيام الباردة الرطبة.. انها المفاصل! وقال الأخير: كنت أظن انني نسيت سني تماما، الى ان استيقظت زوجتي من نومها وأنا أقبلها، فصاحت: ماذا أصابك! هذه رابع مرة في هذه الليلة توقظني بالعناق والتقبيل! فعلمت انها الذاكرة!. ثم انتقلت الى الجرائد فقرأت تفاصيل الخبر وخلاصته ان طبيبا فرنسيا هو البروفيسور اتيين - اميل بوليو - البالغ من العمر ٦٨ سنة قد توصل الى تركيب دواء يقضي على متاعب الشيخوخة. والرجل ليس بالنكرة في تخصصه. فهو مدير أبحاث في أشهر مختبرات البحوث الطبية الرسمية، وعضو بالكلية الفرنسية للدراسات العليا، وحائز لمجموعة من الجوائز العالمية في الطب والكيمياء، ومخترع - منذ سنوات عدة - لدواء مانع للحمل، ما تزال فرنسا تتردد في التصريح باستعماله (لأنه قد يسبب الاجهاض ايضا) وهو شائع الآن في أمريكا. وفكر هذا العالم البحاثة في الشيخوخة ومتاعبها واختصرها في أسس ثلاثة: المخ والعظام والمفاصل. فالمخ يصاب بالضعف مع الزمن، فيهبط نشاطه في الأداء، ولأن الأعصاب تتلقى الأوامر منه تلقائيا، فانها بدورها تتقاعس أو تخطىء مما يساعد على زيادة الاصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية وما

يتبعهـا من أجهزة هضمية وبولية وتناسليـة، وحتى الذاكرة تصاب بالضعف والتـخليط. . واما العظام فانها تجف مع الزمـن، وتفقد مرونتـها وحيويتـها، وتصبح هشة سـريعة العطب سهلة التـفتت والكسـر. واما المفـاصل بما تسـببـه من الرومـاتيزم وآلام الظهـر (أعاذكم الله منهـا!) وأوجاع الكتفين والقـطن واليدين والرجلين، فانها تقع عندمـا تصاب الأربطة المتحكمة فيهـا بالتصلب أو التوتر أو الاسترخاء. فأنت ـ أدام الله عافـيتك! ـ بخير ما دامت الآلة ـ بكل أجهزتهـا ـ سليمة، ومادام توزيع الوقـود والكهرباء والشحم والزيت والماء وما بقي في علم الخالق سبحانه وتعالى، يتم بدقة، ويتوازن فـيه التسـخين والتبريد والحـركة والسكون، بلا عطل ولا خرفشة، ولا خرمشة، أما في غير ذلك فانك ـ وقاك الله! ـ على أبواب ما نسميه بالشيـخوخة، التي تأتي مبكرة أو تتأخر الى أرذل العمر، والتـي حار فيها الطبـيب واللبيب، وضاق بها الـفيلسوف والأديب. قـال الراوي: ان الاديب الفرنسـي الضاحك (الفـونس اليه) كانت له مـشكلة أمام القضاء، فسأله القـاضي: كم عمرك؟ فأجاب: لا أدري ياسيدي! فان عمري يتـغير في كل لحظة متقدما نحو الشيخوخة!.

وكان الناس ـ ومازالوا ـ يعتقدون ان البشرية في عهودها القديمة كانت تعيش آلاف السنين، ثم نقصت فـرصها في الحياة مع زيادة عدد سكان الأرض، وقد أثبتت الحـفائر ان أمثالنا من بني آدم في أقدم العصور كانوا يعيشون مثلنا. بل ان جثث الفراعنة لم تكن لا أطول من أجـسامنا ولا أعـرض ولا أطول حظا من الحيـاة، واذا

تركنا من مات بالسيف أو بالطاعون أو بالنار أو بالماء أو بالسم. .
اتضح لنا ان الحياة متقاربة في مدتها ـ الا بمعجزة من الله ـ وان هناك (ميزانية) بين الحياة والموت لا تكاد تختلف:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تنوعت الأسباب والموت واحد

واليوم يتوصل البروفيسور اتيين ـ اميل بوليو الى دواء، لا يدعى انه يطيل العمر، ولكنه يؤكد انه يوفر الوصول الى (المحطة الأخيرة) بدون عذاب، وبدون حاجة الى معاملة خاصة من الناس، يجد فيها الشيخ الفاني ـ مهما كانت رقيقة ـ نوعا من (التفرقة الفئوية) اذ يجد نفسه مصنفا في فئة أخرى لا تصلح لشيء إلا لاستقبال عزرائيل مع أن المعمرين ما يزالون كثيرين في العالم، ورحم الله رجلاً عرفته بالاسكندرية وقد قارب المائة من عمره، وكان شاعراً بالعربية العامية، وشيخا أزهريا، ومؤلفا للأغاني التي كانت مشهورة في عصره، وبعضها يكاد يكون من نواقض الوضوء! وكنا نمزح معه ونجعل مزاحنا على كبر سنه، وسألناه فأجاب: هذا سر من أسرار الدولة، لو أفشيته لظهر أن الدولة لم تكن قد توصلت الى اختراع شهادة الميلاد! فأضاف أحدنا: الشيخ يونس القاضي ولد قبل اختراع (البني آدم) أما اخترع هذا الدواء فان الصيادلة والأطباء يخافونه أولاً لأن المسنين لن يحتاجوا إلى أدوية أخرى ولأن الدواء نفسه سيكون رخيص التكاليف جداً.

عصر الأعاصير

الإعصار ـ لمن لم يشاهدوه ـ هو زوبعة هوائية عنيفة قد تتجاوز سرعة الريح فيها مائة كيلومتر في الساعة، ويدور فيها الهواء حول مركز الدائرة، التي يسمونها «عين العاصفة» ويبدو الإعصار ـ لمن يشاهده من بعيد، على شكل الكأس أو القمع، أو خرطوم الفيل يبتلع كل ما يعترض طريقه، فيقتلع الأشجار، ويلتهم سطوح البيوت، بل البيوت نفسها، إذا كانت خفيفة وأحياناً يمتص مياه الغدران والآبار والوديان ثم يتركها تنساب في أماكن أخرى ومنها الإعصار الحاصب، الذي يزدرد الحجارة ثم يلقيها ـ بإذن الله ـ على من حق عليهم غضب الله، وقوة الإعصار قوة غشوم شعواء، مثل الزلازل والبراكين، ضرب بها المثل في شدة الغضب، حتى قال شاعر يهدد خصمه، «ان كنت

❁ جريدة الرياض ٣/ ٩/ ١٤١٥هـ ـ ٢/ ٢/ ١٩٩٥م ـ العدد ٩٧١٩

ريحا، فقد لاقيت اعصاراً»، وأخطر تلك الأعاصير ما يكون في البحار والمحيطات، إذ يمسك بالسفينة الضخمة ويدور بها حتى تتحطم، ويهلك ما فيها من الناس والدواب والبضائع والأمتعة، والملاحون كانوا يسمون اعصار البحر «الدَرْدُور».

والتنبؤ بهذه الظاهرة ـ في البر والبحر ـ مازال رجراجاً هلامياً غير منضبط على الرغم من كثرة المراصد الفلكية في العالم، وتقدم آلات الارصاد الجوية، ووجود الأقمار الصناعية التي تسبح في فلك الأرض، والدقة التي وصلت إليها الجغرافيا الطبيعية والمناخية، والسرعة المذهلة لوسائل الاتصال وتبادل المعلومات ـ مكتوبة ومسموعة ومصورة ـ للكرة الأرضية بأسرها. فالولايات المتحدة ـ بكل وسائلها ـ تواجه هذا النضب من الطبيعة على قدم المساواة بالفلاح الهندي وراعي الغنم الكردي وصياد السمك الموريتاني وقبطان عابرة المحيطات اليوناني، الكل سواء أمام الأعاصير والبراكين والزلازل والفيضانات وتدهور الثلوج وانهيارها من رؤوس الجبال، وحبات البرد الجليدية التي يصل حجمها كثيراً إلى حجم البرتقال، وتأتي بها العواصف الرعدية بغتة ـ وأحياناً في الصيف ـ لترجم بها الأرض ومن عليها حتى غدت «الكوارث الطبيعية» من المفاجآت غير السارة لميزانيات الدول كلها.

وقرأت أخيراً في صحيفة باريسية ان أحد الباحثين في علوم الوراثة والأجنة في اليابان قد توصل أخيراً إلى نتيجة مذهلة، وهي ان عدد سكان العالم منذ أربعمائة ألف سنة، كان قد هبط

هبوطاً حاداً، فأصبح لا يزيد على عشرة آلاف شخص فقط! ويرى ان هذا العدد يمثل «الحد الأدنى» لبقاء النوع الانساني، ودون ذلك كان من الممكن ان ينقرض خليفة الله في الأرض، وربما انقرض الشيطان أيضاً، أو أعلن افلاس مؤسسته، لانعدام الزبائن، وتناقلت موجات الاذاعة هذا الخبر وعلق عليه أحد الصحفيين في جريدة «فرنسا المسائية» وعلى صفحتها الأولى، وقام ببعض العمليات الحسابية على العشرة الآلاف التي ذكرها الباحث الياباني بالنسبة إلى المليارات الأربعة ـ على الأقل ـ من اخواننا فصيلة «الحيوان الناطق» وأيضاً «الضاحك» وأهم من ذلك في زماننا هذا «الماشي على رجلين»، فكانت نتيجة حساباته النسبية المقارنة انه لو بقي عدد الناس كما كان في ذلك العصر السحيق، لكان سكان الصين الشعبية الآن ثلاثة آلاف، وكانت نسخ الكتب الأكثر شهرة أو شيوعاً بين القراء عند طبعها لن تتجاوز أربع نسخ، وكان جيش دولة كبيرة. مثل فرنسا ـ لن يتجاوز خمسة عشر، من القائد العام للقوات المسلحة إلى الجندي البسيط وبينما أنا جالس وحدي في بيتي بفرنسا انظر إلى زحام الشارع، إذ سمعت جرس الهاتف، فقمت مسرعاً، وإذا بصديقنا الشيخ عبدالسلام يحييني من القاهرة، ويسألني متى يكون لقاؤنا. قلت قريباً إن شاء الله، فالفحص الطبي الدقيق هنا لم يجد ضرورة لجراحة أخرى في فقرات ظهري، ولم يجد إلا بعض مراكز للألم تزول ـ إن شاء الله ـ بالصبر إلى أن تتكون العضلات، مع بعض العلاج الطبيعي الخفيف، وما ينبغي من

المسكنات عندما تشتد الآلام. وقال الشيخ: سأكون في رمضان القادم في مكة المكرمة، فحاول ان تعود من فرنسا في تلك الأيام المباركة، قلت بالتأكيد، وسيحملني إليك شوق لا يعلم حرارته إلا الله! فقال الشيخ ضاحكاً: اما الهتك عنا باريس بما فيها من الأقمار الصناعية؟ أجبت: لو حضرت هنا يامولانا، لوجدت كل «الأقمار الصناعية» في خدمتك! فصاح: اني أخاف الله رب العالمين! وأنت؟ قلت: أنا مازلت أمشى منحني الظهر، متوكأ على عصا، ماشياً الخيزلى، كما يقول المتنبي، أو الهوينى، كما يقول الأعشى. قال الشيخ: ومع ذلك فإن ظهور شعرك هذا الأبيض الناصع كفيل بأن تنخسف أمامه جميع الأقمار. لكن قل لي، ماذا تعمل الآن: قلت اكتب الكشكول، ثم ذكرت له الموضوع. ففكر قليلاً وقال: وهذا الباحث الياباني، ألم يعلل هذا النقص الفجائي في عدد الناس؟ أجبت: لقد حاول تعليله بالوراثة والانتقاء الطبيعي، وما إلى ذلك، قال الشيخ عبدالسلام: اسمع يا أخانا! هؤلاء الكفرة أصبحت عللهم ضعيفة مثل العلل النحوية عندنا، ولو كان هذا الياباني أمامي لقلت له: ربما كان السبب في حدوث هذا منذ أربعمائة ألف سنة ـ طال عمرك ـ انه حدث على اثر طوفان نوح عليه السلام. فقاطعته قائلاً: انه بوذي، وقصة الطوفان كما نعرفها غير مذكورة في كتاب بوذا، فأجاب الشيخ: انه باحث، وميدان بحثه هو عدد سكان العالم كله. فلماذا اغفل قصة سيدنا نوح! أجبت: انه كافر، وقصة نوح في نظره ـ إذا كان يعرفها ـ تعتبر من أساطير الأولين. قال: ومن قال ان الاسطورة

تنشأ في ذاكرة الشعوب من لا شيء؟ ان أية قصة ـ مهما وصفها الجاهلون بها بأنها اسطورة ـ تولد من حادثة كبيرة ثم تنطبع في تراث الناس كما هي أو باختلاف طفيف، والطوفان قصة تكررت في التوراة والتلمود والقرآن، وجاء ما يماثلها في الآداب القديمة كالسومرية والبابلية والفرعونية والايرانية والكنعانية وغيرها، وقرأت هذا في كتاب «الفولكلور في العهد القديم» الذي ألفه البريطاني جيمس هنري فريزر، وراجعت أنت ترجمته العربية. وكان على هذا الياباني ان يلتمس احتمالاته وترجيحاته من كل المصادر الممكنة، هذا فضلاً عن ما أسهب فيه علماء الجيولوجيا والجغرافيا من كلام عن عصر الجليد، وذوبان الجليد، وعصر المطر، وعصور الجفاف والتصحر، بحيث لا يفسر لنا ظاهرة بدت له باحتمال واحد هو تكافؤ «المورثات» أو اختلافها وتنافرها، ثم قهقه الشيخ ساخراً وقال: لو ان صاحبك الياباني ذهب اليوم إلى «غروزني» في بلاد الشيشان، أو إلى «سراييفو» في البوسنة ووجد ان عدد السكان قد هبط إلى عشر معشار ما كانت عليه حديثاً، فإنني أخشى ان يزعم ان طاعوناً أو مجاعة أو خطبة من واحد من (آيات الله) أو من (صدام حسين) هي التي أهلكتهم وقضت عليهم، وقد يبني على ذلك ان المسلمين هم المستهدفون لهذه الأوبئة الفتاكة والمعدية جداً في نفس الوقت! فإذا ذكرت له «يلتسين» وراء كارثة غروزني أجابك بأن يلتسين غير مذكور في أسباب هلاك أهل هذه المدينة، وإذا قلت له ان الصرب قتلوا أكثر سكان سراييفو أو أجلوهم عن ديارهم، قال من جانبه ان الصرب

شيء والحوادث الوراثية، والاسلام أيضاً، شيء آخر، وبدا لي ان نظرية الشيخ عبدالسلام في نقص عدد البشر في تلك الأزمان الغابرة الضاربة في مجاهل تاريخ الأرض تبدو معقولة جداً.

وانتهت المحادثة وأنا أفكر، ثم اصغيت إلى نشرة الأخبار في التلفزيون، ومن بعدها النشرة الجوية.. ورأيت شارح الأخبار يتحدث عن اعاصير الجأت سفن الصيد الكبيرة إلى اطلاق اشارات الاستغاثة، وان الزلازل والبراكين والزوابع والأعاصير تتوالى على سواحل كاليفورنيا تاركة وراءها الخراب والدمار. وان العواصف الثلجية تجتاح جبال الألب وجبال البرانس، وان فرق الانقاذ هناك تستعين بالزحافات والكلاب القطبية في العثور على من دهمهم الثلج من البشر، لاخراجهم احياء أو أمواتاً.

وفي نشرة اذاعية أخرى اسمع ان رئيس الكنيسة الكاثوليكية في مدينة «افروة» بغرب فرنسا قد صدر أمر بابوي بطرده من اسقفيته. وكانت عندي فكرة عن هذا الرجل بأنه من أوسع رجال الدين ثقافة، ومن أوثقهم ايماناً في دينه، ومن أقلهم تعصباً ضد الآخرين، وأحناهم على الفقراء والمرضى، ومن أبلغهم وأشدهم صراحة في خطبه. ومازال عزله عن كنيسته الكاتدرائية يثير الرأي العام، بالمظاهرات والصحافة والاذاعة، أما الرجل فقد تقبل القرار بصبر وصمت، وقام من فجر اليوم التالي فقصد سجناً من أكبر سجون فرنسا وكان واعظاً فيه قبل وصوله إلى الأسقفية ـ فألقى الموعظة وصلى بالسجناء وكأن شيئاً لم يحدث، على حين كان

الأساقفة الآخرون بين مـدافع عنه ـ وهم الأغلبية ـ وناقد له، لأنه أعلن تأييـده للمسلمين في البـوسنة والهرسـك وبلاد الشيـشان، وقبلها استقبل ياسر عرفات وأشاد بجهاد الشعب الفلسطيني لأجل حريته، بل أخذوا عـليه كثرة التجائه إلى وسـائل الإعلام الحديثة كالصـحافـة والاذاعة والتلفـزيون وكانت اجـابته ان المسيـح عليه السلام لو بعث الآن لاستخدم هذه الوسائل في دعوته. فهذا أيضاً من أعاصير هذا الزمن.

بوليس بوريس!..

كنت أنظر إلى نشرة الأخبار في التلفزيون عندما سمعت جرس الهاتف، فقمت بأسرع ما أستطيع وحركتي ماتزال بطيئة بعد الجراحتين اللتين اجريتا في فقرات ظهري، وطالعني في الطرف الآخر من السلك صديقنا الشيخ عبدالسلام يهنىء بحلول شهر رمضان المبارك، ويحملني التحية إلى قراء الكشكول الذين لا ينسونه، وإذا غاب لهجوا بالسؤال عنه، واضحك احياناً عندما يسألني أحدهم: الشيخ عبدالسلام ... هل تتذكره؟ فأقول مداعباً: لا! فيرد محدثي محتجاً: صديقك يا رجل! ألا تذكره؟ فارد:

الله يعلم أني لست اذكره وكيف يذكره من ليس ينساه

❁ جريدة الرياض ٢٤/٩/١٤١٥هـ - ٢٣/٢/١٩٩٥م - العدد ٩٧٤٠

وردّ عليَّ الشيخ قائلاً: ما دمنا دخلنا في ميدان الشعر، فاسمع يا عم!

أوحشوني، وعز صبري فيهم   ما احتيالي؟ وما يكون فعالي

قلت مازحاً: هذا البيت غنته احدى المغنيات البغداديات الماجنات لرجل غريب حصرته الحاجة إلى الحمام وهو ضيف في قصر أحد وجهاء المدينة، وحوله باقة من حسان المغنيات، وقد امرهن رب الدار أن يعبثن بهذا الاعرابي الخشن، فراح يسألهن عن مكان هذا الركن الركين من الدار، وهن يتظاهرن بعدم معرفة المقصود، سألهن أولاً عن المرحاض، ثم عن المخرج، ثم عن الخلاء، وفي كل مرة تغنيه احداهن بيتاً في الغرام والحب لا علاقة له بمشكلته، إلا التشابه اللغوي، إلى أن قال: الحش، وهو من أسماء المذكور أعلاه .. فوجدت احداهن كلمة حش في أول البيت: أوحشتموني، وكان المسكين قد ارهقه الأمر فقال بصوت مختنق: الكنيف، وهو ايضاً من أسماء هذا الموضع الحميم الحريز، واستمر البنات في عبثهن، وغنت له احداهن:

تكنفني الهوى طفلاً   فشيبني، وما اكتهلا

فما كان منه إلا أن قام بتنفيذ ما لا يقدر على حبسه، وهو يغني لهن غيظاً وانتقاماً:

تكنفني الملاح واضجروني   فكدت أموت من عبث القيان

فلما قل عن ذاك اصطباري   قذفت به على وجه الغواني

قال الشيخ ضاحكاً: لا بد انك وجدت هذه الحكاية في التلمود اليهودي، . قلت: ولماذا؟ أجاب: لأن فيهـا (رائحة) منهم، وشيئاً من (ذوقهم). قلت: ربما كان عنـدهم ما هو أفظع من ذلك، اما هذه النادرة فـمن عندنا نحن، ولو رجعنا إلى شـعر الهـجاء، لا سيما في العـصور المتأخرة نسبياً ـ لوجـدناها زاخرة بهذا الفيض، وجدنا شعراء مثل أبي دلامـة وبشار وابن سكرة وابن حجاج وابن واسانة وأبي الرقـعمق وابن لنكل وأبي العبر وغـيرهم قد فـتحوا لقرائـحهم كل (مجـاري) الشعـر، حتى إذا جـاءت قصـيدة من قصـائدهم خالية من هذه المغلظـات، اظهروا الندم وشكوا في أن يكون شيطانهم قـد أدركه الضعف فتـاب وأناب، ولكن اسمع يا مولانا بيتين من الشعر القديم، كـأنهما يصفان حالي أنا، وشوقي إلى لقائك:

وددت من الشـوق المبرح انني اعـار جناحـي طائر فأطيــر

وان امرءاً في بلدة نصف قلبه ونصف بأخرى غيرها لصبور

قال الشيخ: دعنا من الشعر القـديم واخبرني عن فرنسا، فمنذ جئت لزيارتك بالمستشـفى منذ عامين وأنا أفكر، لماذا ونحن نعيش في نفحة الإسلام، نبدو ـ على العموم ـ أقل منهم تقدماً وازدهاراً واكـثر شظفـاً وفقـراً، قلت: لعلك تذكـر القـول الحكيم المأثور «الدنيا سـجن المؤمن وجنة الكافر» قال: نعـم، ولكن لماذا يتحكم هذا الكافـر في المؤمن؟ في دمه ورزقـه وثروته ومسـتقـبله؟ وإذا كانت الدنيا سجن المؤمن فلماذا اسـتولى هذا الكافر على مفاتيح

السجن؟ أنا رأيي يا أخانا ان سجن المؤمن معناه طاعة الله فيما أمر به ونهى عنه والقناعة برزقه الحلال والاجتهاد في هذا السجن لجعل الحياة فيه ممكنة مادياً وروحياً فنحن مطالبون بعمران هذه الدنيا بدون ان يكون في ذلك خراب الآخرة، فقاطعته ساخراً: ماذا بك يا شيخ؟ أهي خطبة منبرية؟ فصاح: وما لها الخطبة المنبرية، حتى أصبحت مثلاً يضرب للقعقعة الصوتية التي ليس تحتها طائل؟ إنها صوت الاسلام على ألسنة الأئمة في المساجد، قلت حقاً، لكن أين الذكاء والدهاء والسياسة ووضوح الرؤية، والحكمة في وزن الأمور؟ إن اليهود يقتلون المسلمين في فلسطين، واليوم يحتفل العالم كله بمرور خمسين عاماً على تحرير الجيش السوفياتي للبقية الباقية من اليهود في معتقل (اوشفتز) الذي هيأه الألمان في بولندا بعد احتلالها ليكون سجناً ومنفى لمن وصلت إليهم يد النازية الهتلرية من يهود أوروبا.

وصار هذا المكان المقبض الموحش بقعة مقدمة لديهم يحج إليها اليهود والنصارى والعلمانيون والزنادقة من كل أمة ممثلين غالباً برؤساء دولهم وأمرائهم وسفرائهم! وعندما وقف الرئيس البولندي «ليش فاليزا» يخطب، استجمع شجاعته ليقول! هذه البقعة من الوطن البولندي قد أخذها الجيش الهتلري عنوة بعد الهزيمة فكان يلقي فيها اليهود وجماهير أخرى من أعداء الهتلرية مثل الروس والتزيغان (نور وسط اوروبا) والبولنديين الوطنيين وعصاة الأوامر النازية من المسيحيين في اوروبا المحتلة، وكل من

لم يعجب الجيش الألماني من الناس الذين شاء حظهم العاثر أن يوجدوا تحت النعال العسكرية الهتلرية، إما بألوانهم السوداء والسمراء والصفراء، وإما بأديانهم من المسلمين والكاثوليك والهندوس والبوذيين كل هذا كان يساق إلى (اوشلفتز).

وجمع الإعلاميون في اوروبا كلها وامريكا جميع الوثائق التي تم العثور عليها كما جمعوا من عرفوا هذا المعتقل، لأنهم دخلوه مع أهلهم صغاراً، فجاءوا بعد خمسين سنة يصححون تصورات الناس في وصف (اوشفلتز) بأنها ارض بولندية، وان النزلاء الذين حبسهم الألمان فيها، وقتلوهم ايضاً بأبشع انواع القتل، لم يكونوا جميعاً من اليهود، يا للهول! هذا البولندي النصراني الكاثوليكي يجرؤ على خلط (شهداء) اليهود بركام من الرمم الأخرى؟! ولم يتذكر أحد ان صوراً تكاد تكون (طبق الأصل) من (أوشفتز) ما تزال ـ بإعداد كثيرة من منجزات الجيش الصهيوني في فلسطين يلقون فيها بالآلاف المؤلفة من الفلسطينيين، وهم الشاهد على أن النازي الألماني في (اوشفتز) قد «خلق الصهيوني على صورته» حتى خارج المعتقلات حيث تحولت فلسطين كلها إلى معتقل ضخم جداً للفلسطينيين يقتلهم من شاء كما يشاء، حتى السفاح «باروخ جولدشطاين» الذي باغت المسلمين وهم يصلون الفجر في شهر رمضان في الحرم الابراهيمي فافرغ فيهم امتاراً طويلة من أحزمة الذخيرة من مدفعه الرشاش، ثم تولى أحد أفراد الجيش الصهيوني قتله فوراً، وجاء في البلاغ الرسمي انه «مجنون». المهم انه ذهب إلى جهنم وسره معه، لا يسبب صداعاً للمسئولين عن

الصهيونية في العالم كله، وفي فلسطين المحتلة على الخصوص، لم يسأل أحد في العالم: من أين لـه المدفع والذخيرة الغزيرة وهو غيـر جندي ولا شرطي وإذا كـان الذي أعطاه رصاصـة الموت قد انتظر حتـى فرغ هو من حمـام الدم الذي خططه بجنون، وبراءة، ولا مسئولية، فلماذا لم يقبض عليه حتى يتم التحقيق معه؟ أليس هناك مجرمـون آخرون أمدوه بالسلاح والرصـاص وشحنوه حتى كهربوا ضـميره وغسلوا مـخه، ثم رسموا ان يموت قـبل أن يفوه بكلمة واحدة! ان كثيـراً من اليهوديات اللاتي ادركهن المخاض في تلك الفورة، اخترن لتسمية اطفالهن باروخ أو جولد شطاين رغبة في (تخليـد) هذا البطل الصنديد ولـم ينصـحهن «السـجل المدني الاسرائيلي» بغـير ذلك! ثم انت معي في ان هذه الجرائم البـشعة ارتكبتـها الهتلرية ضـد اليهود فـي الغرب، فلماذا تركـهم الغرب يأخذون التعويض الذي يرضيهم من الشرق، ومن المسلمين على الخصوص.

قال الشـيخ عبدالسلام: هذا شيء مـثير للغـثيان لا سيـما إذا اضفناه إلى الاسـلام في البوسنة والهرسـك. قلت بأسى شديد: اسكت يا مـولانا! فـالسيـاسـة العـالمية تذكـرنا بهـذا «الحش» ـ المرحاض الذي كان يبحث عنه الأعرابي المسكين، ولفيف المغنيات الماجنات يغنين له اغنيات حب بعيدة كل البعـد عن (مشكلته) كما جاء في أول حديثنا اليـوم، واخشى ان تضيق بنا المذاهب، فنلقي بقاذوراتنا في وجه العالم الذي يزعم انه متحضر. فقاطعني الشيخ قـائلاً: اعـتـقـد ان (العـمليـة) قـد بدأت ألا ترى أن «تطرف

الأصوليين الاسلاميين» هو مظهر من هذا الألم الممض؟ خذ مثلاً (الشيشان) هذا اقليم اسلامي في عقيدته ودينه واعراقه وعناصره ولغته وتاريخه ناضل القياصرة حتى وصل معهم إلى نوع من المعايشة، ثم دخل فيما كان يسمى «الاتحاد السوفياتي» ثم تفكك هذا الاتحاد وانفصلت عنه اوكرانيا وجورجيا وارمينيا وليتوانيا واستونيا ولاتفيا مع التقارب الكبير في الدين واللغة والعنصر، وبقيت بلاد الشيشان (مستعمرة) لروسيا وبدأ زعيم تلك البلاد «جوهر دواديف» وهو بطل وقائد لواء من المظليين في الجيش الأحمر سابقاً، يطالب موسكو بالاستقلال الذاتي بعد سقوط الشيوعية، فشمخ بوريس يلتسين بأنفه وحكم، بعد أن شرب ما شاء من الفودكا ـ بأن الشيشان جزء لا يتجزأ من الجمهورية الروسية، فقام هذا الشعب ـ المسلم منذ اكثر من الف سنة يحمل سلاحه للذود عن حريته والسلاح موجود في كل بيت عند الشيشان، استعداداً لرد عادية الذئب والدب عن قطعان الماشية وتصور يلتسين ان امر هذا الشعب يسوى في سحابة يوم، وهو الآن يقاتل بالدبابات والمدافع والقنابل العنقودية المحرمة دولياً ويمنع التدخل لأن العملية (داخلية) والقوة المستخدمة ليست إلا بوليس بوريس!



وبضدّها تتميّزُ الأشياءُ...

أكـتب هذه السطور وأنا جـالس في مـسكنـي ببلد هادىء من الريف الفرنسي.. والشتاء هنا شديد القسوة خصوصاً على الغرباء من أمثالي.. فالبرد شديد يحبس الناس في بيوتهم، لا يغادرونها إلا مسرعين إلى أعمالهم، أو راجعين منها، أو دائرين على عجل لقضـاء مطالبهم من المتـاجر، حيث يندر الكـلام، فكل ما فيـها معروض على الرفوف، وثمنه مطبوع عليـه، والحساب يتم اجماله على الحاسب الكهـربائي، والدفع بالبطاقة المغناطيسيـة، ومفرداته تخرج إلى الزبون تلقـائياً مذيلـة بعبارة شكر وهي الوحـيدة التي ليس أمـامها أرقـام.. ويشعـر الأجنبي مثلـي بأن غرامه الـقديم بجمال اللغة الفـرنسية وبلاغتها وذكائها، قـد تقلص وتجمد، مثل ماء المطر على زفت الشوارع عندما يتجمد، والويل لمن يسهو عنه

✿ جريدة الرياض ١٥/ ١٠/ ١٤١٥هـ ـ ١٦/ ٣/ ١٩٩٥م ـ العدد ٩٧٦١

لحظة فينزلق على هذا الجليد. . وأتذرع بالصبر في انتظار ما تبقى أمامي من الفحوص الطبية، وكلها بحمد الله ـ ورغم الآلام الشديدة في ظهري ـ تبشر بأن الحالة الجيدة، وتوصي بالصبر. وأجد شيئاً من الراحة عند واحد من أولئك الأطباء، لأنه متفتح على ثقافات أخرى غير الطب، يمد لي بساطة الحديث في السياسة الأدب والأديان والتاريخ، خصوصاً في الأوقات التي لا يكون عنده غيري من المرضى. . فمنذ أيام فحص القلب، وقاس ضغط الدم وطلب مني أن أمشي طوراً وأهرول تارة بدون ان اتوكأ على عصا، ثم صاح مسرورا: عظيم! أنت ما زلت شاباً، وليس عندك ما يخدش هذا الشباب! فأ جبته ضاحكاً: أنت تعرف: يا دكتور، الشاعر والأديب الايرلندي الكبير «أوسكار وايلد». . قال له طبيبه مثل هذا الكلام الجميل، فعلق عليه قائلاً: الخلاصة أنني أموت سليماً معافى، ليس عندي مرض. . إلا في جيبي! فهز طبيبي رأسه وقال بتأمل عميق: الحياة مليئة بالمتناقضات التي يقف أمامها الطبيب والعالم والفيلسوف حائرين عاجزين! قلت: وما رأيك في الحبوب التي توصل إلى تركيبها أخيراً العالم الفرنسي الدكتور بوليو، ويؤكد انها حاسمة في تأخير الشيخوخة، مع سهولة استعمالها، ورخص ثمنها؟ قال: لا أستطيع أن أوافقه إلا بعد تجربة. . قلت: لقد سبق له أن صنع حبوباً تؤخر الحمل عند النساء حسب الإرادة. . قال ضاحكاً: فهذا طبيب يؤخر مجيء بني آدم إلى الدنيا، ثم يؤخر خروجهم منها بعد عمر طويل. . وكم في الحياة من متناقضات كهذه!

وفي طريق عودتـي إلى المنزل أخذت ما أمكن مـن الصحف، إذا هي والإذاعة والتلفـزيون المساعد الأول على قـضاء الوقت.. فبادرني خـبر عن عاصفـة هوجاء قلبت رافعة حـديدية في موقع للمـباني، فهـوت بكامل ثقلهـا على مدرسـة مجاورة قـتلت من تلاميذها ستة مراهقين، جرحت أضعاف هذا العدد.. ورأيت في التلفزيون وزير المعارف الفرنسي (بايرو) وقـد حضر بطائرة خاصة ومعـه اعضاء مـكتبه وحـاكم الاقليم، والمسؤولون عن الاسـعاف والانقاذ.. ثم وقف دقائق عاجزاً أمـام حطام الرافعة والمدرسة.. وتوجه بعـد ذلك إلى المستشفى لعـيادة التلاميذ الجـرحى، والقاء نظرة على جثث الضحايا البـريئة، وتعزية الأهل عن هذا المصاب الجلل، الذي لا طاقة له بدفعه أنه جاء بقضاء الله، وربما بخطأ أو اهمال من البشـر.. ولما كانت فرنسا وسائر أوروبا الغـربية تغرق في الأمطار الغزيرة والفيضـانات والطوفانات التي تأتي بها الأنهار من أعالي الجبال، أو تقذف بها على السواحل أمواج هائلة تسوقها الرياح من المحيطات والبحار..

فقد رأيت معـالي الوزير نفسه يخوض مستنقـعاً في بلد آخر، ليحمله زورق يعوم في الشارع، ليوصله إلى مدرسة أخرى أغلقها ناظرها لاستحالة الوصول إليها.. فتركت التلفزيون ورحت أقلب الجرائد.

ورأيت احدى صحف المعـارضة تذكر ان جمـيع قادة الأحزاب الفرنـسية يجـوسون الآن خـلال الديار تملقاً لـلناس واستـجداء

لأصواتهم في انتخـاب رئيس جديد للجمهورية قـريباً. . وكانت الصفـحة مليـئة بصور أولئك القـادة والزعمـاء والوزراء والرؤساء السابقين والـلاحقين، ولـم يفت المحرر المعـارض أن يكتب: الآن ظهـروا، وزاروا الناس في بيـوتهم، وبعـد الانتـخـاب الويل لمن يحاول الاقتراب منهم!

ورأيت جرائد أخرى تعـدد الفضائح والسرقات والاخـتلاسات والمظالم التي وقفت من الحكومـة الحالية وتنقل وعود سـادتها بأن كل هذا سيتغير عندمـا يتولى الرئاسة فلان من الناس، إذ سيكون عهده عهد الأيدي النظيفة، والضمائر الشفافة، والذمم الناصعة. . وسيحل أزمـة المساكن، وأزمة البطالة، وأزمات العـمال والموظفين والفلاحين، وسيعيد فرنسا إلى سابق مجدها العتيد في أيام نابليون أو لويس الرابع عشر أو الجنرال دي غـول! وكل يغني بليلاه، ثم قرأت خبر حادث عن مشـاجرة وقعت بين تلميذين بمدرسة ثانوية وانتـهت بأن أحدهمـا ـ واسمـه فريد، من أصل مـغربي ـ قـتل الآخر، دافـيد الفـرنسي الأصيل، واستـمر الصـحفي في الهـمز واللمز على العرب والإسلام والمسـلمين. . وعدت إلى مقال بقلم أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية حول قرار الفاتيكان بابعاد الأسقف (جايو) رئيس إحدى الكاتدرائيات الكبرى في فرنسا عن منصبه. . وزعم هذا الكاتب الأكـاديمي ان هذا الأسـقف قـد خالف أوامـر الفاتيكان، في حين انه كانت عليه الطاعة والامتثال بدون مناقشة، لأن البابا هـو ظل الله على الأرض، وهو معـصوم لأنه خليـفة

المسيح.. ثم علّق على آخر صلاة أم فيها الأ«سقف المصلين في الكاتدرائية، وكا عددهم بعشرات الآلاف، فتبرع الأديب الكبير بأن وصفهم بأنهم من الملاحدة والزنادقة! وهنا توقفت اسأل نفسي: أليس الفاتيكان بجبروته وبعده عن التسامح والتيسير على العباد هو الذي صنع منهم الملاحدة والزنادقة ـ إن صح ما يدعيه كاتب المقال؟ وتذكرت ان الحجاج بن يوسف الثقافي عندما ولاه الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان على العراق، هدد الناس في خطبته الأولى بقوله «أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أرى الدماء بين العمائم واللحى! ـ ثم مشى بعدها بموكبه في الطريق فسمع امرأة فقيرة ترتل القرآن، وقالت: إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس (يخرجون من) دين الله أفواجا! فصاح الحجاج: ويحك يا امرأة! إنما هي (يدخلون) فردت على الفور: لقد دخلوا وأنت الآن تخرجهم! ولم يأمر الحجاج بقتلها، ولعله أحس بأن غضب الشعب قد يجد في قتل امرأة فقيرة ضعيفة الشرارة التي تشعل لهيب الفتنة فآثر الانصراف صامتا.. ورجل السياسة في كل أمة عرضة للمدح والقدح لأن رضا الناس جميعاً غاية لا تدرك.. وقد وجد الحجاج على الرغم من كل طغيانه من يجب به، ويرى في سياسته الحزم والحكمة..

تقول ليلى الأخيلية:

إذا نزل الحجاجح أرضا مريضة　　تتبع أقصى دائها فشفاها

وطغيان رجال الدين ـ بعكس رجال السياسة ـ أسوأ عاقبة على

الدين نفسه من الزنادقة وا لملاحدة..

ومرة أخرى يظهر اجتمـاع المتناقضات الخطيرة في بؤرة واحدة، إذ عدت من جـديد إلى الشيـشان ووقـائعهم مع بوريس يلـتسين رئيس روسيا، وكنت قد سمعت من أستاذين محاضرين في مركز الملك فيصل بالرياض، أحدهما تركي والآخـر شيشاني حديثاً عن شعــب الشيــشان المسلم الصــابر، وعن جذور الخـلاف بينه وبين الإدارة الروسية ومـا لا يمكن تسويته إلا بالاعتراف باسـتقلال هذا الشعب وسيادته على مقدراته.. وكانت طلائع الجيش الروسي قد بدأت تضغط على بلاد الشـيشان.. وصاح واحـد من المحاضرين الجليلين بأن يلتسين ـ بجهله وغبائه وغروره ـ قد وضع اصبعه في جحر الأفعى، وان سمها سيظل يجري في عروقه إلى أن يموت!

وكـان موعـد نشـرة الأخبـار قد أزف، وبدأ الخـبـر بسقـوط (غروزني) العاصمة بعد شهر كامل من محاصرة الروس لها أرضاً وجواً، ثم اتصل مقدم الأخبـار بمندوب القناة في غروزني، وقبل أن يجيب الرجل بدا لنا قصر الحكم في المدينة وقد قوضته القنابل من الداخل، وبقي هيكله الخـارجي ماثلاً للعيـان، ثم بدأ وميض المدفعية وهديرها من التـلال المحيطة بالمدينة.. فسأل المندوب اثنين من كبار السن، أهما من الروس؟ فرد أحدهما: اعوذ بالله! نحن من الشيشـان! قال: وهل سقطت المدينة، فقـال الثاني مبتـسماً: أنت ترى المساومـة بين الطرفين.. فقال من جديد: ومـتى تنتهي الحرب؟ فأجـاب أحدهما: عندما يتـعب الروس.. أما نحن فلا

نعرف التـعب، ولا الخوف! وتابع مندوب التلفـزيون طريقه، في هذه الأنقـاض والأطلال، حتى وصل إلـى دبابة روسيـة حولهـا مجـموعـة من جنود يلتسين فـوقف يتحدث إليـهم، فقـال أحد الجنود: إن سيـاستنا في مـوسكو «قذرة»! ليس فـيهـا تجديد ولا ابتكار، جـربوها في أفـغانسـتـان وعادوا منهـا بالهـزيمة والفقـر والفضـيحة والعار. . والشـيشان أفظع من الأفغـان. . اسمع! . . هذا مدفع كلاشنكوف يطلقه علينا أطفـال، وهم يحبونه ويجيدون استعماله. . لقد قتلوا منا الكثـير. . فقال له محدثه: وأنت. . أما تخاف من هذا النقد اللاذع لحكومـتك؟ قال: ماذا يمكن أن يفعلوه مـعي؟ نحن هنا في الموت في كل لحظـة، وكنت أنا هناك. . في أفغـانستـان. . ليـست هذه بلادنا ولا شعـوبنا، ونحن مكروهون ممقوتون، حـتى الأطفال يطلقون عليـنا الرصاص! وتمشى المندوب في هذا المعـسكر المرتجل بين دبابات محـترقـة وطائرات عمـودية محطمة ومدافع ثقيلة تدلى أنفـها إلى الأرض، ووصل إلى خيمة قائد عمليات روسي فسأله بعد التحية لماذا أنتم هنا؟ فأجاب: بأمر موسـكو! قال المندوب: وهل فكرتم في أمـر موسكو؟ فـرد على الفور: لو فـكرنا لحظة واحدة لتوقـفنا عن العمل! هكـذا قال لنا يلتسين ـ ثـم ضحك ـ استـعمل سلاحك ولا تسـتعـمل مخك! واحضـر معك دوداييف حـياً أو مـيتاً. . وأنا لا أدري أيـن يوجد الجنرال جوهر دوداييف. . وأحيـاناً تروج الاشاعة بأنه في الوادي الفلانـي، فنسرع إلى هناك ولا نجـد شيـئاً، ونعود بعـد أن يكون سقط منا عشرون أو ثلاثون قتلى وجرحى.

وقـرأت بعد ذلك في صـحيـفة «فـرنسـا المسائيـة» يوم ٣١ يناير ١٩٩٥م ان الزعـيم المعارض الروسي «سـيرجي كـوفاليف» جـاء يعاتب الاتحـاد الأوروبي على (رخاوته) في الضغـط على يلتسين لوقف القتـال في الشيـشان، وقال ان الجـيش الروسي يصلب من يقع في يده أسيراً من الشيشان أو يجـب اعضاءه التناسلية ويعتدي على عـرض الفتـيـات في المدارس! وأيده في ذلك رئيس الوزراء الفرنسي ادوارد بالادور.

الحب.. وداود.. ومشايخ التلمود!!

أخيرا، عـدت من باريس، بعد شهرين طويلـين من الفحوص والمراجعات الطبية، أكد لي بعدهـما مدير المستشفى الذي أجريت لي فيه جراحتان سابقـتان، أنني لست بحاجة الى جراحة ثالثة في فقـرات ظهري. وكان برد أوروبا قد زاد من آلامي، فـرضيت من الغنيـمة بالإيـاب. وطبعـا كان صـديقنا الشـيخ عـبدالسـلام في انتظاري. فأخبـرني أن (الكشكول) كان يظهر أسبوعـا، ويختفي أسبوعين أو أكثر. فأجبـته بأنني حرصت على موعدي الاسبوعي مع قرائنا الكرام، وبانتظام، ولكن البـريد - عفا الله عنه - بين برد الشتاء، وفيضاناته وطوفاناته، وبين قلق المجتمع هناك، إضطراباته واضراباته، وراء هذا التـأخير. فـهز الشـيخ رأسه بابتسـامة ذات معنى، ثم تمـتم: استغـفر الله! لقد ظـننت ان واحدة من ذوات

❁ جريدة الرياض ٢٩/ ١٠/ ١٤١٥هـ - ٣٠/ ٣/ ١٩٩٥م - العدد ٩٧٧٥

الرمش الكحيل، والخصر النحيل، قد اصطادتك هناك، فبقيت متعللا بآلام ظهرك. فرددت عليه بنفس خبثه وقلت: وما يدريك يا مولانا؟ فربما كان نداء قلبي هو الذي استعجلني للعودة فضرب كفا بكف وقال: سبحان الله! وأي جاذبية أعادتك الينا؟ أجبت على الفور: جاذبيتك يا مولانا! فصاح: كلام فارغ وتناولت معه ومع ابنه بيومي وصديقه الشيخ عبدالقوي عشاء كان قد أعده في منزله، ثم قال: أنت متعب من السفر، فعد الى بيتك، ونم هنيئا، وقريبا نلتقي إن شاء الله.

وبعد يومين جاءني وحده، وجلسنا نتحدث، وفاجأني بالسؤال عن الاباحية الغربية. فقلت: مع أزمات البطالة، وارتفاع الضرائب، وكساد الأسواق، ندر المتيمون والعشاق، والمتفلتون والفساق، وكثر الجياع، فصار همّ الناس في الطعام والشراب، والبحث عن عمل، وعن مسكن ـ مهما كان حقيرا ـ وكما قال الشاعر القديم:

وكان الحب في القلب فصار الحب في المعدة!.

ومع ذلك فلايزال الشباب يلتقي وبالحب وحده يتولون عمران العالم، بالمعاشرة من غير زواج. حتى اضطر بعض المشرعين في الغرب الى تعديل القوانين الخاصة بالزنا، وجعلوا العقوبة للمذنب المحصن والمخادع الذي يغرر بفتاة قاصر، والمعتدي الذي يغتصب امرأة بالقوة، اما الآخرون الذين يتعايشون باتفاق شخصي ـ غير مكتوب وبلا عقود أو شهود ـ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون،

ويكون ما يلدون من أطفال منسوبين اليهم قانونا! وقد أصبح الأمر عاديا هناك، حتى ان فرنسا عدت ثلاثين في المائة من مواليد العام الماضي رزق بهم أزواج بلا زواج، قال الشيخ: لكن هذا النمط من المعيشة أفدح من الزواج الشرعي! أجبت الأسباب ترجع الى صعوبة الطلاق، فهو في العالم المسيحي غير جائز. وعندما اجازته بعض الأمم جعلت له ضوابط صعبة جدا، فهو لا يكون الا بقضية طويلة ومكلفة ماديا وعاطفيا. لأن القاضي يريد ان يتأكد في أعماق ضميره ان حياة الزوجين موضوع النزاع باتت مستحيلة، ثم عليه بعد ذلك ان يحدد بدقة مسئولية كلا الطرفين حتى يحكم بما ينبغي للمظلوم من تعويضات، وهي تعويضات واجبة لهذا المظلوم مدى الحياة. فأصبح الناس في الغرب يعتقدون ان الطلاق ترف يناسب الأغنياء دون الفقراء. قال الشيخ: يعني ان الحب كاد ان يختفي هناك؟ أجبت: نعم إلا في بعض حالات المعايشة بلا زواج وبين أوساط الفلاحين في الأرياف، حيث تستمر التقاليد القديمة نافذة الكلمة الى الآن، ثم قلت: وعلى ذكر الحب والزواج كنت أقرأ قوله تعالى في سورة (ص):

﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة﴾.. الى آخر الآيات.. وكنت أعرف أن القصة تتعلق بزواج داود ـ عليه السلام ـ بامرأة بارعة الجمال من بنات اسرائيل هي «بتشبع» ووجدت ذكر هذه القصة في كتاب التعريف والاعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن الكريم، من تأليف «الامام ابي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهلي الاندلسي» من أعلام القرن

السادس الهجري. ثم عدت الى الإمام الواحدي النيسابوري - المتوفي عام ٤٦٨هـ - في كتابه (أسباب النزول) فقال ان قريشا احتكمت الى أبي طالب، عم الرسول ﷺ، وهو مريض فلم يزجرهم عن كفرهم وعنادهم، ولم يشر الى القصة.

ووردت هذه القصة باخراج مسرحي في كتاب اليهود (سفر صمويل الثاني - الفصل العاشر والحادي عشر) وخلاصة الأمر أن اليهود كانوا في حرب مع الاردنيين. ثم مات ملك العمونيين (نسبة كنعانية الى عمان) فأرسل داود وفدا من اليهود للعزاء فأشاع العمونيون ان هؤلاء المعزين هم في الحقيقة جواسيس، فقضوا عليهم وحلقوا لكل واحد منهم نصف لحيته، وقصوا نصف ثوبه الى ان ظهرت عجيزته. فعبأ داود حملة تأديبية بقيادة «يوآب» أحد امراء الجيش عند داود، ووضع معه فارسا شجاعا آخر هو «أوريا» وبقي داود في أورشليم (القدس). و«كان عند المساء ان داود قام من سريره، وتمشى على سطح دار الملك، فرأى من السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل له: هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحيّ فأرسل داود رسلا وأخذها، فدخلت عليه ودخل بها! وتطهرت من نجاستها ورجعت الى بيتها». ولكنها تبينت انها حامل من داود، وأعلمته بذلك، فأراد داود - حسب قصة كتابهم - ان يأتي زوجها أوريا فيبيت عندها ولو ليلة واحدة حتى يثبت حمل زوجته منه. فأرسل يستدعيه اليه. ولما حضر لم يبت في بيته بل في دار داود!

وحاول داود ان يسوقه الى الإقامة في بيته مع زوجته، والرجل يرفض هذه المتعة وجبهة القتال مشتعلة، وهو لم يجيء شوقا الى بتشبع بل تلبية لاستدعاء داود. ولما يئس داود منه أمره بالعودة الى الحرب، وسلمه رسالة سرية الى يوآب قائد جيشه جاء فيها: «وجهوا أوريا الى حيث يكون القتال شديدا وانسحبوا من خلفه حتى يضرب ويموت!» ولو كان العمانيون يعلمون الغيب لحافظوا على أوريا كسواد عيونهم، لأن داود انما أراد بموته ان يتجنب فضيحة ضخمة جدا. ولكن أوريا قتل في المعركة، وراح غير مأسوف عليه لا من داود، ولا حتى من بتشبع! وداود في العقيدة اليهودية ليس نبيا بل هو ملك، ورجل حرب محنك وسياسي داهية، وكان نبي بني اسرائيل المعاصر له هو «ناتان» فأرسل الرب ناتان الى داود، فأتاه وقال له: كان هناك رجلان في احدى القرى احدهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدا. اما الفقير فلم تكن له الا نعجة واحدة صغيرة.. الخ واستمرت المناقشة بين ناتان وداود حتى اضطر داود الى ان يحكم بأن هذا الغني الطماع يستحق القتل فانفجر ناتان في وجهه صائحا: انك أنت ذلك الغني.. ثم راح يعظه ويعنفه ويتهمه بأنه «قتل أوريا» بسيف بني عمون. وأنذره بشر الجزاء من الله، وبداية ذلك ان ولده الذي في بطن بتشبع سيموت، وان الشقاق سيدب في أهل بيته جميعا، وكان ناتان يكرر عليه المطالبة بالتوبة والاستغفار. ثم تزوج داود ببتشبع وولد لهما هذا الولد، فأحبه داود جدا، وبعد ان شب عن الطوق أصابه مرض مات فيه فحزن داود جدا،

وأمعن في التوبة والدعاء والاستغفار الى ان ولدت له بتشبع سليمان عليه السلام. ولكن نبوءة ناتان تحققت: اذ وقع أحد ابناء داود في غرام دنس عشق فيه أخته لأبيه، وأصبحت قصة غرام «تامار وأمنون» وكيف حملت تتامار سفاحا من أخيها فضيحة أخرى.

كان الشيخ عبدالسلام يصغي بكل حواسه، ولا يقاطعني، وأخيرا ضرب كفا بكف وقال: هذه تجارة خاسرة، وأقدم كتاب الخرافات عندنا ما كانوا يتركون أوريا المسكين، الفارس المغوار، يقتل بهذه السهولة وبلا جزاء. هذا منطق المافيا! قلت: طول بالك يا مولانا! ان نبوءات ناتان ظلت تتوالى، فقام «ابشالوم بن داود» وشقيق تاما بمطاردة أمنون لقتله، فهب داود في وجه ابشالوم ثم خلفه ابنه سليمان فسالم الجميع من ابناء داود أو من بقي منهم حياً، فأراحه الله من كثير من المشاكل، الا ما ورثه من داود من حب النساء الجميلات وتعرض لمؤامرات وثورات، لكنه لقي ربه وقد شبع من الدنيا، ورحل بسلام وبشيبة صالحة. وعلى أثر وفاته انشطر ملكه نصفين: مملكة يهوذا جنوبا، بعاصمتها اورشليم، ومملكة اسرائيل شمالا وعاصمتها السامرة، وكانت الحرب سجالا بينهما، يكفر كل منهما الآخر الى ان اسقط الأشورى «سنخاريب» مملكة السامرة واحتلها، وجاء بعده الكلداني «بختنصر» فأسقط مملكة الجنوب بعد ذلك بقليل. ومن ذاك الوقت (القرن الخامس قبل المسيح) لم تقم لليهود في فلسطين دولة جديرة بهذا الاسم الا هذه الدولة الصهيونية المعاصرة لنا، والتي

بدأت هي ايضا تتـفسخ، لأنها كـانت تعيش تحت حمـاية القوتين الأعظم (الولايات المتحـدة والاتحاد السـوفياتي)، فلمـا انهار هذا الأخير، لم تبق لدولة اسرائيل في معـمعة الحرب الباردة أية فائدة للمسـاومة على مناطق التـأثر والتأثيـر في العالم العـربي والشرق الأدنى والأوسط..

قال الشيخ: مـازالت حكاية داود عليه السلام مـعلقة، لا تجد لها مستقرا في رأسي! قلت: أعجب من هذا انها كانت قلقة ايضا في رأس الحاخـام اليهودي المتـصوف يوسف بن ابراهام شقـيطيلا المولود في تشتالة بشمال اسبانيا عام ١٢٤٨ ميلادية، ومات حوالي عام ١٣٢٥م وشقيطيلا اسم اسرة يهـودية اندلسية قديمة، والكلمة بالاسبانيـة الدارجة معناها «القصـيرة القامة» سمـيت بهذا باحدى جدات هذه الأسرة واليهود يكتبـونها ايضا بالعبرية (جقطيلة) واذا كنا قد وصـفناه بأنه متصـوف فذلك بمفهوم اليـهود، أي من أهل الباطن المغرقين في التأويلات والشطحات والرمزيات.

وقع لهذا الـرجل كتاب صـغيـر في يدي وانا بباريس اخـيرا، عنوانه: السر في ان بتشبع كانت جديرة بداود منذ ايام بدء الخليقة الستـة!! والكتاب بلغة عبـرية جيدة، ومعـه ترجمة فرنسـية بقلم شارل مـوبيسـيك واعفـيك يا شيـخنا مما عود صـوفة اليـهود ان يحشـدوا آراءهم في «المراتب» و«المقامـات» و«الاشراقـات» حتى يصاب «المريد» بالدوار، فيسكبون ما شـاءوا في جمجمته، بعد ان يكون قد استسلم اليهم، بحيث لا يملك من أمره شيئا. فصاحبنا

هذا يزعم ان البشر في اول خلقـهم كانوا يولدون في حالة ذكورة وانوثة في آن واحد وهو يستعمل لهذا كلمة من اشتقاق يوناني هي (اندروجين) ومعناها خنثى ثم يسوق شاهدا من التوراة معناه حرفيا ان الله تعالى خلق أول البشر (ذكـرا وأنثى) والواو هنا تفيد عطف شيئين ليكونا شيئا واحدا! وان بذور البشر في عالم الذر هي دائما تجمع الجنسين معا، ثم تنشق الـذرة الى نصفين ذكر وانثـى فيظل الذكر يـبحث عن نصـفه الآخر، حـتى يجده ان كـان على حظ عظيم. ويسأل: لماذا تـزوجت بتشبع بأوريا فـيقول: لأنهـا كانت كالفاكهة التي لم تنضج وكـان داود في مقام «الملكوت» فكان عليه ان ينتظر حتى تحلو هذه الفـاكهة الفجـة! ونسأل: لماذا أوريا يأكل الفاكهة الفجة ثم يموت، ويتسـمم الطفل الصغير بهذا الغرام النابع من اجرام؟ أسرار اشراقية لا تسأل عنها؟..

وهذا المتـصوف يلوي ذراع القـصـة في كتـابه الذي يؤمن به، ويبرىء داود من غضب نبيه ناتان بل من انتقام الله!..

يا هلا بالربيع!٠٠

الدخول في فـصل الربيع يمثل عودة إلى الحـياة، حيث تتـفتح البراعم، وتعشب الأرض، وتسـتعيد الأشجار خضـرتها، وتتألق الأزهار تحت قطرات المطر وأشـعـة الشمس، وتـضع العشـار من إناث الحيـوان حملها، وتبـدأ الثمار في الـتخلق على أغصـانها، وتعود الطيـور المهاجرة من زمهـرير الشتاء إلى أوطانهـا، وتخرج العصافير من أكنانها مرحة مغردة، وباختصار تصحو كل خصائص الحياة في دنيا الرحمن عز وجل، فينمو الحرث والنسل في الحيوان والنبات والطير والحشـرات، وتهتز الأرض وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج، ويستظل الكون كله بخيمة سحرية من البهجة والسلام والنشاط والخير والجمال والحب، وما يواكب ذلك من أريج عاطر تحمله النسائم الحانية، ومن شدو البلابل والأطيار بمختلف لغاتها،

✽ جريدة الرياض ٦/ ١١/ ١٤١٥هـ ـ ٦/ ٤/ ١٩٩٥م ـ العدد ٩٧٨٢

ويستجيب لهذه الدعوة الكريمة العشاق والشعراء وأصحاب الغناء والألحان. . إنها أفراح الطبيعة كلها وكأنها ترفع صلاة شكر لخالقها على هذا الكرم الذي لا يكون إلا بتدبيره وأمره.

ومنذ أقدم ما تصل إليه ذاكرة الآثار المطمورة، والأخبار المأثورة، والأسفار المسطورة، والربيع له في عقائد البشر وأديانهم أعياد واحتفالات هو بها جدير، وعندما تتنبه الطبائع، وتستجيب الغرائز لدعوة الحياة، وتنشط الأحياء للتناسل، يبدأ موسم البحث عن شريكة الحياة عند الناس أيضاً، باستثناء أولئك الذين لا يؤمنون بالسلام الذي هو من أسماء الله تعالى، فهؤلاء يقيئون حقدهم من أفواه البنادق والمدافع على البوسنة والهرسك، وأولئك على الشيشان، وبعض الملحدين الجشعين يصبون النار بعضهم على بعض في أفغانستان، والهند، وكمبوتشيا، والصومال، وبوروندي، والسودان، وبيرو. . وما خفي كان أعظم.

فالذي يعبىء الجنود ويسيرهم، وهم في ربيع العمر، ليقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال وليعيشوا في عرض النساء فسادا، وليسعوا في الأرض نهبا وسلبا، إنما يعملون بأخيهم الانسان ما لا يقدم على مثله الحيوان مع أخيه الحيوان. . الذي يقتل المسلمين لأنهم مسلمون، والسيخ لأنهم سيخ، والأكراد لأنهم أكراد، وزنوج التوتسي لأن رواندا وبوروندي لا يطيقون رؤيتهم، والصهيوني يتمنى إبادة العرب، وإحداث الفراغ الشامل حول الدولة التي حبس فيها نفسه نصف قرن من الزمان، كل أولئك

وغيرهم كثير مارقون كافرون لأنهم لا يؤمنون بأن الخالق الكريم بسط الأرض للجميع ولم يجعل له في الأرض خليفة إلا آدم وزوجته وذريته جميعا بلا استثناء، والاستثناء لا يكون إلا في الآخرة، حيث الحساب والثواب والعقاب، وحيث أعدت جهنم للكافرين.

كذلك ضعفت علاقة الزواج بوصفه نظاماً اجتماعياً، بعاطفة الحب بوصفها احساساً شخصياً فردياً، وتدخلت الأديان لتصحيح هذا المسار ـ في حدود الممكن ـ فحرمت الزواج بالخطف، حتى في حالة اتفاق متعمد بين المخطوفة والخاطف، والزواج بالمقامرة أو المبارزة أو القتال، والزواج ضد إرادة العروس أو العريس، أو هما معاً، وزواج الأطفال قبل البلوغ، وزواج الحبلى قبل أن تضع حملها وتستوفي عدة طهرها، وحرم زواج المتعة بين المسلمين من أهل السنة والجماعة، كما حرم زواج المحجور عليه المجنون، وزواج المحكوم عليه بالقصاص قبل انفاذ الحكم فيه، ومع ذلك ظل كثير من الفقهاء يتناسون عاطفة الحب عند الزواج.. فالزواج عندهم عقد شركة وليس مسألة عاطفة، وقال المتسامحون منهم ان الحب يأتي بعد الزواج وليس قبله، فإن قيل لهم ان الموافقة إلى الزوج لابد ان تأتي قبله فكيف السبيل إلى حل هذه المشكلة الصعبة، فأجابوا ان العريس يمكن أن يرى العروس كما يمكنها أن تراه بحضور أطراف من الأسرتين.

فيصيح العريس: يا جماعة الخير! أنا أريد أن أجلس وأتحدث

إلى شريكتي في حياتي المستقبلية «من غير عذول»! فيرد الفقهاء بأن هذه تكون خلوة شرعية محرمة على غير المتزوجين، وهكذا ترتطم المعادلة الصعبة بمثلها بل أصعب منها.. ومن الناحية العملية لا يسمح للعريس برؤية العروس إلا إذا كان الاتفاق على الزواج في حكم المنتهي لا رجعة فيه.. ومع ذلك فقد رأيت في الغرب علاقة حب بين متحابين، في عذول ولا رقيب ولا حسيب ولا تحديد لفترة التعارف ولم تكن بأصلح حالاً من زواجنا المتواضع الضيق المحدود، قال الراوي: التقى صديقان قديمان بعد سنين طويلة من الفراق، فلاحظ أحدهما أن صاحبه يائس وحزين ومكتئب، فقال له: عهدي بك اني عشقت (مزنة)، وكنت في غاية السعادة بحبها، فماذا حدث؟ قال الآخر بأسى: بعد عشر سنين من السعادة تزوجتها..

ذلك أن واجبات الشركة في الحياة غير واجبات القلوب العاشقة، ومن هنا طالب علماء الاجتماع بترشيد الشباب في سن الزواج بكل شيء وحتى مطالب الجنس، ولم نعد ذلك شيئاً إذ كانت الأمهات يقمن قديماً بشرح (الموضوع) كله سراً للبنت أو للابن على حدة، وكانت النتائج مع ذلك محدودة جداً! قال الراوي ان فتاة شابة في الثامنة عشرة من عمرها، ومن أسرة محترمة، زفت إلى عريس يكبرها بخمسين سنة.. وبعد حفل الزفاف دخل الزوجان إلى عش السعادة، وبينما كانت العروس الجميلة تتخفف من ثيابها، وتصلح من شعرها، وتلبس أخف

قمصانهـا وأكثرها اغراء، عادت إلى الفراش فـوجدت العريس قد علا شـخيـره وغـرق في نوم عـميـق فحـارت في الأمـر، ثم استجمعت شـجاعتها وهزته برفق، فانتبه، فـقالت له: عفواً ماذا بك؟ أجاب بتـرم: لا شيء، أنا نائم، لأن البنك الذي أديره فـيه مجلس إدارة يـجتمع غـداً، قالت: أولم تشـرح لك أمك شيـئاً بخصوص ليلة الدخلة؟ صاح: الله يرحمها؟

وإذا كـانت هذه العـروس المسكينة لم تـر في ليلة الدخلة مـا يحولها إلى ليلة تاريخية في حياتها، فهناك في الغرب ما هو أدهى وأمر.. فهذا رجل تجاوز الخمـسين من عمره ولم يتزوج.. فسأله صديق له عـن ذلك فأجاب: ليس عنـدي وقت للتعارف بـالنساء واختيار من تصلـح منهم.. قال: هناك مكاتب للزواج تتولى لك البحث عـمن تريد، ولابد أن تعثر لك على ضـالتك المنشودة بين عشـرات الملايين من النساء، قال: لقـد ذهبت، وملأت صحيـفة المعلومـات والصقت عليهـا صورتي، وكـتبت كل مـا أرجوه في شركة المستقبل، وكان أمـراً بسيطاً جداً، فأنا أحب الطعام المطبوخ جيداً، وعلامة جـودته أن يذكرني بطبخ أمي.. وفي كل مرة أمر بمكتب الخطوبة أجد المعلومـات الخاصة بالمتقـدمة لزواجي ممتازة، ولكن بنظرة سـريعة على صـورتها أجـد أنها لا تشبـه أمي ولكن تشبه أبي بعد حذف اللحيـة، والشوارب طبعاً! وذكرني هنا بأحد أبناء الطبقـة الأرستقـراطية الأوروبية، وكـان قد أضاع نفـسه في الخمر والنساء ولعب الميسر حـتى أفلس، ولم يبق من ارستقراطيته إلا أنه يحمل لقب «بارون».. وبعـد تفكير يائس قال لنفـسه ان

هذا اللقب يمثل وحده ثروة ضخمة للأسرة التي تتشرف بمصاهرتي.. وفي الحال اتجه إلى مكتب للتزويج وكتب صحيفة المعلومات (البارون فلان) فسأله الموظف: سعادتك تريد الزواج ببارونة طبعاً! قال بفزع: لا، لا! المهم أن تكون غنية جيداً.. واسعة الثراء، فسألته هل أنت غني؟ أجاب: سابقاً، أما الآن فلم أعد كذلك، قال الموظف: والعمل الذي تشتغل به؟ أجاب: لا شيء، بحثت عن عمل حتى حفيت ولم أجد! قال: هل لك مهنة أو صناعة أو خبرة؟ قال: حياة الليل..، وسباق الخيل.. وحفلات الطبقة العليا.. قال الموظف: عظيم جداً عندنا طلبك تماماً.. جميلة.. مليونيرة.. بالنسبة لسعادتك شابة.. تقول انها في الأربعين.. ومع التسامح يمكن اضافة خمس عشرة سنة أخرى.. لكن لا يظهر عليها ابدا.. وكانت كلمة (مليونيرة) ما تزال ترن في اذن البارون البائس، فصاح عليَّ بها.. إنها سيدي تبدو طبيعية جداً حتى إذا ما أقبل الربيع أصيبت بنوبة من الجنون ما تبدأ تشعر بها حتى تتوجه فوراً إلى مصحة الأمراض النفسية والعصبية والعقلية، حيث تبقى شهراً ثم تعود إلى عقلها واتزانها.. قال البارون: هذا غير مهم، فمتى أقابلها؟ أجاب الموظف: مع بداية الربيع القادم.

ومع ان الشريعة الإسلامية قد أنصفت المرأة، إلا أن العادات والتقاليد البالية الباقية من أيام الزواج بالخطف أو الأسر أو الشراء ظلت متأصلة في النفوس، وظل الرجل مغروراً بقوته البدنية الظاهرة، وهي قوة أبعد ما تكون عن تحمل أعباء الحمل والولادة

والحضانة، ورعاية المنزل، فبسط على المرأة سلطانه وفرض عليها حمايته، ووضع في شخصها شرفه وعاره وكرامته، فلجأت ـ ككل ضعيف ـ إلى الدهاء والحيلة، وجعلت منه رمزاً ستتصرف من خلاله، وكم من زوجات للحكام كن يحكمن بلاداً عظيمة وقوية وراء ستار من أزواجهن، وكم من قائد محنك وضعوا في طريقه امرأة لعوباً فاستسلم، وهو الذي لم يستسلم في حياته كلها للجيوش الجرارة: كيلو بطرة مع يوليوس قيصر أولاً ثم مع انطونيوس ثانياً، وجواري الدولة العباسية مثل حبابة وسلامة ودنانير وقبيحة وغيرهن إلى أميلدا ماركوس أرملة رئيس الفلبين السابق التي اتهمت بإدارة الدولة وراء زوجها، وكذلك ماوتسي زعيم الصين الشيوعية والقائمة طويلة جداً لا يتسع لها المقام.

أما الشريعة اليهودية فكانت ترى ان المرأة مصدر كل شر، لدرجة انهم كانوا يحرمون عليها أن تقرب التوراة، أو أن تلمس ثياب زوجها التي يذهب بها للصلاة، وفي التحميدات التي يتلوها اليهود وفي معابدهم يقول اليهودي: تبارك الله الذي خلقني رجلاً: أما المرأة فتقول: تبارك الله الذي خلقني حسب قضائه وارادته! وعندما ثار الجدال بين نساء الدولة الصهيونية والرئاسة الدينية بها كتبت رئيسة الاتحاد النسائي هناك مقالاً صاخباً موجهاً إلى حاخام الفتاوى (الظالمة) التي صدرت منه في حق النساء بعنوان: تبارك الله الذي خلقني امرأة! وقد كثر ذم النساء في كتب اليهود فمن ذلك ما نسبوه إلى سليمان، مع أنه جمع في قصره ـ حسب قولهم ـ الف امرأة: سبعمائة زوجة شرعية وثلثمائة سرية،

يقول في سفر (الأمثال ٧ : ٦ ومـا بعدها): أشرفت من كوة بيتي، ومن وراء شباكي، فرأيت بين الحمـقى، وتأملت بين الشباب فتى فاقد العـقل ماراً في الشارع عند زاويتـها (أي المرأة) ومتمـشياً في طريق بيـتـهـا، في الغلس، عند المسـاء في جـوف الليل، في الظلمة.. وإذا بامرأة قـابلته، وزيها زي مومس، وقلبهـا خبيث، صخابة متبـجحة، لا تستقر قدماها في بيـتها.. تارة في الخارج، وتارة في الشـوارع وتكمن عند كـل زاوية.. فأمـسكتـه وقـبلتـه وصلبت وجـهها وقـالت له: كانت عليَّ قـرابين سلامـة، واليوم قضيت نذوري.. فـلذلك خرجت القاك، مشتـاقك إلى وجهك، فوجدتك، وقـد فرشت سريراً بمفارش الحرير المنسوجـة في مصر وعطرت مضـجعي بالمر والعود والقـرفة.. هلم نرتوي من الحب إلى الفجر، ونتـمتع بالهوى، فإن الرجل ليس بالبـيت! كأننا في مونت كارلو أو لاس فيجـاس! والفتى ـ لكثرة ما حذروه من لؤم النساء، استـوت عنده الفاضلة والعاطلة! أما الدين المسـيحي فبين تحـريم الطلاق ومنع تـعـدد الزوجـات وصل الأمـر بالأزواج ان اخترعوا للنســاء (حزام العفة) وهو حزام معـدني عليه قفل سري مفـتاحـه مع الزوج، وفي المتاحف الفـرنسية مـجموعـة من تلك الأحزمة تشهد بانعـدام الثقة بين الرجل والمرأة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وأنا واثق من أن نـساء العـالم المسـيـحي توصلن إلى اختراع مفاتيح مصطنعة لهذه الأقفال، وحق لهن ذلك!

الجد الضاحك!٭

لا أقصد جـدي رحمه الله عليه، فما أذكـر انني رأيته ضاحكا أبدا، إذ كان من علماء الأزهر، يجلس بعمامته البيضاء، وشواربه المفتولة، ولحـيته الخفيـفة اللطيفة، وعينيـه اللامعتين خلف الاطار البيضاوي لنظارته، يراقبنا في حديقة المنزل، فإذا سمع ضحكة أو قهقهة سحب عصاه الرابضة بين ركـبتيه وصاح: كفى ضحكا أيها الأبالسة! فالضحك من غير سبب، قلة أدب! فنسكت مهما كانت عندنا للضحك من أسـباب، ولكن الجد فرض علينا جـديته... بالعصـا! وعندما قضى نحـبه، كان أكثـر أحفاده، ومنهم العـبد الضعيف كـاتب هذه السطور قد بلغوا عنفوان الشـباب، وانطلقوا على سجيتهم، يعانون ما في الحياة من ضحك... وبكاء. وبعد الانتهاء من الدراسة الجامعية، ساقتني المقادير إلى مواصلة الدراسة

٭ جريدة الرياض ١٣/ ١١/ ١٤١٥هـ ـ١٣/ ٤/ ١٩٩٥م ـ العدد ٩٧٨٩

التخصصية في الفكر اليهودي في الجامعة العبرية بالقدس، لأن الحرب العالمية الثانية كانت قائمة على قدم وساق، ولم يكن هناك من سبيل الى الجامعات الغربية. وهكذا عشت مع الشباب الصهيوني، ولمست المؤامرة التي كانت تحاك في فلسطين ـ منذ سنين طويلة ـ ضد العرب والمسلمين ولزمت الصمت ـ بقدر الامكان ـ لأن عصابات القمع للمعارضين كانت أشد رهبة وهولاً. فكنت أضحك تمويهاً وأبكي وحيداً. وكنت إذا غادرت تلك البلاد ـ ولو لأيام قليلة ـ أشعر بالحاجة الملحة الى الضحك.. نوع من الجوع الى ضحك صريح مجلجل مزلزل، يغسل ما تراكم على قلبي من أدران، فأشعر براحة نادرة المثال أدركت منها أن الضحك مسألة جدية، وضرورية، ونوع من العلاج الطبيعي، وصمام أمان ينفس الهم المكبوت في النفس قبل لحظة الانفجار، واستمعت من شباب الصهاينة الى نكتهم المضحكة فكان أكثرها يمرق من فوق رأسي ولا يصيبه، لأنها كانت إذ ذاك ـ في معظمها ـ اقليمية داخلية عشائرية: اليهودي الروسي يضحك من البولندي، وهذا من اليهودي الألماني أو الأمريكي أو المغربي، فأين هذا من النكتة المصرية اللاذعة؟. ثم طوحت بي المقادير بعد انتهاء الحرب إلى باريس. وهنا تبين لي أنها ـ كانت إذ ذاك ـ عاصمة الضحك أيضا. وخيل الي وأنا غارق في الانجيل والتوراة والتلمود وقانون حمورابي وما اليه من النقوش المسمارية، انني كنت قادراً على تغيير مساري، بتحضير دكتوراه في الضحك.. لولا خوفي على المنحة التي كنت أعيش

منها.. وهي أقسى وأعتى من عصا المرحوم جدي، ومع ذلك كانت تعاودني وسوسة ملحة ترفض الى الاقدام. ولم لا؟ ان واحدا من أشهر الفلاسفة الفرنسيين في العصر الحديث «هنري برجسون» قد خص الضحك بكتاب من أهم مؤلفاته، وفيلسوف اليونان أرسطو ـ المعلم الأول ـ عرّف الانسان بأنه حيوان ضاحك كما هو حيوان ناطق، واسحق بن ابراهيم عليهما السلام معنى اسمه في اللغة العربية الضاحك، وسمى العرب أبناءهم الضحاك، وباسم، وبسام، وسرور، ومسرور، وفرح، وفرحان، وسموا بناتهم ابتسام، وبسمة، وشموع (المرأة الضاحكة دائما)، وفرحة، وبهجة، وبهيجة، وفوق هذا كله وصف الخالق جل وعلا نفسه بأنه «أضحك وأبكى» ولحكمة منه تعالى قدم الضحك على البكاء.

أمام هذه الخواطر ألقيت بنفسي في مهب عواصف الضحك، املأ منها صدري وقلبي ورأسي. وفي ذاك الوقت بدأ تعرفي على الحب بلياليه المتألقة الضاحكة، ودياجيره المطبقة الباكية، فكان إذا اشتد بي الوجد واستبد واضناني السهاد والأرق لا ينقذني إلا مجموع من الأضاحيك، إما أن تصاحبني طول ليلتي ـ ان كانت عميقة ذكية، فلا أشعر معها بأحزان الفراق، ونيران الأشواق، وإما أن تكون وخيمة يغشاني منها الملل فالنوم، فأنجو من الوسواس الخناس، واستسلم للنعاس.

ومنذ أيام فاجـأني صديق عـزيز فطلب مني أن أتكلم في ندوة في داره يحضرها صفوة من أهل الأدب والعلم عن الفكاهة، لأنه يعرف ان لي مـعها مـاضيا طويلا. لكـن جاءني طلبه على غـير اسـتعـداد، وأنا أعـرف ان ندوته تنحـو أحيـانا منحى الاخـتبـار الصـعب، عندما تكثـر الاعتـراضـات والتعليـقات، أو الأسـئلة والاستفسارات. وحاولت أن أكون على مستوى وقار الشيب الذي يتوج رأسي، ويـتسم به الحاضـرون، حتى من الشـباب. فـبدأت استطلع ما قالته دوائر المـعارف عن الضحك، وكدت أضحك من استهتار الباحثين في هذه الموسوعات بهذا الموضوع الحيوي الجليل. ولجأت الـى المراجع الطبيـة، فتكلمت عن عـدد العضـلات التي تنفرج أو تـنقبض في وجه الانـسان عند الضحـك. وتذكرت ان شـيخ ظرفاء العـرب «أشعـب» كانت له القـدرة الارادية على أن يوسع رقعـة وجهـه عرضا حـتى يكون عرضه ضـعف طوله، ثم يضيّقه طولا حتى يبدو وكأنه ينظر الى صورته على نصل سيف.

ثم وقعت على شيخ آخر من ابطال الضحك عند العرب اسمه «أبو الورد» يعلو على اقرانه جميعـا في القدرة على المحاكاة. قال ابو منصور الثـعالبي عنه في «يتـيمة الدهـر في شعراء العـصر»: بلغني انه كـان من عجـائب الدنيا في المطايبـة (يعني الاضـحاك) والمحاكـاة. وكان يخدم مـجلس المهلبي الوزير، ويحكي شـمائل الناس وألسنتـهم، فيؤديهـا كما هي، فـيعجب الـناظر والسامع، ويُضحـك الثكلان، وكان أبو اسـحق الصابىء (من أشـهر أدباء

القرن الرابع الهجري) قد بُلي. حتى قال فيه

ومن عـــجـب الأيام ان صـــروفـــهـــا

تســـوء امـــرأ مـــثلـي.. بمثـل أب الورد

فـيـاليتــهـا اخــتـارت نظيــرا.. وليتــهـا

رمــتــني بشنـعــاء الدواهــي على عـــمــد!

فكـم بين مـــعــــقـــور الكـلاب وان نجـــا

ذليل.. ومـــقــتــول الضـــراغـمــة الأســد!

وكان «أبور الورد» شاعرا ايضا، هجا شخصا يستثقله اسمه ابو المظفر، فقال فيه:

ليس اشتقاق ابي المظفر   من أن يرى ظفرا فيظفر

لكن تطـــــاول ظفــره   فلذاك قيـل: ابو المظفــر

وأما جحــا فقد وصل من الشهــرة بنكته الى ان أُلفت من أجله المجاميع الوفيرة من القصص المضحكة أكثرها منحول عليه. وسار بين الناس ذكـره هو وحــمــاره وابنه وزوجــتــه والسلطان التــركي تيمورلنك، وادعت كل أمة انه منها: الأتراك، والفرس، والأكراد الذين يصرون عــلى انه من «أرض روم» في الكردستــان التركي، واشتهر باسم جحا الرومي، وان كان أول ظهوره في بلاد العرب، فادعــاه العراقــيون والسوريون والحــجازيون والمصــريون والمغاربة

والسودانيـون وغيـرهم، ومن أقدم أخـباره ما رواه ابـو الفرج بن الجوزي عن عـباد بن صهـيب، قال: قدمت الكوفـة لأسمع من اسماعيل بن خالد فمررت بشيخ جالس فقلت: ياشيخ: كيف أمر الى منزل اسـمـاعيل بن خـالد؟ قـال: الى ورائك قلت: ارجع؟ قال: أقـول لك وراءك وترجع؟ قلت: أليس ورائي خلفـي؟ قال لا! حدثني عكرمة عن ابن عباس في تفـسير قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي بين يـديهم. قلت: من أنت ياشـيخ؟ قـال: جحا!.

وفيمـا أنا أبحث رأيت في دراسة لأحد المهتـمين بالضحك في أوروبا اقتراحـا بلفظة جديدة أعتقد انها لم تدخل بعـد في معاجم اللغـات الأوروبية هي (الزيجـوما تولوجـيا) أي علم الضـحك، وشـرح الرجل أصلها الذي صنعـها منـه، وهي اللفظة اليونانيـة (زيجومـا) وهي في مصطلح التشريح والـطب تعني عظمة الوجنة في خد الانسـان وان هناك عصبا يأتي من تحت الأذن فـيصل إلى الزيجوما ويتفرع عندها الى فروع عصبية هي التي توصل الأوامر بإذن الله الى عضـلات الوجه فتبـتعد عن جـانبي الأنف في اتجاه الأذنين، فيحـدث الابتسام أوالضحك أو الـقهقهة بحـسب نشاط تلك الأعصاب والعضلات، وقـوة المصدر الباعث على الضحك، وأخف هذا الابتسام، الذي اصبح لخفـته اراديا الى حد كبير، بل اصبح لغة يعـبر بها الانسان، فـهناك ابتسامة الاستـحسان، وهي الابتـسامـة الصادقـة التي تنفرج بهـا أسارير عـباد الله عند لـقاء الأحبـاء، أو عند سمـاع نكتة خـفيفـة لطيفـة، وهناك ابتسـامة

الاستخفاف والازدراء، وابتسامة الرياء الصفراء وابتسامة الغيظ الشاحبة وابتسامة الأعزاء العزامى اللزجة.. الخ. أما البكاء فأمره من التعبير أيسر وأسهل، ولذلك نجد الطفل الحديث الولادة يبكي قبل أن يبتسم بفترة طويلة، ونجد بعد ذلك ان فن اضحاك الناس أصعب بكثير من فن ابكائّهم. ومن هنا كثر الفشل في المسرحيات الكوميدية وقل في المسرحيات المأساوية.

لكن الصعوبة في اضحاك الناس تأتي ايضاً من اننا بمجرد فتح باب الاضحاك تتسرب البذاءة والأضاحيك الجنسية المكشوفة فينزلق الموقف كله الى الابتذال والسوقية. ومع ذلك تبقى النكت التي تندد بالسكارى والمساطيل والمجانين والمتكبرين والجهلة المتعالمين والأدعياء والثقلاء والبؤساء من المتزوجين منافسا خطيرا للنكتة السياسية التي كانت ـ ومازالت ـ سلاحاً ماضياً يذكر الطغاة بأن النكتة قد تكون أشد فتكاً بهم من الاغتيال، كما أن السخرية في حلقات العلم قد تكون أقوى في تنبيه المخطىء من استعمال العصا. قال الراوي ان شيخا كان يقرأ الحديث، فطلب من أحد طلابه أن يقرأ، فقرأ: حدثنا فلان عن فلان عن النبي ﷺ، عن الله، عن رجل.. فقاطعه الشيخ صائحا: من هذا الرجل الذي هو شيخ الله؟ فعاد الطالب إلى الكتاب وقال: عن الله عز وجل، وعرف أنه صحف وحرّف عندما قال (عن رجل) وما عرف كيف يواري نفسه من الخجل..

وجاء اعرابي الى معاوية بن أبي سفيان، وكان قد بلغه انه يوزع بعض الأراضي على المحتاجين. فقال له: يا أمير المؤمنين

عندي دار في البصرة وأريد أرضا تكون بستاناً حولها، فسأله معاوية: وكم سعة دارك؟ فانتهز الأعرابي الفرصة وقال: طولها أربعة آلاف خطوة وعرضها ثلاثة آلاف، فقال له معاوية: ودارك هذه في البصرة أم البصرة في دارك؟. ومما يروى ان دكتاتور يوغوسلافيا السابقة المارشال تيتو اتصل بالرئيس جمال عبدالناصر في مصر وأعرب له عن عزمه على القيام بزيارة رسمية له. فرحب به الرئيس المصري، لاسيما ان هذا كان بعد هزيمته العسكرية في سنة ١٩٦٧ وسأله ان كان يرغب في رؤية أماكن خاصة في مصر، فأجاب بأنه يريد زيارة المعابد الفرعونية. فكلف عبدالناصر المرحوم الدكتور أحمد بدوي المتخصص في الآثار الفرعونية بأن يكون الدليل المرافق للرئيسين. وأمام معبد الكرنك وقف الدكتور يقرأ المكتوب على واجهة المعبد بالهيروغليفية ويترجمه، وكله اشادة بانتصارات رمسيس الثاني في حروبه.

وأراد عبدالناصر أن يبين سعة ثقافته فقال: يقولون إنه كذاب، وإنها انتصارات وهمية. فأجاب الدكتور بدوي: سيادة الرئيس أدري، فهذه بلاغات حربية!.

ولايزال في عالم الضحك أشياء وأشياء لو لم يدرك شهر زاد الصباح.

الجمال... بدون فلسفة!..

كان الطقس في الريـاض جميلاً فـي هذا المساء فاقـترحنا على صديـقنا الشيخ عـبدالسـلام ان نأخذ عـشاءنا الى بعض الـبراري المحيطة بالمدينة، نلتمس الهدوء وشيـئا من النسائم الربيعية المعطرة بالعشب النابت تحت سـماء الله الحرة النقيـة، وتحت رذاذ خفيف يقمع الغبار، ويرطب القلب، واتخـذنا مجلسنا على صخرة نرى منها أنوار المدينة ولا تزعجنا ادخنتها وابخرتها وضوضاؤها. وبعد عشاء خـفيف وكأسين باردين من عصير الجـزر، جاء دور الشاي المنعنع، وانشرح صدر الـشيخ فسمعتـه يدندن فأرهفت أذني، ويا للعجب! كان ينشد:

يا حبذا عمل الشيطان من عمل   ان كان من عمل الشيطان حبّها

❁ جريدة الرياض ٢٠/١١/١٤١٥هـ ـ ٢٠/٤/١٩٩٥م ـ العدد ٩٧٩٦

وصحت مازحا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أهذا من شعرك يا أبا بيومي؟ قال: هذا ـ طال عمرك ـ شعر قديم، ورقيق شفاف.. وصادق أيضا. قلت: أفادك الله، استمر يا شيخ، فسكت وارتشف قليلا من الشاي، ثم اتبعه بارتشاف انفاس عميقة من اريج الصحراء، وعاد الى ترنمه:

لنظرة من سليمي اليوم، واحدة أشهى الي من الدنيا.. وما فيها

فسألته ان كان يذكر اسم الشاعر، قال: نعم، اسمه «ناهض بن ثومة الكلابي» ذكره ابوالفرج الاصفهاني في كتابه الاغاني، وهذان البيتان صارا أغنية منتشرة في عصره، وهو العصر العباسي.

ووصف الاصفهاني هذا الشاعر بأنه بدوي.. فارس.. فصيح.. وكان يزور البصرة احيانا فيكتب عنه شعره، وتؤخذ عنه اللغة، لنقائها وجمالها. وكان يتغزل بسلمى دائما، وباسماء احيانا، في مطلع قصائده. فمن ذلك قصيدة طويلة يرد بها على شاعر بدوي آخر انتقص قومه، وجاء في بدايتها:

عسى يعقب الهجر الطويل تدانيا

يا رب هجر معقب بتداني

خليلي قد اكثرتما اللوم.. فاربعا

كفاني ما بي ـ لو تركتنا، كفاني

اذا لم تصل سلمى واسماء في الصبا

بحبليهما حبلي.. فمن تصلان؟..

قلت متعجبا: هذا شاعر مجيد، ولعل دوام مقامه في البادية هو الذي حد من شهرته، قال الشيخ: الشهرة شيء والجودة شيء آخر ومازال في تراثنا العربي مظلومون وآخرون محظوظون، حتى في الأدب العربي المعاصر، حيث يحتل بعض الناس مقاعد الصدارة في اجهزة الاعلام من اذاعة وتلفزة وصحافة وغيرهم - وفيهم خير كثير - يبقى في زاوية النسيان قابعا قانعا، ولكن قل لي، هل في آداب الأمم الأخرى غزل جميل مثل ما عندنا؟ أجبت: ان الجمال جذاب دائما، وفي كل لسان. والغزل من امراض الشعراء المزمنة، الا أن يكون زاهدا او فيلسوفا، وفي الأدب العبري القديم اغزال جيدة نسبها اليهود الى الأنبياء اعجابا بها فابقى عليها هذا النسب نصوصا يغنونها في صلواتهم لحسن الحظ واشهر ما اعرف من ذلك «سفر نشيد الأناشيد» المنسوب الى سليمان عليه السلام، ربما لأنه عندهم كان شديد الحب للنساء الجميلات فقط وكان مع ذلك حكيما، وامثاله النثرية، ورسائله في سيرته في كتابه «العهد القديم» تشهد بذلك، وهي بعيدة كل البعد عن الغرام الجامح الذي ينسب اليه في العهد القديم. اسمع مثلا يا مولانا: حولي عني عينيك فقد غلبتاني! شعرك كقطيع ماعز يلوح من جبل (جلعاد)، اسنانك كقطيع من النعاج خارجة من الاستحمام، كل واحدة منهن متيم، وما فيهن عاقر خداك

كفلقتي رمانة من وراء نقابـك. الملكات ستون، السراري ثمانون، والابكار لا عدد لهن. لكن يمامتي متـفردة في الكمال، مدللة من أمـها. رأتهـا العـذارى فـغرن منـها. رأتهـا الملكات والسـراري فمدحنهـا. من هذه الطالعة كالصبـاح؟ الجميلة كالقـمر؟ المعضلة كالشمس؟ المرهوبة كالكتيبة تحت الرايات؟..

وهذه الجمـيلة، الرهيبة في جـمالها، نتغـزل فيه ايضـا فنقول مثـلا: حبيبي بين الشـباب كالتـفاحة في شـحر الغابة، اشتـهيت فـجلست في ظله، وثمرة حلـو في حلقي! ادخلني قبـو خمـره وغرامـه راية ترفرف علـي. اسندوني بفطائر الزبيب، وانعشـوني بالتفاح، فقد اضعفني العشق! شماله تحت رأسي، ويمينه تعانقني! صاح الشيخ: كفى! قلت: هل تجاوبت مع هذا الغرام، قال:

اذا أنت لم تعشق، ولم تدر ما الهوى

فكن صخرة من يابس الصخر جلمدا

لكن مثل هذا الأدب لم يعـرفه العرب - في تبذله وانكـشافه - الا بعد ان تأثروا بالآداب الأجنبية، بعد اتصالهم بالفرس والروم، في شعر ابي نواس، وبشار بن برد، وحماد عجرد، واشباههم.

قلت معلقا: وللناس فـيما يعشقـون مذاهب، فأديب بريطاني من القرن الثامن عشر يفرق بـين الجمال الطاعن والجمال الحزين، فالأول جمـيل فقط، والثاني رائع. ومع ذلك فهنـاك اجماع على ان الجمال، الموجود في الطبيـعة وفي الطيور والحيوانات والازهار

والنباتات، وكواكب السماء وفي بني آدم رجالا ونساء قد احتكرته النساء فـي النهاية، ورمزت اليـه اديان الوثنية القـديمة بأرباب من النســاء لهن اصنام غـنى الفنانون (المـؤمنون) بالابداع في بيـان فتنتهن: ايزريس في مصر، وعشتروت في غرب آسيا، انطلاقا من بابل وافروديـت اليونانية وفـينوس الرومانيـة وكثيـرات من اولئك الفاتنات منذ العصور الحجـرية الأولى. ولا يزال العالم المتحضر، بعد كل هذه الملايين من السنين ينتخب لكل امة (ملكة جمال) ثم ينتخب ملكة لجمال العالم كله ويخضع الاختيار الى ما لا يحصى من الشـروط، لكن اهونهـا العلم والثقـافـة وحضـور البديهـة، والتحلي بمكارم الأخـلاق، وان كانوا يشـترطون (بكارة) المتقـدمة للمسـابقة. ويكاد الناس يجمعـون على ان الرجال يضعـفون امام سلطان الجمال النسائي حتى قال شاعر مغامر:

الـله فـي الخـلـق، من حـب ومـن عـــــان

تفـنى الـقلوب، ويـبـــقى قـلبـك الجـــاني

صــــوني جـــمــــالـك عنا.. انـنا بشــــر

من الـتــراب.. وهـذا الحـــسن روحـــاني..

ويقول ارسطو فيلسـوف اليونان القديم: ان ميزة الجـمال أقوى توصيـة في صالح الجـميلة، لا تدانيـها أية وثيقـة تزكيـة أخرى! والشاعر العربي اتى بها «على المكشوف» في قوله:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا! مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

ورووا ان الشعبي البـصري قضى لامرأة بارعة الجـمال في دعواها ضد زوجها، فقال الزوج المسكين:

فتن الشعبي لما

رفع الطرف اليها

فتنته بدلال

وبخطي حاجبيها..

واستمر في سخريته ونقده اللاذع لهذا القاضي الشديد التحرج والدقة حتى حكم بجلده تعـزيرا.. ويقول شكسبير أكبـر الشعراء المسـرحـيين في تاريـخ الأدب الانجليـزي: ان جـمـيع المحـامين ليخـرسون عندمـا يتكلم الجمال، ولا عـلاقة للجـمال بالغنى أو الفقر، والمثل العربي القديم يقول:

كم زبلة في روضة

ودرة في مزبلة!..

قال الراوي ان الشاعـرة الفرنسية (مارسـيلين ديبورد ـ فلمور ـ ١٧٨٦ ـ ١٨٥٩م) كانت جمـيلة جدا، وفقيرة بائسة، فـاشتغلت بالتمـثيل المسرحي، في وقت كـان النساء في المسـرح ينظر اليهن على انهن من الكادحات المبذولات. وعـرفت في حياتها الزواج الفاشل، والمسئولية عن خمسة من الأولاد، ومع ذلك كانت أديبة تكتب شعرا رائعا فيه جمـال التجربة، وجمال الصدق.. وجمال الجمال، تقول تحت عنوان: ماذا صنعتِ بقلبي؟..

كان قلبي عــندك ـ وكان قلبك عندي ـ قلب لقلب ـ وســعادة لسعادة ـ.

واستعدت قلبك ـ ولم استرد قلبي ـ قلبك رد اليك ـ وقلبي. . ضاع ـ. .

مع الورق. . والزهــر. . ـ وكل الثــمـــر ـ الورق. . والزهر ـ والأريج. . والألق ـ. .

ماذا صنعت بقلبي؟ ـ ياسيدي المتصرف المطلق ـ ماذا صنعت به ـ بهذا الطيب الحنون؟ ـ

تركته كطفل مسكين ـ جحدته أمه! ـ نعم، كطفل مسكين ـ لا يحميه أحد ـ

انت تفارقني هنا ـ لحياتي المريرة ـ نعم تفارقني هنا ـ والله يرى كل شيء ـ. .

أتعلم انه في يــوم مــا ـ ســتكون وحــيــدا يا رجل! ـ وان هذا الرجل ـ سيتذكر الحب ـ. .

إذ ذاك ســتنادي ـ ولا اجــابة! ســتنادي بــقلبك ـ وســتــحكم وتفكر ـ.

ستأتي بأحلامك ـ وستدق الباب ـ ســتصل باحلامك ـ وحبيبا كما كنت قبل ـ .

وسيقــولون لك ـ لا أحد! لقد ماتت! ـ ســيقولون ذلك لك ـ ولكن من يرثي لحالك! ـ. .

ورأيت الشيخ عبدالسلام يفكر طويلا، ومسحة من الأسف تبدو على وجهه في ضوء القمر، ثم قال: شيء محير، هناك، ومنذ قرن ونصف او تزيد، مع الثورة الفرنسية، واعلان حقوق الانسان، وتحريم الطلاق، وتعدد الزوجات، تظل الظروف كئيبة، أن رأيي يا أستاذ، ان الشريعة الاسلامية السمحة، لو نفذت بروحها، وتفاصيلها القائمة على العدل والرحمة والاحترام، لما استبد القوي بالضعيف، وليس الرجل قويا دائما، بل قد تستبد به المرأة اما بجمالها وشبابها، واما بجمالها او بقوة عشيرتها، او بالحيلة والدهاء، او بزلة تتمسك بها ضد الرجل، فتهدد سمعته وكرامته ومستقبله. لا حل في ذلك إلا بالايمان المطلق بالعدل، وبالله سبحانه وتعالى، والتخلي عن تحكم القوي في الضعيف، لأنها شريعة الغاب، قلت: وفي كل هذا يجب ان ينتهي عمق الفجوات التي تباعد بين الرجل والمرأة فالمرأة الأمية في بيت الرجل العالم، ان صلح أمرها، تكون أمينة في الخدمة فقط وبنت العشرين التي تتزوج ابن الثمانين تستعجل صفة الأرملة، وأولادها اليوم هم ايتام الغد، وكل هذا قبل ان يدهم الناس طوفان الأباحية! قال الشيخ: كل هذا بسبب الجري وراء السراب الخادع الذي يسمونه جمال النساء!..

ابتزاز الفلوس.. من رؤوس التيوس

جـرت عادة المنجـمين والكهـان ان يلزمـوا الكلام المسجـوع، فانتشــرت صفة سجع الكهــان على انها ظاهرة في هذا النوع منذ اقـدم عصـور الجاهليـة عندنا، وكـأن الجن والعفـاريت والارواح والتوابـع لا يلتفتـون إلى كلامنا، نحـن المخلوقات الفـانية، ولا يعيرونه سمعاً، إلا إذا كان سجعاً!.

ولأنني اريد ان اجـعل مـسامـرة اليـوم حول التنجـيم والتنبـؤ والكشف وما إليـها من «العلم الروحـاني» فقد تعـمدت ان يكون العنوان اليوم مسجوعاً، فضـلاً عن ميل قديم إلى السجع، استقر في ذوقي وكـأنه عاهة وراثيـة منذ ما كـان يغمـرني من اعجـاب بعناوين كتـبنا التراثية في الأدب والتـاريخ وعلوم الدين مثل تزيين الاسواق بتفـصيل اشواق العشـاق، للانطاكي أو اعلام الناس بما

❁ جريدة الرياض ٢٧/١١/١٤١٥هـ ـ٢٧/٤/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٠٣

وقع للبرامكة مـع بني العباس للاقليـدي، أو العبر وديوان المبـتدأ والخـبر لابن خـلدون، أو الاتقان في عـلوم القرآن للـسيـوطي، ومئات الآلاف من تلك الاسجاع التي تتجاوب في رأسي وذاكرتي منذ الصغر بطنينها ورنينها، وقد دعـوت صديقنا الشيخ عبدالسلام ان يأتي فيدركنـي بما عنده في موضوع حرمه الله تـعالى في كتب مـوسى وعيـسى وفي قـرآننا الكريم، فـخالفـتـه كل تلك الأمم وغيرها، وظهر الساحر والكاهن والعراف، والمنجم وقارئة البخت وضـاربة الرمل، وعاقـدة العمل، والـنفاثة في العـقد، وكـاتب الطلاسم والناظـر في دخان الـبخـور أو كـرة البلور، ومـزوجـة العانس، والدال على الكـنوز والنفائس وطارد الشيـاطين، وصانع الذهب من الطـين، وزارع الهـيـام والوصـال فـي ارض النفـور والدلال. . وما شاء كل غارق في الاحلام، مما يضيق عن وصفه الكلام، وبطبيعة الحال، كل شيء له ثمن وكل شيخ له طريقة!.

ومند كـان للانسـان أمل يجـري وراءه أو هم يؤرق نومـه، أو حبـيب يتمنى لقـاءه، أو هاجس يشغل يومـه، كأن يتـسور على اسرار الغيب، يتلمس منها بعض المعلومات. وكانت اشعة النجوم تمثل في نظره انواراً لكائنات علوية حية، تقرأ في اللوح المحفوظ، وتبوح بمـا فيه رمـزاً. وبسرعـة كثـر عدد «المسـتفيـدين» من هذا الغمـوض، فظهر كهنة الـشرك، ووضعـوا لهذه النيرات طقـوساً وعـادات: للشـمس والقـمر، والـزهرة وعطارد، وزحل والمريخ والجوزاء. . وغـيرها، ونظرت الانسـانية المسكيـنة إليها علـى انها آلهة، تعرف كل خـفايا السماوات والأرض فقـدمت لها الذبائح

والقرابين. واختـرع كهنة الكفـر اموراً ملزمة بهـذه الذبائح، منها فحص الكبـد بعد قتل الذبيـحة، وما ارتسـم عليه من خطوط أو عروق أو بـقع زعم الكهان انهـا لغة لا يسـتطيع قراءتهـا إلا هذا الكاهن الموهوب المـأذون. وصنع المعـبـد الوثني في بابل وآشـور تماثيل مجـسمة للكبـد، وعليها بيـانات ما تعنيـه البقع والخطوط والزوايا من اسرار الغـيب، وفي كثيـر من متـاحف العالم «نسخ» من هذا الاكباد، وفي نفس الوقت ـ وربما قبله ـ ظهر السحر، في البداية لشفاء المرضى، أو تسهيل الولادة، أو استنزال المطر، وبعد ذلك لارهاب الناس ومطاردتهم بالرعب، والسيطرة عليهم بالخوف من القوى الخفية للطبيعـة التي يأمرها الساحر بضرب من يشاء من الناس إلى ان بعث الله مـوسى عليـه السلام بابطال خـزعبـلات السحـر في مصـر، وجعل عـقاب الساحـر الموت، وبقي هذا في الاديان السماوية من بعده. ومع ذلك فـإن عدد المنجمين والسحرة والدجالين في اسرائيل الصهيونية المعاصرة يرتفع كل يوم إلى نسبة مخيفة بالقياس إلى عدد اولئك النصابين في بلاد العالم الأخرى. وتكثر هذه الفئة من مروجي الخرافات في عصور الأزمات العالمية.

فـعدم الاطمـئنان إلى الغـد، وشعـور القلق عليـه بين الناس يدفعهم إلى الاقبال على اولئك المهرجين.

والوجود الصـهيوني في فلسطـين، ويكاد الآن يرجع إلى قرن ونصف القرن، منهـا مائة سنة كانت الصـهيونيـة فيها عـبارة عن مؤسسة لرعاية اليهود الذين لفظتهم اوطانهم الاصلية في عواصف

«اللاسامية» التي كانت تشب في كل مكان لسبب أو لآخر، أو للتعاون الاستعماري مع الغرب في مطامعه للسيطرة على الشعوب العربية والاسلامية في الشرق الأوسط، بعد ضعف الامبراطورية العثمانية التركية، وبعد ان تركت هذه البلاد الاسلامية في حالة من الفقر والجهل والتخلف لا تملك معها وسائل الدفاع عن نفسها، ضد الاستعمار الغربي واذنابه من رواد الصهيونية.. واسمع الآن الشيخ عبدالسلام بالباب.

قال وهو يسألني: لماذا اخترت موضوع التنجيم اليوم؟ اجبت: لا ادري، غير انني سمعت واعظاً في التلفزيون يحذر من هذه الفئة من المخادعين، وينص على ان التعامل معهم حرام، ثم قرأت في صحف اسرائيل وجرائد الغرب انباء عن القبض على الخطرين من اولئك الدجالين، واحالتهم إلى التحقيق والمحاكمة.

قال الشيخ: مع انني سمعت ان القانون الوضعي عندهم لا يحمي المغفلين! قلت: هذا صحيح، ولكن، غسيل المخ، والتأثير النفسي واستغلال لهفة الملهوف لابتزاز ماله ليست من هذا التغفيل المطمئن المستريح النائم في العسل يا مولانا، انه من جانب الدجال جريمة انتحال هوية ليست له، فلا هو نبي ولا ولي، ولا عالم، بل مجرد نصاب! قال: عسى ان تكون وضعت في افواج النصابين مفسري الاحلام.. فأنت تعلم ان القول المأثور عندنا ان الرؤيا الصادقة واحد من اربعين جزءاً من النبوة. قلت: نعم لكن بشرط ألا يأخذ المفسر على تأويله اجراً، وان يختم ما يقول

بعبـارة: والله أعلم، احتيـاطاً وتحرزاً، قلت افـادك الله يا مولانا وثم شرط آخر، وهو ألا يكون مفسر المنام هازلاً أو مازحاً، كهذا الذي اتاه رجل افـريقي فـلاح، يشـتـاق إلى الحـج إلى بيت الله الحرام، وهو فقـير جداً، وبلده الافريقي بعـيد ورحلة الطائرة بينه وبين جـدة تمثل في نظره ثـروة طائلة، وذات يوم ذهب إلى احـد الشيوخ في بلده وقص عليـه مناماً خلاصته انه كـان يركب فرساً بيضاء ويسير بها سعيداً إلى مكة المكرمة. فسأله الشيخ الساخر عن ذيل الفرس، ماذا كان لونه، وبعد تفكيـر قال الرجل كان أخضر! فهز الشيخ رأسه وقال: هذا من اضغاث الاحلام. فلا تأكل فجلاً في عشائك فيظهر لك في المنام ابيض وذنبـه اخضر. قال الشيخ: ياللقسوة لو حدثني بذلـك لما سخرت منه، ودعوت له بالحج إلى بيت الله الحـرام، بشـروا ولا تنفـروا وارحـمـوا من في الأرض يرحمكـم من في السماء! فـسألتـه: وما قولكم دام فـضلكم في التجـاء الناس إلى المنجمين في كل زمان ومكان، حـتى لقد رأينا في قصـور الملوك في الغرب وخلفـاء المسلمين في الشرق وظيـفة رسمية يشغلها «منجم القصر» فكر الشيخ طويلاً وقال: الخوف من المجهول يا استاذ فالملك أو الخليـفة أو الأمير عرضة للحروب التي قد تكون مفـاجئة فضلاً عن المؤامـرات والدسائس، فهم في قلق دائم وأنت تذكر ان المنجمين عند الخليفة المعـتصم اجمعوا على ان اليوم الذي قرره أمير المؤمنين ليس فـيه طالع سعد، ونهوه عن بدء الحرب في ذلك اليوم، ولكنه خالفهم وسيـر الجيش وانتصر! فقال الشاعر ابو تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

قلت: هناك قصة أخرى قرأتها في كتاب ابن القفطي في تراجم الحكماء والأطباء، عندما ذكر منجماً اسمه ابو الفضل الخازمي المنجم، نزيل بغداد، وكان يتكلم في الاحكام النجومية ويقلده الناس فيما يقول ويدعي أكثر مما يعلم. ولما اجتمعت الكواكب السبعة في برج الميزان، في سنة ٥٨٢هـ وحكم في قرانها بأنه يحدث هواء شديد، يهلك العامر وما فيه الناس، ولهج بذلك في سائر اقطار الأرض. واهتم العالم بذلك ووافقه كل من سمع قوله من منجمي الاقطار، ولم يخالفه غير رجل يعرف بشرف الدولة العسقلاني نزيل مصر، وكان دقيق النظر، فوجد في اقتران الكواكب ما يدفع ضرر بعضها عن بعض، وقال ذلك وضمن على نفسه ان يكون الأمر كما يقول. وشرط ان يكون ذلك في نفس الليلة التي انذروا فيها بوقوع الهواء. فما هب فيها نسيم. وكان الناس قد عملوا السراديب في البلاد السهلية، والمغائر في البلاد الجبلية، فلما جاء اليوم الموعود كان الزمان صيفاً، واشتد الحر، فخزي المنجمون ووبخهم الناس وسبوا أكثرهم، وقال الشعراء في ذلك اشعاراً كثيرة فمنهم أبو الغنائم محمد بن المعلم الواسطي، قال:

قل لأبي الفضل قول معترف

مضى جمادى.. وجاءنا رجب

ومـــا جـــرت زعـــزع كـــمـــا حكمـــوا

ولا بـــدا كـــــــــــوكـــب لـه ذنـــب

كـــــــلا.. ولا أظـلـمـت ذكـــــــاء ولا

أبـدت أذى من ورائـهـــــا الـشـــــهـب

يقــــضي عليـــهـــا من ليس يعلـم مـــا

يقــــضي عليـــه؟ هـذا هو العــــجب!

فـــارم بتــــقــــويمك الفــــرات والأسـ

ـطرلاب.. خـــيـــر مـن صـفـره الخـــشب

قــــد بـان كـــــذب المنجـــمين.. وفـي

أي مــــقــــال قــــالوه مــــا كـــــذبوا؟

مـــــدبر الأمـــــر واحـــــد لـيس لـلسـ

ـبـــعـــــة فـي كل حـــــادث ســـبب

لا المشـــــتــــــري ســـــالم ولا زحـل

بــــاق ولا زهـــــرة ولا قــــطـــــب

فضحك الشيخ عبدالسلام وقال: وقـد قرأت في العام الماضي برقيات من كثير من شركات الأنباء العالمية حصيلتها انه في يوم كذا ـ نسيت والله ـ في ساعة من ساعـات المساء سيقترب كوكب كبير من الأرض فـينطحها، ويفتتهـا. قلت: نعم أذكر هذا ومرت الليلة المحـددة ولم يقـترب من ارضنا إلا بعض اسـراب الطيـور المهاجـرة، وكنت ارصد السماء من باريس. قـال الشيخ: ان الله

عنده علم الساعة، ولو صح ما تـوقعوه ـ لا سمح الله! ـ لكانت هذه هي القيامة، فكيف حددها هذا الكذاب؟

ويذهل قارىء كتب الفلاسفة القدمـاء لكثرة ما تحتوي عليه من المنجمين في الهند وايران ومصر وبلاد اليونان، ثم انتشر ذلك بعد الاسلام في كل انحـاء بلاد المسلمين، لكن الغريب ان نجـد طغاة ممن لا يؤمنون بالله وباليـوم الآخر ويتشـدقون بالمادية الجـدلية في تفسـير التاريخ، يختـفي عندهم الاعتقـاد الديني أياً كان، ويحل محله الدجال. حتى ستالين زعيم الشيوعية الروسية كان له كهنة، وكـانت له «كـاهنة» تمسـه بكفهـا فـتـزول آلامه! صـاح الشـيخ عبدالسلام: هذه عاهرة ادعى انها تشفي آلامه حتى يوفر لها التردد عليه بعيداً عن كلام الناس، وما زال البحث في الطوالع والقرانات والزيجـات والزايرجات له مـجالات مـتـخصـصة، فـالمنجم في نيويورك يرصـد القمر، وهو يعـلم ان افواجاً من الأمـريكان مثله يمشون فوق سطحه.

الببغائية في الشعر!..

جلسنا نشرب بعض العصير البارد في شرفة منزلي، أنا وصديقنا الشيخ عبدالسلام وابنه بيومي، الذي اصبح شاباً يافعاً، فيه ما شاء الله من الذكاء والصحة والحيوية ما يذكرني بما كنت اتمتع به منذ أكثر من خمسين عاماً. وفاجأني بيومي بسؤال: الشعر الذي اسمعه للناس الآن، أهو من البقايا القديمة من شعرك؟ قلنا معاذ الله! فشعري القديم - أو مابقي في ذكراتي منه - لا يمس أوتار قلبي الآن، واستعيده وكأنه من كلام شاعر آخر.. لا أعرفه. والسبب في ذلك متعدد الجوانب. فاللغة كانت ببغائية، تكوَّن قاموسي فيها مما حفظته من أشعار السابقين، وكذلك الأوزان والقوافي والرموز والصور الفنية. وفي هذه المسيرة الطويلة قرأت - في اللغات الأصلية - الشعر الانجليزي والفرنسي، وأشعار

✿ جريدة الرياض ٥/ ١٢/ ١٤١٥هـ - ٤/ ٥/ ١٩٩٥م - العدد ٩٨١٠

البابليين القدماء، وملاحم الكنعانيين، فاستحالت عليّ الببغائية، وحل محلها جمع من الطيور الصياحة فيه البلابل والحمائم والبوم والغربان والدجاج والطواويس (وصوت الطاووس من أقبح اصوات الطير).

وبعد هذه التجارب المريرة التي استغرقت عشرات السنين كنت فيها قد نسيت الشعر، كما نسيت الحب ايضاً، لهول ما ذقت منه، عاودني شوق قديم إلى الشعر، لكن وجدت نفسي في أعماق الضياع! ليس لي امام اقتدي به، وضوضاء هذه العصافير المتجاوبة في رأسي تتركني مدهوشاً عاجزاً عن التركيز.

واقرأ لغيري فأقع مرة على بلبل يملأني طرباً وابتساماً، ومراراً على غربان يشبعونني قنوطاً ومللا، وأحياناً على طاووس منتفخ منتفش معجب بألوان ذنبه المفروش، وكأنه يستر به قبح صياحه المزعج، لا ينجدني منه غير قأقاة الفراريج، وصراخ الغرانيق ورفيف الخفافيش. واشعر بوضوح انني ضائع تماماً، كالسفينة التي تقطعت حبالها، فلا تجد إلى مرساها سبيلا، وذات مرة - يا بيومي يا أبن أخي - احسست ببصيص من لحن يموج في قلبي، فصحتك؛ يا فرج الله! وتناولت القلم، وكتبت، ولم يعجبني ما كتبت، وبدا لي في هذا المجمع من الطيور وكأنه نعامة ضخمة تأكل الحصى والمسامير ،ولاتغرد لأنها عندما ترتاع تدفن رأسها في الرمل فلا تبصر ولا تسمع ولا تستغيث! ورضيت من الغنيمة بالاياب، وعدت يائساً إلى قراءة «ببغائيات» الآخرين. وكنت

أحياناً اقـرأ أخبار المجانين ـ اتلمس عندهم مـا يجلو صدأ قلبي. فوجدت أشعرهم جميعاً هم الذين عرفوا الحب، واصطلوا بناره. فقاطعني بيومي قائلا: لهذا السبب جاءت اختياراتك التي تسطرها في الكشكول من شعر الغزل؟ فهـزت رأسي بصمت موافقاً على ما قال واذا به ينظر إليَّ بارتياب، ويقول: ليس هذا فقط يا عمي، فالسطور التي تكتبها من شعرك أنت كلها ايضاً في الغرام. فصاح به الشيخ عبدالسلام: اما تسـتحي على وجهك يا ولد؟ فضحكت وقلت: اتركه يا مولانـا، فهو يريد ان يعرف، وسؤاله جـيد، قال بيومي: أنا مـا أكملت سـؤالي بعد، وتكملتـه، اما تزال تقع في الحب إلى الآن؟ فـقال الشـيخ باسـتنكار: انتظر يا بيـومي إلى ان نصبح في سن عمك حتى تجرب بنفـسك! قلت مشاغباً: او انتظر حتى ترى اباك من كبار العشاق، وكـان الشيخ يتمتم: سلام قولا من رب رحيم! وهنا طرق الباب، واذا بثـلاثة من الشباب يسألون عن بيومي فدخلوا وهم منكمشـون، وتولى بيومي تقديمهم قائلا: عفواً يا عـمي، هؤلاء اصدقائي وزملائي في الدراسة وسـمعوني اقول انني سأكـون أنا وابي عندك، فانتهزوا الفـرصة وسألوني اذا كانوا يسـتطيعـون اللحاق بنا حـتى يزوروك، بعد ان عـرفوك في مقالات الكشكول. فنقر الشيخ عبدالسلام على المنضدة وقال وهو يهز رأسه: كان عليك ان تستأذن لهم اولا بالهاتف. فرد أحدهم: اننا حرصنا على المفاجأة حتى نراه عـلى الطبيعة. فنظر الشيخ إليّ بأسف وقال: خذ يا سيدي! خافوا اذا اخبروك بالحضور ان تذهب إلى الحـلاق، او ان تغيـر ثيابك بألوان جـذابة كمـا تفعل نجـوم

السينمـا في امريكا، قال أحـدهم، لا ياعمي، وعـفواً! كنا نريد فقط ان يستقبلنا بدون كلفة لأننا نشعـر من كتابته انه صار صديقاً لنا. قلت وأنا في قـمة السعـادة: هذا أحسن ما يأمـله كاتب من قرائه، لكـن ما سر هذه الصـداقة؟ قـال بيومي: البسـاطة، هناك أدباء اذا كـتب أحدهم سطراً يحـس وأنت لا تراه، انه ينظر اليك شزراً ويقول: احفظ عني هذا في رأسك الاجوف. واذا لم تفهمه اليـوم فسـيأتي يوم تفـهم فـيه، وتدرك ان هذا القلم كـان في يد عبقـري! فضحكت وقلت: اكتـبوا هذا في الخفافـيش او الغربان وهؤلاء الاصدقـاء هم: ناصر وحذيفة وطيـفور. أجبت بابتسـامة ترحيب تشرفنا. وقال الشيخ بيومي لابنه: قم انت وأعمل لنا شيئاً من الشاي في المطبخ. فقام وقام معـه الفرسان الثلاثة، اما الشيخ عبـدالسلام فـقال: ارجو ألا يكونوا قـد ازعجـوك. أجبت: انت تعرفني جيداً يا شيخ، وتعـرف ان المناقشة مع الشباب صارت لي متعة وعـادة، بعد تدريسي في الجامعات نحواً من خـمسين عاماً. والبهاء زهير يمجد الشباب في قـصيدة في هجاء امرأة عجوز يقول فيها:

مـا أنت ممـن يرتجـى لا للخطوب ولا الخطاب

ما العيش إلا في الشباب وفي مصاحـبة الـشباب

قال الشـيخ: اتذكر ان لك قـصيدة هجـاء في احدى العـجائز ايضاً. وهجم الفتيان ومعهم الشاي ليسمعوا:

لـو انــهـــــــا لّـمـــــــــا تـزل

في مـــيـــعـــة الـعـــمـــر النضـــيـــر

من قبل ذاك بأربعين ولست أدخل في الكسور

لطلبـتـهـا للأنس والصـهـبـاء بالكيل الكبـيـر

ولـــــرحـــــت أخـــــطـــــب ودهـــــا

بـالشـــــعـــــره في لـين الحـــــريـر

وسأل طيفـور: أهذا شعرك؟ قلت: نعم! قال: مـختلف جداً عن مقتطفاتك التي نختارها من سيرة البهلول. ليتك تسمعنا بعضاً منها، فاقتحم حذيفة قائلا: في الحب، فقال بيومي: طبعاً:

أي طـيـــف فـي دجـى الـلـيـــل ألـم

يـتـــــهـــــادى فـــوق مـــوج من ألـمّ

وسـنـاه فـــــوق جـــــفـنـي هـبـط

نـائـمـــــــــاً كـنـت تـرى ام لـم أنم

لـم تقـل لي هـي.. والأمـــــر اخـــــتلط

قـوض الهـمـس على اليـأس حـصـونا

في فـــؤادي.. وســدوداً.. وســـجـــوناً

وتـرامى نـغـــــمـــــاً عـــــذباً حنونـاً

يملأ الســـــمع نـداءً.. مـن قــــريـب

يا حـــبـــيـــبي!.. يـا حـــبـــيـــبي!

قلـت: يا ســـاحـــرة الليل! أعـــيـــدي
وابـعـــــثـــــيـــني مـن جـــــديـد
ليـــتني مـــا حـــدتُ عن نهج الـهـــوى!
ولـداء الـــنـاس لـو اطـلـب دمـــــــــا
كـنت مـــــجـنونـاً.. أطـيع مـن عـــــوى
كـنت نجـــمـــــاً.. لكـن النـجم هـوى!
قـــالـت الطـاهرة الحـلوة صـــبـــراً!
واحـــتـمل كـأسـك مـهـمـا كـان مـراً
فـــعـــســى الأيـام تحـــدث امـــراً
ثـم راحت بـين طـيـب وشـــمـــوع
وتـنبـــهـت وفـي عـــيـني دمـــوع

قال الشيخ عبدالسلام: عسى ان يكونوا قد فهموا، فقال بيومي هذا واضح في الفكرة واللغة والموسيقى، وليس كما عودنا شعراء الحداثة: نشـاز في ألغاز! ثم عاد بيومي يسـألني: أمازلت تقع في الحب، وصاح به الشيخ: اخرس يا قـليل الأدب! قلت: دعه فهو حر في السؤال، وكن ديمقراطيـاً، حتى يصدق اولادك امامك ولا يكتموا عنك شيئاً. والسـؤال وجيه: أما زلت واقعا في الحب إلى الآن؟ نعم يا بيومي، واتدهور على خشمي قال ناصر: هل يمكن ان نسمع آخر ما قلت، فانشدتهم وأنا اتصبب عرقاً:

سـألتـني: أترى الحب حـقـيـقـة أم خـيـال

واتى الـرد.. على ألف طـريقـة للسـؤال

بعـضـه فلسـفـة حيـرى غـريقـة في المحـال

أو صـدى وهم.. بأدغـال سحـيـقـة وجبـال

او أسـاطـيـر صـراع في الخـليـفـة ونـضـال

أشـعلت نيـرانه انني رقـيـقـة للرجـال

فـإذا بالـكل يسـتـعـدي رفـيـقـه للقـتـال

ظلمـوها ـ وهي حـرة طليـقـة ـ باحـتـيـال!

سـألـتني والجـوى شب حـريقـه واسـتطال

أين مني العـدل يسـقـيني رحـيقـه واسـتطال

وجـوابي حـائـر... يبلغ ريقـه لـلجـدال

آه لو سـمعت في صـدري شهيـقه في الليـال

حين حن القـلب مني بالسـليـقـة ثم قـال:

انت حق! انـت بالحب خلـيـقـه والجـلال

انت ناري... انت جـنتي الوديعـة والظلال

يا حنيـا قلبي.. اذا شق طريقـه في الضـلال

أنت للنـور وللطهـر شـقـيـقـه والجـمـال

أنت السنا/ أنت الهـنا/ أنت المنى/ أنت أنا..

قال طيفور: وهل كانت تحبك ايضاً؟ أجبت: كنت كلما سألتها هذا السؤال اجابتني: أكثر! أكثر!

شريعة الحب.. وشريعة الغاب!!

في اخبار العالم المعاصر «المتحضر» نبأ عن نسف مبنى كبير تابع للأمن العام في «اوكلاهوما» بالولايات المتحدة الامريكية، راح ضحيته مئات لا يعملها الا الله حتى الآن، ومعظمهم امريكان، موظفون، من ابناء الطبقة الوسطى، تركوا وراءهم آلافا من اليتامى والأرامل، وأحزانا ساحقة للأقارب والأصدقاء، وفي تلك الفترة نفسها - وفي ميدان آخر للموت - انطلق غاز من غازات الابادة الجماعية في انفاق المترو في «طوكيو» اسفر عن مئات من القتلى، وآلاف من المصابين وجاء الخبر بعد ذلك ان انفاق المتو في «يوكوهاما» الجارة اليابانية الصناعية والبحرية لمدينة «طوكيو» العاصمة قد عثرت فيها الشرطة - في محطة رئيسية للمترو - على أكداس من المواد السامة التي كانت تنتظر الاصابع

✿ جريدة الرياض ١٩/ ١٢/ ١٤١٥هـ ـ١٨/ ٥/ ١٩٩٥م - العدد ٩٨٢٤

الشيطانية حتى تتصل وتتفاعل بعضها مع بعض لتقتل آلاف اخرى من ابناء الطبقة العاملة التي تكد طول اليوم وكل يوم، لمجرد الحصول على ما يقيم أودها هي وذويها، وجاء تقرير من وسط افريقيا ان ضحايا المذابح العنصرية بين قبائل التوتسي والهوتو، قد بقيت في المستنقعات المحيطة بمنابع النيل الاستوائية حتى تعفنت، وولغت فيها الوحوش والتماسيح، وتفجر من هذا الخليط من الجيف خليط خطير من جراثيم الأمراض الوبائية يهدد من بقي على قيد الحياة بعد تلك المجازر البشرية، مهما كان بعيدا عن بؤرة العفونة.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تنوعت الأسباب.. والموت واحد!

واعلنت تركيا في نفس الوقت ان المهمة العسكرية الموجهة ضد الأكراد في شمال العراق قد اتمت مهمتها على أكمل وجه، من قتل وأسر وتخريب، وتلا هذا نداء يناقض هذا الزعم، اذ يناشد أمم العالم المعونة لحل المسألة الكردية! مما يعني ان القوة العسكرية التركية بدباباتها وطائراتها وعشرات الآلاف من خيرة جنودها ـ وهم شجعان ومغاوير حقا ـ قد تركت «المسألة الكردية» كما كانت، بل ربما زادت صعوبة وتعقيدا، ويكاد مبعوث الأمم المتحدة المؤيد بحكمة الفلاسفة، وصبر الصابرين «ياسوشي اكاشي» ينسي ابتسامته التي لا تتغير، وهو ينظر الى ميادين القتل والدمار والرعب التي تقعقع منها مدافع الوحشية الصربية، لتحصد

المسلمين في «سرايـيفـو» و«غـوراشـدا» أو «الكروات» على مـشـارف «بلغـراد» ويعلن الروسي يلتـسين انتـهـاء الحـرب في «الشيشان» والأمر بايقاف النيران والعمليات العسكرية، بعد سقوط العاصمة «غروزني» في يده، واتمام احـتلال البلاد، واقرار السلام فيها وفجأة يندلع لهيب القتال بين الروس والشيشان في نفس تلك العاصمة، ويواجه هذا العبقري الـروسي جبهة قتال جديدة تكشر له عن انيـابها بين افـغانسـتان وطاجـيكستـان، ومن جديد يـقام مهـرجان آخر للموت والتـخريب والتدمـير، هذا غير الوجـبات الاعلامية اليومية «المزمنة» حول الشريط الأمني الذي تحتله اسرائيل في جنوب لبنان، ومـا يسـوده من مظاهر (الحـيوية) في التـراشق بالصواريخ وتحليق الطائرات الـصهيونيـة في رحلاتها الرومانسـية فوق الـنبطية وصـور واقليم التفـاح غيـر القرارات الاسـتفـزازية بالاستيلاء على اراض في القدس الشريف مـا يزال ملاكها يقيمون فيـها ـ وغيـر اغلاق الحدود بين اسـرائيل ومناطق الحكم الذاتي، وغـير نشـر عسكر الصـهوينة فـي جمـيع مناطق الحكم الذاتي، والتفنن والابداع في ابتكار العراقيل للسخـرية من «مسيرة السلام» مع سـوريا حول عـرض مناطق الرقـابة الدولية ونزع لسـلاح بين البلدين، ومع مصر حـول توقف هذه الاخيرة عن تجديد توقيـعها على معـاهدة تحريم اسلحة الدمار الشـامل، طالما ترفض اسرائيل ذلك، مع انها تمـلك بعض الأسلحة الذرية. . وربنا يسـتر، ومع ياسر عرفات لانهـا بين الفينة والفينة تتسلى بفرقـعة بريئة او اثنتين في اريحا او غزة او نابلس او القدس، ثم تصرخ امام امم العالم

ان قائد المسيرة الفلسطينية يبدو عاجزا عن اقرار الأمن في حوزته، فانصفونا ياعالم! واتناسى هنا المسابقات اليومية بين الأصوليين الاسلاميين في الجزائر وقوات الأمن وأنواع مختلفة من التعبير عن التذمر وعدم الاستلطاف بين الجماعات الاسلامية المصرية والشرطة في الصعيد..

فأنا عندما أقول «شريعة الغاب» اعني ما اقول، والا فأي مبرر لتلك المواجهات الخامية الدامية في جميع انحاء العالم تقريبا، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين بعد ان تركنا بصماتنا على هذاالقرن العشرين الذي يسير نحو نهايته المحتومة ـ اطال الله عمركم ـ يحمل معه الكثير من بصماتنا الحسنة والسيئة: حربان عالميتان، هيئة أمم نسأل الله ان تكون متحدة، برامج طبية حاسمة وضع العقل البشري في خدمة العقل الالكتروني ـ او العكس ـ الانتقال من الثقافة المقروءة الى المسموعة، واصابة البشر بحالات حادة من التعويق الثقافي والعجز الفكري، ارتفاع مستوى المعيشة لا سيما في الدخان والخمور والمخدرات، برامج غزو الفضاء واستخدام الاقمار الصناعية في الاتصال بجميع جهات العالم، التوصل الى انتاج الطاقة من الذرة، وما يمثله ذلك من تسهيلات في السلم، واهوال في الحرب، التوسع في اكتشاف خصائص الاشعاعات بأنواعها واستعمالها في بناء الحضارات.. وتدميرها ايضا!

وكل ما نعيشه من صراعات عرقية، او دينية، او مذهبية، او

اقتـصادية، مـع هذه الحصـيلة من التقـدم التقني، العلمي جـعل المعادلة له من الافكار الأخـلاقية والفلسفيـة والاجتماعـية والفنية يهيط.. ويهبط.. بحيث يقل فيـه الجديد، ويندر المفيد، اذا كان المثل اللاتيني عند الـرومان منذ ألفي سنـة يؤكد ان الانسـان ذئب ضار للانسـان» واذا كان الشاعر العـربي يذهب الى ابعد من ذلك منذ ألف سنة، فيقول:

عـوى الذئب فـاستـأنـست بالذئب اذ عـوى

وصـــــوت انســـــان.. فـكدت أطـيـــــر

فإن جنوح الانسان الى العدوان على بني جنسه، وتحكيم الأثرة والأنانية وحب التسلط جـعل الأديان والشرائع تحد من هذا النزوع الى الشر وتكسر من جموحه ولكن يبـدو ان الضمير البشري تعود على الشر، فمثـلا منذ خمسين عاما كان هتلر قـبلها يسيطر على كل كبيـرة وصغيرة في مقدرات دولة عـظيمة راقية متـحضرة هي ألمانيا، وحسب مـبادىء بالية ورثها من أفـاقين آخرين، قسم ابناء آدم الى فصائل، مثل الماعـز أو البقر أو الغنم أو الكلاب، ورتبهم بحسب مواهبـهم الواعدة المشاركة في الحضارة، وكـان في ترتيبه للخليقة عامـيا سوقيا، منقوعا في احقـاد دينية وعنصرية ولونية، وثارات تاريخيـة، تفوق فـيها على الوحـوش، فالحـوش اذا شبع وامن لم يقـرب حيوانا آخـر بسوء، علـى حين كان صاحـبنا هذا يضع في قمة الرقي والعـبقرية الخلاقة الجنس الجـرماني، ثم يأخذ في الهـبوط نحـو الحضـيض فيـصل الى أجناس لا يبـتسم لهـا

كالمصريين والعرب والافارقة، ويضع اليهود في الدرك الاسفل من هذا السلم الجهنمي، وكـان يرى ان ابادة العناصر غير الـصالحة ـ في نظره هو ـ هي الحل الأمثل، وبدت له الحاجـة ماسة الى ابادة اليهود فـحشد لذلك كل طاقاته، وما كـاد يحتل اوروبا حتى راح يملأ معسـكرات الموت بأولئك اليهود وكانت اسـرة يهودية بولندية قد هاجرت الى فرنسا، هي اسرة «لوستيجر» واحتلت المانيا فرنسا وانطلق رجال المبـاحث الهتلرية يجمـعون اللاجئين اليـهود الذين كانوا في فرنسا ويرسلونهم الى معسكرات «اوشفيتز» او «دخاو» او «تريبلنكا» او غيرها، واحست اسرة «لوستيجر» بانهم قد حضروا للقبض عليهم فأسرعوا بارسال ابنهم الصغير «هارون» الى اصدقاء مسيحيين جيران لهم، واخذتهم المباحث الى اوشفيتز، حيث ماتوا جميعا ولم ينج الا هارون. فأرسلتـه الاسرة الى مدرسة كايوليكية يديرها الرهان حـتى يكـون بمأمن من القـبض عليـه، وادخل في الدين المسيحي باسم «جان ماري لوستـيجيه» الذي تبحر في الدين واصبح راهبـا، ومازال يرقى في سلك الرهبـان الى ان وصل الى درجة اسقف، ثم كردينال وتم تعيينه رئيسا لاساقفة باريس، وهو المنصب الذي يشغله حـاليا، وفي ايامنا هذه تحتفل اسـرائيل بنهاية الهتلرية. وبذكـرى ضحايا العـنصرية النازية من اليهـود، وجاءت دعوة الى الكردينال لوستـيجيه من اسرائيل لحضـور هذه المناسبة، وما ان وصل الى هناك حتى قام الحاخـام الأكبر لاسرائيل بارسال احـتجـاج رسمي الى الحكومـة الاسرائيـلية، يطالب فـيه بابعـاد الكردينال فـورا، لانه كان يهـوديا وارتد! وتجـاهلت الدولة هذا

الاحتجاج، وذهب رجال الاعلام الصهيوني الى الكردينال يسألونه فأجابهم بأنه عندما سقطت فرنسا تحت الحكم النازي لم يكن قد بلغ سن التكليف، ثم نشأ في المعهد الديني الكاثوليكي نشأة طبيعية وهو يعلم اصله اليهودي لكن، والسؤال منه هو، هل تكون ذكرى هلاك أمي وأبي وكل اسرتي على يد النازيين الألمان (ارخص) من مقام الحاخام الأكبر لاسرائيل، والشريعة المسيحية شريعة الاهية ايضا، وحبي لأمي وابي وأهلي من واجبات الدين في المسيحية واليهودية وخاصة المسيحية لأنها شريعة الحب! واقتنع السائلون الا الحاخام الأكبر الاسرائيلي «لاو».

والمسألة لا تعنيني الا بقدر قيمتها الأخلاقية، فالمسيح كان من بني اسرائيل وأمه كذلك، وان كان اليهود قد اتهموها بولادته من الزنا فكيف يأمن الفلسطينيون ـ مسيحيين ومسلمين ـ تعصبا دينيا يرى ان الناس جميعا كفار، حتى اليهودى، اذا لم يكن صهيونيا فالحاخام الأكبر «لاو» رأس فتنة، وداعية تعصب وحقد وتخلف، يستحق عليه ان يذهب الى الشيطان مع لعنة الله!

وتذكرت فجأة وصلة من سيرة البهلول المجنون جاء فيها: بعد الصلاة، استقبل الحلم دارة/ وفكره في حيرة، ينثف نار/ للأرض تارة. وللسماء تارة/ جعلوا الدين في الأرض صراع/ والله لا يرضى النزاع / وفي السماء هو الاخاء والله يهدي من يشاء والحب ـ في الأرض ـ له عرس وراية/ وحكمه ظلم، وجهل وغواية/ وفي السماء فيه طهر وهداية/ كأنما انواره واعجاز آية/ يعطيك فيض رحمة.. بلا نهاية..

ومن أرق ما قرأت من الشعر القديم عاشق يدعو على حبيبته، ثم يقول.. ببراءة المتيمين:

ياذا الذي كل يــــوم يزيــد قلبـــي خبــالا

ولهلتني فيك حتـــى قد عاد رشـــدي ضلالا

ادعو عليك.. وقلبي يقول: يــارب! لا!!الا!

وكل عام وأنتم وصديقنا العزيز الشيخ عبدالسلام بخير

اللسان.. والأدب.. واللهب!

جاءني صديقنا الشيخ عبدالسلام في عطلة عيد الأضحى بصحبة زميله الشيخ عبدالقوي، فوجدا عندي من الأصدقاء الدكتور مراد وحوله أبوغازي، الفلسطيني، وأبو بشَّار، السوري، والبدوي اللطيف أبو نغيمش، وكان الطقس حاراً كثير الغبار، فآثرنا البقاء في البيت حول أكواب من المرطبات، وفناجين من القهوة، وكؤوس من الشاي، وصينية من الحلوى والمكسرات، نتبادل أطراف الحديث.

واتجه إليَّ أبونغيمش بسؤال لم يكن في الحسبان، قال: هل درست ـ يا أستاذ ـ السبب في أن ابن آدم يتكلم وبقية الحيوانات بكماء عجماء، مع أن ألسنة الكثير منها (أطول) من ألسنتنا، وحركاتها أكثر مرونة ونشاطاً، وبعضها ـ سبحان الله ـ يفهم كل

✽ جريدة الرياض ٢٦/١٢/١٤١٥هـ ـ ٢٥/٥/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٣١

شيء! القط والكلب والتيس والبعير، وحتى الحمام واليمام والدجاج.. لها صوت ولسان، ولا تتكلم إلا في معجزة تتم بأمر الله تعالى، كما كان سيدنا سليمان بن داود يخاطب الطير والحشرات والجن.. وغيرها.. لماذا؟.. وتطوع الدكتور مراد بالإجابة بأن اللسان وحده لا يملك هذه القدرة ـ حتى في الإنسان ـ إلا إذا كانت وراءه في المخ مناطق أو (مراكز) للتحليل والتخزين والتصنيف والاتصال والاستقبال والارسال. وهذه المراكز كثير منها غير موجود في مخ الحيوان وكما تقول، بعض الحيوانات يفهم، ويتذكر، ويميز، ولكن مراكز النطق لم يودعها خالقه في رأسه، بل إن الانسان نفسه يظل عامين تقريباً منذ ولادته غير قادر على الكلام لأن هذه المراكز في مخه لم تستكمل نموها بعد، ثم إذا ولد الطفل مصاباً بالصمم فإنه لا يتكلم لأن جهاز الاستقبال الصوتي عنده غير موجود. وقاطعه الشيخ عبدالقوي بقوله: وفي مقابل نعمة النطق أصبح الانسان محاسباً ومسؤولاً عن أعماله وأفكاره بعكس الحيوانات. واشترك الشيخ عبدالسلام في الحوار فقصّ علينا نكتة من التراث.

قال الراوي: كان المؤذن في البصرة يدعو إلى صلاة العصر، والقاضي يسير نحو المسجد، فرأى واحداً من المجانين جالساً على قارعة الطريق، غير مهتم بالأذان، فسأله القاضي لماذا لا تدخل للصلاة مع الناس؟ فأجاب: لأنهم بقر! فصاح: اتق الله، ولا تطل لسانك على خلقه. فسار بجانب القاضي قائلاً: سأثبت لك أنهم بقر، وأنهم أطول مني لساناً. ووقف مع القاضي في وسط

المسجد وقال بصوت مسموع: حدثني الثقة عن جمع من العدول انه جاء في الأثر: من لمس طرف لسانه أرنبه أنفه دخل الجنة! فلم يبق واحد في المسجد إلا أخرج لسانه يحاول الوصول به إلى أرنبة أنفه، والمجنون يشير إليهم ضاحكاً ويقول للقاضي: ألم أقل لك أنهم بقر؟ قال أبوغازي: أظن اننا عندما نتكلم عن طول اللسان لا يكون معناه الطول بالمقاييس، بل الوقاحة والبذاءة وقلة الأدب. فالحكومة الصهيونية المستولية على فلسطين، ببرلمانها واذاعتها وتلفزيونها وصحافتها لا تكف عن الكذب والجدل، وعن الوعود المعسولة حيناً، والتهديد والوعيد أحياناً، ولكن كل هذا ينكشف في النهاية عن جعجعة فارغة للتهويش.. وعلقت أنا قائلاً: إن تجارب آلاف السنين علمت اليهود أن ما يأخذونه بالقوة ينتزعه منهم المجني عليه بالقوة أيضاً، أما ما يؤخذ بالحيلة فإن جريمة الاغتصاب فيه تكون غير واضحة، ويمكن أن يبقى في أيديهم مدة أطول وبجهد أقل، لكن الحيلة تحتاج إلى تعمية بكلام طويل لا يكاد ينتهي، وهم في ذلك من الأبطال. وهم من أوسع الناس خبرة في تسخير اللسان للخداع، وكذلك كثر تحذيرهم من مخاطره في كتبهم الدينية. فمثلاً، جاء في (أمثال سليمان): الجواب اللين يرد الحق، والكلام المؤلم يثير الغضب. ألسنة الحكماء وتجود بالعلم، وأفواه الجهال تفيض بالسفه. عينا الرب في كل مكان، ترقبان الأشرار والأخيار، صلاح اللسان شجرة حياة، وفساده انتكاسة للروح ـ ١٥ : ٤ـ ـ وقد جرى الذوق البياني في حديث اليهود عن الله أن يشبهوا لسانه بلهيب النار، فالنبي اشعيا

يقول مثلاً: ها هو ذا اسم الرب آت من بعيد: غضبه مضطرم، والحريق شديد، وشفتاه ممتلئتان سخطاً، ولسانه كنار تستعر. وروحه كسيل جارف يصل إلى الأعناق ـ إشعياء ٣٠:٢٧...

وفي سفر آخر من التراث الديني اليهوي يسمونه (حكمة يشوع بين سيراخ) تناول فيه خطر اللسان، وأشعر القارىء بأن الداخل بين اثنين لإفساد ذات بينهما ـ ويسميه «اللسان الثالث» ـ هو مكمن الخطر، يقول: اجتنب النزاع فتقلل الخطايا، فإن الانسان الغضوب يضرم النزاع، والرجل الواشي يفرّق الأصدقاء، ويبذر الشقاق بين المسالمين، بحسب الحطب تشتعل النار، وبحسب قوة الانسان يكون غضبه، وبحسب غناه تهيج سميته، وكلما اشتدت الخصومة استشاط غيظاً. العجلة في الخصام تضرم النار، والسرعة في النزاع قد تؤدي إلى سفك الدم. إذا نفخت في شرارة تأججت، وإذا تفلت عليها انطفأت، وكلاهما من فمك! (٢٨: ١٠ ـ ١٤) ثم يختم ذلك بقوله: ما أكثر من هلكوا بحد السيف، ولكن قتلى اللسان أكثر! وفي مسرحية (الملك جون) لشكسبير يقول: لو كان لساني في حنجرة الرعد لاستطعتُ في ثورتي أن أرج العالم! وعلّق الصديق السوري أبوبشار قائلاً: كنت في حلب، سيدي، وسمعت صياح اثنين من الحمالين يتشاجران، وقال أحدهما بصوت كهزيم الرعد: اهرب بجلدك من قدّامي، وإلا.. اقتلك.. اذبحك.. أقوسك (أي ارميك بالرصاص).. أقطع خبرك.. اعتبر الله ما خلقك!.

ثم رأى ذلك البطل الصنديد الشرطي يشير إليه قائلاً: امش ياولد! فخفض من صوته وطأطأ رأسه وبدأ يتقهقهر بانتظام قائلاً: أي سيدي.. نسينا.. تكرم عينك! واختفى.. فضحك الشيخ عبدالسلام قائلاً: رأس الفهم مخافة الشرطة!.. أما أبونغيمش فقال: مخافة الله ياشيخ.

حكي لي ابني نغيمش أن الشيخ في المسجد كان يقرأ في كتاب معه أخبار (أشعب الطماع) فذكر زوجته «أم وردان» وأمه «أم الخلندج» وقال يظهر والله أعلم، أن الجشع كان متأصلاً في هذه الأسرة لدرجة أن أم الخلندج كانت تخدم في بيت رسول الله ﷺ، وكانت تمشي بالنميمة بين أمهات المؤمنين فتثير بينهن الشر، فدعا عليها النبي فماتت! وقال الشيخ عبدالقوي: ما أجمل اللسان الحلو.. لكن بشرط أن يكون صادقاً، لا لسان الحسان المعسول الذي يغري في قلب الحبيب، فيظن أن حلمه في حب عظيم قد تحقق، ولكن.. البقية معروفة، لأنها تتكرر من أقدم العصور. يقول الشاعر:

وأدنيتني، حتى إذا ما سبيتني
بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عني.. حيث لا لي حيلة
وخلفت ما خلّفت بين الجوانح

قال الدكتور مراد: لولا هذه الألسنة المعسولة.. مهما كانت

كاذبة ـ لا نتفى الغزل والغناء وحل محلهما الشغب والهجاء.
ورأيت الشيخ عبدالسلام ينظر إليّ بامعان ويقول: حتى أنت..
لك في هذا شعر! فأجبت: اشعار، بعدد التجارب الخائبة..
قال: ذاكرتي لا تحتفظ إلا بواحدة أنشدتها منذ خمسة عشر
عاماً.. اسمعنا! فقلت:

ياويح من عبث الخيال به، فعاش عليه دهرا

ثم استفاق، وحوله آماله ينحرن نحرا

فبكى، لعل دموعه تجديه في الباساء صبرا

فإذا البكاء يذيبه ويزيد تلك النار جمرا

وسألني أبوغازي: هل رأيتها بعد ذلك؟ فأجبته بأنها كانت تمت إلينا بقرابة، فرأيتها يوم وفاة شقيقتي ـ رحمها الله ـ قد جاءت للعزاء يتبعها ثلاثة من الصبية الصغار، وقد حال لونها، وانطفأ جمالها، وخبا وميض عينيها، وهي تعزيني في أختي قائلة: هاذي حال الدنيا.. أنا أيضا فقدت زوجي، وبقي هؤلاء الأيتام الثلاثة في عنقي، ولم أقل شيئاً، وتعبيراً أشبه شيء بقول الشريف الرضى:

كم دمـــــعـــــة مـــــوّهتـــــهـــــا بـأنامـلي

وســـــتـــــرتهـــــا، مـــــتـــــجـــــمـــــلا، بـــردائي

وهنا تدخّل أبو بشار قـائلاً: العجيب يا اخـوان ان ربنا تعالى ملأ الدنـيا بالحب، لكن إبليس لعنة الله عـليه راح يضيـق ما في العـالم من هذا الحب حتى كـاد يصبح حكمـاً جبـاراً بين الرجل والنسـاء فقط وصار الذيـن ماتوا من شـدة الغرام هم الوحـيدين الموصوفين بأنهم (شهداء الغرام): قـيس وليلى. روميو وجوليت، انطونيو وكليوباترا.. إلى آخر هذه المنظومة. لماذا؟ أجاب الدكتور مراد بهدوء: لأن عمران العالم لا يقوم إلا على ميل غريزي يستقر بين الجنسين، وهنا تصـاب عاطفـة الحب النبيلة العظيـمة بتـحول خطير، إذ تشـوبها الشهـوة الجسدية الجامـحة، فتـختنق بين اللذة والألم، وتفسد أحكام الناس على الحب، وتدخله الأنانية والغيرة والحرص على السيطرة، والانسان في ذلك ضعيف هزيل..

قال الشيخ عبدالقـوي: والرجل طال عمرك، أضعف من المرأة في هذا المضـمـار، يفقـد توازنه من كلمـة بصـوت ناعم، ومن ابتسامة، ومن نظرة، وينقاد كـالكبش من اشارة أو حركة، وبشار بن برد يصف ليلتـه التي تزداد نكـراً، من حب من أحب بكرا.. ويقول:

تـســـــــقــــــــيك إن نـظـرتْ إلـيـك

بـغـــــمـــــزة العـــــينـين خـــــمـــــرا

وكـــــان تحت لســــــانهــــــا

هــاروت ينـفث فـــيــــه ســــحــــرا

فقلت بهم: حــتى سليمان بن داود عليه السـلام، بعد أن ذكر قومه انه تزوج ســبعمائة أميرة من أجــمل بنات الملوك، وأكملهن ألفاً بثلثمائة سرية من أحلى الجــواري يقول في سفر (الأمثال): لا تلتفت إلى اغراء المرأة، لأن شفتي الأجنبيــة تقطران شهداً، وفمها أنعم من الزيت، لكن عاقــبتها مــرة كالعلقم، قاطعة كـسيف ذي حــدين، قــدمــاها تقــودان إلى الموت، وخطواتهــا تهــوي نحــو الجحيم!(٥: ٢ ـ ٥). . ومع ذلك فعمــران العالـم وما فيه من فن وأدب يدين لها!.

سلاماً أيتها القطط!..

الطرق السريعة في كثير من بلاد العالم تمثل الآن مخابىء يكمن فيها الموت للقطط، تلك الحيوانات الصغيرة الأليفة الذكية الصديقة للبشر. ويكثر فيها القتل ليلاً، حيث تعشى عيونها انوار السيارات وهي تعبر الطريق، فتجمد في مكانها إلى ان تدوسها عجلات السيارات. ولا فرق في هذا بين الرياض ونيويورك وباريس وأوروبا وطنجة. فالمسألة هنا ليست مسألة حضارة أو اخلاق، بقدر ما هي قدر يجري مع الآلة، ولا يستطيع الحذر - غالباً - ان يتجنبه خصوصاً في البلاد التي تعيش فيها هذه المخلوقات اللطيفة في حرية تامة، غير مغلولة الاعناق بطوق يحدد اسم صاحبها، ومحل اقامتها وذوات الاطواق تموت ايضاً كالابطال، ويأتي بعد مغادرتها دنيا الاضواء والزفت والاسفلت

✿ جريدة الرياض ٣/١/١٤١٦هـ-١/٦/١٩٩٥م - العدد ٩٨٣٨

والحديد والمطاط، تحقيق إما لتغريم صاحبـها لمعاقبته على تعريضها لهذا الموت الـناجز لعاجل، وامـا لمعاقـبة السائق الارعـن على ما جنت عجلاته ومصابيحـه ومزاميره ـ هذا إن وجدوه! ولأن القطط ليست لها نقـابة للدفاع عنها، وليست بمعـدودة في السجل المدني للمواطنين والوافدين، فإنها تموت مجاناً، أو تحبس ولا تخرج من الدر.

فكرت في كل هذا وأنا اقـرأ في احد المجامـيع الأدبية العـربية هذه النادرة: اصطاد اعـرابي سنوراً، فسـأله احدهم: مـاذا تصنع بهذا القط؟ وسأله آخر: ما تصنع بهـذا الخيدع؟ وقال ثالث: ماذا تصنع بهـذا الخيطل؟ وآخـر: بهذا الهـر؟ واخيراً: بهـذا السنور؟ فأجاب: ابيعه بمائة درهم! فضحكوا منه وقالوا: انه لا يساوي إلا نصف درهم! فـرمـاه من يده قائلاً: لعـنه الله ما أكـثـر اسمـاءه وابخس ثمنه! وهذه الاسماء الكثيرة أكثرها من اصول اجنبية، أن القط ليس من حـيـوانات الصـحـراء. فـالقط لفظ مـعـرب من اللاتينية، والسنـور سرياني، والخيدع صـفة مأخـوذة من الخداع، لحسن تصـرفه مع الجرذان، والخيطل صـفة من الخطل وهو الخطأ والظلم، لأنه يدافع عن نفسه بصـياحه وبانيابه ومخالبـه وإما الهر فإنه تسمية بصوته في وقت الراحة والاسترخاء إذ «يهر» وكأنه يقرأ أو يسـبح، ويصفـه الاتراك مثـلاً للمنافق الذي يبدي الـصلاح، ويخفي العدوان فيقولون انه «مـثل الهر، قراءة كثيرة وديانة قليلة! وهو خطأ في حقه، فهو ألف ومـسالم دائماً، إلا إذا عومل بظلم أو قسـوة. واخطأ في حقـه الشيخ الابشيـهي عندما وصـفه بأنه

«متواضـع» لأنه بعد المخلوقات عن التواضع، يختـار في المجلس المكان الوثير المريح دون غـيره، ومن الأطعمة اشهـاها، فإذا شبع منها ترك البقـايا زهدا فيها، وهو حيوان قـوي الذاكرة جداً، يؤثر فيـه المعروف. اذكر انـني نشأت في بيت اسرتي بحي الـقلعة في القاهرة، وهـو بيت اثري قديم، فيـه حديقـة داخلية تكثـر فيـها الثعابين. واذا كثرت الثعابين في مكان ساق الله إليها الفيران رزقاً لها. وكان في الحـديقة قط فخم ضخم، يقتل الفيـران والثعابين، فاتصلـت بيني وبينه صداقـة متينـة، فكلما رأيت فـاراً يهرب إلى جحـر صحت لصـاحبي: يا أبا هريرة «تيـمناً بالصحـابي الجليل رضي الله عنه» فـيأتي مسـرعاً ـ القط لا الصحـابي وفي لحظات يعود وقد قتل الفأر، وأحياناً الفأر والثعبان كليهما! ثم سافرت من مصر إلى فلسـطين لأدرس الفكر اليهودي في جامـعة القدس وتل أبيب حيث بقيت عامين. وفوجـئت عند عودتي والأهل محيطون بي احاطة الـسوار بالمعصم بصـاحبي «ابي هريرة» قـد جاء وقـفز بجانبي وراح يمرغ رأسـه في صدري، مرحـباً فرحاً بهـذا اللقاء! ومرة أخرى كنت اعمل في جامعة بيروت واسكن في الجبل وكنت اترك بقايا الطعـام في صحن مـهمل، واضعـه جنب باب البيت، فتـأتي قطة، فتأكل مـا فيه، وذات يوم وانا جـالس في بهو الدار جاءت تحمل في فمـها قطة صيرة وضعتـها امامي، واعادت الكرة حتى صفت بين يدي اربعـاً من مواليدها. ففهمت انهـا تستجدي لهم حليباً. فأتيـت باطباق صغار خفاف وملأتهـا حليباً، فانقض عليها هذا الجيـل من مواليدها ولم يبقوا منها شـيئاً، وكانت هي

تنظر إليّ نظرة شكر صامت ابلغ من أى كلام!

وفي الرياض أقيم في بناء شاهق امامه عدد من مستودعات القمامة، يحوم حولها ويتربع فوقها بعظمة وأبهة عشرات من السنانير، نأمن بفضلها غزو الفيران والجرذان. وبيني وبينها مودة قديمة، فهي لا تهرب إذا اقتربت منها، مع انني امشى منذ سنين متوكئاً على عصا لوجع في ظهري، ولكن عصاي هذه لا تخيفها. ومنذ ايام رآني هذا الجمع من القطط، فوقف باحترام، وارتفع مواؤه في آن واحد فظننت انها تحية، وحييت بأحسن منها قائلاً: سلاماً أيتها القطط! ولكنها لم تتوقف عن المواء. وكان حارس المبنى قد حضر فقال لي بابتسامة: انها تشكو العطش، لأن المستودعات كان فيها سمك كثير، واليوم شديد الحرارة ثم اسرع بدلو من الماء فصبه في علب من النفايات الملقاة في المستودعات، وصحت التجربة وكان الماء هو المطلوب والحمدلله انها إلى الآن لم تتعود على المشروبات الغازية.

وعندما صعدت إلى مسكني تذكرت ان الجاحظ ذكر في كتابه «الحيوان» ان الواحد منا اذا انصت إلى جدال السنانير في جوف الليل، واحتجاج بعضها على بعض وتهديد بعضها لبعض، وجد في موائها مقاطع ومخارج تشبه الحروف لو توفرت لها الفكرة والإرادة لخرجت منها لغة حسنة الوضع متوسطة الحال! واغراني ذلك بمراجعة ما جاء عن القطط في «علم الباطن» وبادرت إلى كتب تفسير الاحلام فوجدتها متأرجحة مترددة في رؤيا القطط في

المنام، ويكادون يجمعون منذ «ارتميدوروس» إلى الشيخ «عبدالغني النابلسي» على ان القطة في المنام تدل على امـرأة لعوب مشاغـبة منحرفة كثيرة التدخل فيما لا يعنيها، بل قد تلد من الحرام! وروى ابن شاهين عن أبي سعيد الواعظ قـوله: الهر مختلف في تأويله، فمـنهم من قال انه خـادم حارس، ومنهم من قـال لص من أهل المنزل، ومنهم من قال: امرأة خداعة وقال الكرماني: من رأي انه قتل هرة فإنه يظفر باللص.

وكانت كثيـر من المعتقدات البدائية قديماً تتـشاءم بالقطط. كما كان كـثير يتـفاءلون بهـا، ففي اليابان يرون في الـقط نذير سوء، ويعتقد البوذيون جميـعاً ان القط والثعبان هما المخلوقان اللذان لم يحـزنـا على مـوت بوذا. وهذا عـكس الشـائع فـي اتبـاع «كونفوشـيوس» في الصين، اذا يتفاءلون بالقط. وفي كمبـوتشيا ـ إلى الآن ـ ينظمون موكباً للاستسقاء يتقدمه قط موضوع في قفص يحـيط به الغناء والانشـاد والابتـهال بنزول المطـر. وفي اساطيـر التلمود اليهوي يصنـفون القط مع الثعبان في التسبب في مـعصية آدم وحواء والأكل من الشجرة المحـرمة. ولأجل هذا جرى بعض المسـيـحيـين الأوائل إلى رسم قط تحت قـدمي المسـيح وهو على الصليب كما يقولون، لأن القط تجسـيم للشيطان خصوصاً إذا كان أسود.

اما في مصر الفرعـونية فكانت الهرة ترمز إلى الآلهة «بسطت» والهر يـرمز إلى الإله «بس» وفي مـصر تحـتـفظ مدينة «بلـبيس»

بذكـرى هذا السنور، إذا ينحل اسـمهـا إلى «بعل بس» أي «صنم بس» وذكر الباحثون في المأثور الشعبي الاسلامي ان القطط عموماً فيـها بركة باسـتثناء «القط الاسود» الـذي يتفحص فـيه ابليس.. ودخل لحم القطط السود في اعمال السحر إذ يأكله من به مس من الجن أو صـرع أو جنون حتي يبـرأ وهيهـات!! وفي ارياف ايران وبواديها يظل القط الاسود الخالي من اية بقعـة لونية أخرى مصدر تشاؤم حتى الآن، وفي ارياف مصر، من شد ذنب قط اسود حتى يصبح ضاع منه شيء ثمين وقد يموت له عزيز!.

ومهما يكن من شيء فإن القط كان، لشبهه بالأسد والنمر، مع بقائه أليفاً، محـباً للبشر مصدر معتقـدات كثيرة وموضع عناية من جانب الانبياء والحكماء لأنه حيـوان نافع يأكل الفيران والكثير من الحشـرات الضارة التي تتسلل إلـى مساكن الناس، وسـمعت من بعض علماء الحـيوان ان القط حـيوان ديمقراطي مع حـرصه على الوقار والراحة ولكـنه خال من التعصب العنصـري، فهو لا يكره الكلب، ويحب الفأر «على طريقته» ويؤمن بالمساواة القططية التامة بين هرة الزبالة وهرة القصور، والقط الفارسي الناصع البيان بزرقة خفيفة، والقط السيامي السنجابي، والقط التركي الانكورا «أي قط انقـرة» والقط الافريقي أو الصـيني أو أي قط «هيان بن بـيان» لا حسب له ولانسب، فأي واحد مـن هؤلاء يعد الآخرين اخواناً لا يشـعر نحـوهم إلا بالتفـاهم والتـعاون.. حـتى سنانير البـوسنة والهـرسك وسنانيـر الأكـراد أو الموارنة أو الدروز أو الشـيشـان، واعتبروا يا بني آدم!

وهناك قصيدة طويلة فكهة معروفة جداً مطلعها يبدأ بالقطط السوداء - يقول الشاعر:

عجب! عجب! عجب! عجب!

قطط سود، ولها ذنب

تصطاد الفأر من الاجحار

وفوق الحائط تنقلب

وبحار الهند بلا سقف!

والمركب عندهمو خشب!

والناقة لا منقار لها

والوزة ليس لها قلب

ومراثي الشعراء - العرب وغيرهم - في القطط كثيرة، وأكثرنا قرأ قصيدة الشاعر في رثاء الهر.

يا هر فارقتنا.. ولم تعد وكنت عندي بمنزل الولد

وقال العالمون ببواطن التاريخ ان الهر المذكور ليس إلا رمزاً لزعيم سياسي كان معارضاً لبني العباس.

قال الراوي: كان الشاعر محمد بن حازم الباهلي من معاصري الرشيد وكان جيد الشعر جداً، ولكنه كان غضوباً، كثير الهجاء فانفض الناس من حوله. وقال صديقه احمد بن يحيى: آخر ما فارقت عليه محمد بن حازم انه قال: لم يبق شيء من اللذات،

إلا بيع السنانير !!قلت : سخنت عينك ! أيش لك في بيع السنانير ؟! قال: يعجبني أن تجيئني العجوز الرعناء، تخاصمني، وتقول: هذا سنوري سرق مني، فأخاصمها، واشتمها، وتشتمني، واغيظها، واباغضها، ثم انشدني:

صل صخرة بخمار   وصل خماراً بخمر

وخذ بحظك منها   زاداً.. إلى حيث تدري!

قلت إلى أين ويحك؟ قال إلى النار، يا أحمق!.. والفنون جنون، كما يقولون.

السلام علينا.. وعليكم..!..

دقّ صديقنا الشيخ عبدالسلام جـرس الباب، على غير موعد، وفي ساعة لم أتعود زيارته فيـها. إذ كنا في أوائل ما بعد الظهر، وفي هذا الحـر الشديد، وكـان عندي صديق مـوريتاني يقـيم في باريس هو محمـود ولد الحاج زين، وكان من تلاميـذي القدماء، باعد بيننا الزمـان، ثم علم بوجودي هنا فجاء لزيارتي، بعـد أكثر من عشرين عاماً من الفـراق، وجلسنا ننتظر غداء كنت طلبته من أحد المطاعم، وظننت والجرس يرنّ أن الغداء قد وصل، فوجدت الشيخ يتصبب عرقاً، ويلهث قائلاً: ما هذا الحر..؟ وعندما دخل قدمت إليه تلميذي القديم، وأشـعرته بأننا في انتظار الغداء. فقال بنفسه الكريمة المعهـودة: غداء اثنين يكفي لثلاثة..! قلت: وتترك زوجتك أم بيـومي هكذا..؟ أجاب: عندها ما يكفيـها، وعندها

✽ جريدة الرياض ١٠/١/١٤١٦هـ ـ ٨/٦/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٤٥

بيـومي يشتـري لهـا ما تشـاء، قلت: أشـعر بأن هناك أزمـة في التعايش السلمي عندك. فأشاح بيـده وقال اسمع يا أستاذ..! أنا ليس لي طول بـالك، خـصـوصـاً إذا ناقـشـتـني أم بيـومي في السيـاسة.. وهي أو أية واحدة سليطة الـلسان من هذا النوع..! تصور أنها سمعتني وأنا أنظر لنشرة الأخبار في التلفزيون أقول إن المنازعات الصغيرة تشتعل في كل مكان، وهذا أمر لا يرضي الله. بدليل انه يرسل السـيل والزلازل والأوبئـة والأعاصـيـر وأعمـال العنف والإرهاب على عـباد الله، لعلهم يتـفكرون. فمـاذا قالت..؟ قالت ياسـيدي ـ كفى مواعظ يا شـيخ..! فالعالم محـتاج إلى إمام فعّـال، لا إلى إمام وخطيب..! العالم محـتاج إلى قوة تؤدب الظلمة، وترهب عدو الله..!

قلت: يعني أنت تبـغين أن أخلع العمامـة، وأضع خوذة على رأسي، وأخـرج على الناس بالسـيف..! فـضـحكت سـاخـرة وقالت: لو خرج إليهم ـ الله يعزك ـ عنترة بن شـداد ما أفاد شيئاً..! القوة التي أتمناها لابد أن يتـحرك لها الدكـتور بطرس بطرس غالي، وهو ومن معه، ويتخذوا قـراراً كفيلاً بإرجاع هذه العقارب إلى شقوقها. صحت: يا سبحان الله..! وهل تظنين أن أفكارك النيرة هذه غـابت عن بطرس غالي وجـماعتـه..! إنهم يفكرون فيها كل يوم، وفي كل مرة يكتشفون ان هذه العقارب التي تسكن الشقوق كمـا تقولين، تحركها وحوش كبيـرة ضارية. وإذا بالحرمة تردّ قائلة: ولو كان، فمعني هذا اننا سنظل نعيش في هذا الصراع إلى يوم القيـامة بعد الزوال..! ألم تلاحظ يا شـيخ ان الهدف

صار الآن في المسلمين . .؟ الإسلام، يا أبا بيومي، وأنت سيد العارفين، يعلو ولا يُعلى عليه، وسمعتك مراراً تكرر ان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: لمَ نرضى الدنية في ديننا. .؟ فقلت لها: يا بنت الأجاويد، لم يكن في ذاك الوقت «يلتسين» ولا كلينتون ولا شيراك ولا الصين أو اليابان. قالت: وكان هناك كسرى وقيصر، وكانا يحكمان الدنيا بأسرها. . !

قلت: يا ست أم بيومي، إذا كنت تريدين الحرب فاذهبي وحاربي، أما أنا فأريد السلام. . ! ،اتركي التشدق بالقوة والشجاعة، حتى لا تصيري مثل أبي حنيفة النميري. قالت: وماذا فعل النميري . .؟ أجبت: كان له سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه (لعاب المنية) . . ! قال الراوي: فأشرفت عليه ذات ليلة، وهو واقف به على باب بيته، وقد سمع خشخشة في داره. . ! فصاح: أيها المغتر بنا. . ! المجترىء علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك: خير قليل، وسيف صقيل، هو (لُعاب المنيّة) الذي سمعت به، أخرج بالعفو عنك، قبل أن أدخل بالموت عليك . . ثم فُتح الباب على وجل، فخرج منه كلب. . ! فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً، وكفانا حرباً. . ! قالت أم بيومي: فأنت تنتظر حتى ترى ريدوفان كراديتش وقد مسخه الله كلباً. .؟ هو أحقر في الحقيقة من الكلب، ولكن السباع تقف من ورائه، وتريد إطالة الكارثة، ولو كنا ـ وأنت بكرامة ـ أشجع من ذلك، لانتهينا منه، ومن غيره، فضحكت ملء حنجرتيَ وقلت لها: تذكرت هذا

المسكين الذي ابتعد عن القـافلة ليبول، فهجم عليه أسـد مفترس ـ لا كلب ـ فصرخ ووقع على الأرض مغشـياً عليه، فجاء رجال من القافلة وأبعدوا الأسـد، وأقاموا صاحبـهم، فلما تأكد انه لم يمت انتفخ وانتفش، وقال وهم يسـألونه عن حاله. . ! أنا بخير، إلاّ أن الأسد بال في سراويلي. . ! فقالت أم بيومي: أنتم الشيوخ عندكم لكل مـقام مـقـال، أما مـصائـب الأمة فـتكتـفون بالدعـاء على أعدائها. . ! وضـاق صدري بجدالها، وبهذا الحـر الشديد فلجأت إليك، ثم التـفت إلى الموريتـاني محـمـود وسأله مـاذا يصنع في باريس. . ؟ فأجاب: أنا عامل في مصنع سيارات، وإمام في مسجد صغيـر للمسلمين في حي من أحيـاء باريس، واعتقد، يا فـضيلة الشيخ، ان السيدة زوجتك، بفطرتها البـسيطة، وثقافتها المحدودة، كانت على حق عندمـا لاحظت ان علماء المسلمين لا يعـبرون عن آلام الأمة وآمالـها بما فيه الكفـاية من الدراسة والمتابعة والصـراحة والصدق، مما ترك المـيدان خاليـاً لطرفين هما: أعـداء الإسلام من ناحية، واليائسون المتطرفون عن غير علم من ناحية أخرى، وكلام السيدة من وجوب اتخاذ موقف أكثر وضوحاً وتوضيحاً من أوجب واجبـات رجل الدين نحو الأمة، ونحـو أولي الأمر. لأن الموقف واضح الآن، أعـداء الإسلام يريدون تفـصـيل إسلام جـديد على مقاييسهم، والأصوليـون المتطرفون يريدون المغامرة، بقلب الهيكل على رؤوس أصحابه ـ وعلى رؤوسهم أيضاً ـ على طريقة شمسون الجبار، وهي طريقة نبذها اليهود أيضاً إلى ما هو أشد نكاية، وهو التلويح بالسلام، ثم المساومة فيه إلى ما لا نهاية، ورأيي يا سيدنا

الشيخ ان سوريا الآن قد فهمت اللعبة، وأحسنتها. قال الشيخ عبدالسلام: وكيف ذلك يا أخي محمود..؟ أجاب: قال لهم اليهودي إن شرط المساواة في عمق الأرض الواقعة تحت الرقابة الدولية صعب عملياً، لأن العمق الاستراتيجي لسوريا أضعاف أضعاف ما يقابله في إسرائيل، ذات الأبعاد الصغيرة، والأعماق الضيقة. فقال لهم المفاوض السوري: لا تنسوا انكم على الرغم من هذه الحقيقة الجغرافية كنتم المهاجمين والمحتلين والمغتصبين، ولم يمنعكم عمق سوريا الاستراتيجي من الاستيلاء على الجولان، وأساس السلام ـ إن صدقت فيه النوايا ـ لا يقاس بالسنتيمتر ولا بالكيلومتر، وإنما يستقر الإيمان به والحاجة إليه في قلوب البشر أولاً، فتتوطد الثقة بين الطرفين، والثقة بمراكز المراقبة المشتركة والثقة بالضمانات الدولية، وبالعهود والاتفاقيات والمواثيق المكتوبة، وقد قرأت في جريدة فرنسية مقتطفات من رسالة بعثت بها «غولدا مائير» إلى الرئيس السادات تدعوه فيها إلى بدء محادثات السلام، على أثر حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م، فقالت فيها ما معناه إن السلام هو الهدف الأسمى الذي تسعى إليه أية أمة أو دولة، وحدود هذا السلام يجب أن تُرسم أولاً في قلوب البشر، قبل أن ترسم على الخرائط الجغرافية أوالعسكرية، وقالت الصحيفة إنها ذكرته بهذه العبارة عند زيارته للقدس الشريف، وكانت قد تخلت هي وحزبها عن الحكم، وجاء اليمين الصهيوني المتطرف، بقيادة مناحم بيغن أولاً ثم اسحق شامير من بعده، وساروا على رأي السيدة غولدا مائير لأنه لم يكن أمام الصهيونية حل آخر.

والموقف أمام الصهيونية الآن أشد تعقيداً، لأن الدول التي كانت تؤيدها ـ حقاً أو باطلاً ـ بالمال والسلام والإعلام الفعّال، عندها الآن ما يشغلها عن إسرائيل، وليست لها بها حاجة حيوية، بعد ان أفلت تسلل الشيوعية إلى الشرق الأوسط، وبعد ان خففت من قعقعة الجمهورية الإسلامية في إيران، وأسكتت صياح صدام حسين، ومعمر القذافي، والجنرال عيديد، وحرب المبادىء والشعارات في أفغانستان. ولما كان الصهاينة قد ورثوا عن جلاديهم في ألمانيا النازية كل أساليب الوحشية والأجرام، فقد ورثوا عنهم أيضاً غروراً زائداً عن حد المعقول، بأنهم الشعب الخالد، الشعب الذي لا يقهر، شعب الله المختار، وأعدوا ان جميع الأمم الأخرى (الجوييم) ليسوا إلاّ انسانية ثانوية خلقها الله لإبراز اصطفاء اليهود، في كل زمان ومكان، وانهم بؤرة الإيمان، وقمة الفضيلة، والمثل الأعلى في الاستقامة والأخلاق الحميدة، والتزام أوامر الله في العفّة والطهارة واجتناب الانحراف والفسوق.. وقرأت في الأسبوع الماضي فقط ان اثنين من رجال الدين عندهم، كل منهما عنده وظيفة (حاخام) التي تؤهله للإمامة والقضاء والوعظ والافتاء، كانا قد سافرا من أمريكا إلى أستراليا بدعوة من الطائفة اليهودية هناك، لبث الدعوة إلى الفضائل الدينية والأخلاقية، والحض على التمسك بها. وفي طريق عودتهما بالطائرة من أستراليا إلى أمريكا، شاهدا فتاة أمريكية في الخامسة عشرة من عمرها، زاغت عيونهما في جمالها، فراحا يداعبانها ويغازلانها، وطوّق الحاخام «غرونفلد» خصرها، ودسّ الحاخام

«فـريدلندر» يده إلى نهـديها، ثم قـامـا بعملـية شـروع في هتك عرضها، فاستـغاثت البنت، وتدخل طاقم الملاحين والمضيفات في الأمر وأنقذوا الفـتاة من مخالب هذين الكاهنـين الفاسقين، ثم تم تسليمهما إلى الشرطة الفيدرالية، بتهمة ارتكاب عمل فاضح عمداً وعلناً وبالإكراه، على بنـت قاصر. فحـبست الشرطة أحـدهما، وأطلقت سراح الآخر بكفـالة مالية. وقفزت إلى ذهني قصـة فتاة يهودية جمـيلة كانت تعيش في قصـر أبيها أمير المدينة، واسـمها سـوسن. ورآها اثنان من الكـهنة اليـهـود وهي تسـبح في بركـة بحـديقة القـصر، فكانا كل يوم يتـسوّران عليـها وهي في بـركة الحديقـة، وأخيراً اتفقـا على قضاء شـهوتهمـا إليها، فقـفزا إلى الحديقـة وراوداها عن نفسـها، فأبت. وهدداها بأن يـصيحـا فإذا سألهما الأمير قالا إنهما شاهداها ترتكب الحرام المشهود مع شاب لاذ بالفرار عند رؤيتهمـا، فردت الفتاة بأنها تستـودع الله نفسها، وتسأله تبرئتها، ولما مثلا أمـام الأمير شهدا بأن سوسن ابنة زانية، وان حكمها القتل. وصدقهما الأب، ولكن الفتاة طلبت أن يؤخر قتلها ثلاثة أيـام، لعل الله يبرئها ببينة من عنده، وفي فـجر اليوم الثالث نزلـت صاعقـة على الحاخـامين فقتلتـهمـا، وأصبح اسم الأميرة الصغيرة «سوسن العفيفة» وكتب اليهود قصتها في كتابهم، ولكن رئاسـاتهم الدينيـة أخرجت القـصة مـن النصوص الدينيـة المعتـمدة وأوصت بإعدامهـا بالنار وشاء الحق سبحـانه وتعالى أن يستمـر حفظ نص القصة مـدة ألفين وخمسمـائة عام، وأن تصل بنصهـا لا إلى اليهود فـقط، بل إلى المسيحـيين والمسلمين أيضاً،

والسؤال الذي يطرح نفسه تلقائياً: كيف يستطيع الطرف غير اليهودي أن يطمئن إلى اتفاق معهم على السلام، وهم لا يستطيعون التحكم في شهوات نفوسهم..؟ إن السلام مع أصحابنا هؤلاء يجب أن يكون ـ كما يقول الجنرال دي غول ـ مصحوباً بقوة رادعة تقمع النفوس الطامعة، ومن أقوى القوى الرادعة اختفاء الخلاف بين الأخوان العرب، ولكن كيف..؟ وهم لا يكادون يتفقون على شيء ..؟!

وقاطعنا جرس الباب، وأسرع الشيخ عبدالسلام صاح: وصل الغداء، وعلى الطعام، يحلو الكلام عن السلام.



الحقد ضلال.. والحب هدى!..

سألت: من معي على الهاتف؟ قال: أنا بيومي يا عمي.. ابن الشيخ عبدالسلام قلت: أهلاً وسهلاً! وأين أبوك؟ قال: سيأتي عندك بعد صلاة العشاء، لكن أنا وطيفور وحذيفة نتمنى أن نزورك قبل أن يحضر، حتى نسمع شيئاً من شعرك.. قلت: حباً وكرامة! وإن كان شعري لا يُهدى للشباب لأن معظمه في الحب، والشباب جهابذة وعمالقة وفرسان في هذا الميدان، هيهات أن أتعلق بغبارهم! فضحك بيومي وقال: لا تتواضع يا عمي.. فقد سمعنا منك، وقرأنا لك أبياتاً شعرنا أمامها أننا ما زلنا صغاراً.. قلت: ربما في الشعر.. أما الحب.. فقاطعني قائلاً: وحتى في الحب.. فأمامك نحن عيال في هذا، قلت: على كل حال يا بيومي على الرحب والسعة، أنت وأصدقاؤك قال: قد يكون معنا

❁ جريدة الرياض ١٧/١/١٤١٦هـ ـ ١٥/٦/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٥٢

صديق سوري يجيد العزف على الناي، اسمه سراج، وأجبت مرحباً: نور على نور! وإلى اللقاء.

وأعددت العصير البارد، ووصلت هذه الكوكبة من الشباب، وبعد السلام قالوا: نصلي العصر أولاً. وضحك حذيفة وقال: ساعة لقلبك وساعة لربك! أجبت: أحسنتم هيا بنا! قال طيفور: نسمع من سراج أذان العصر على الناي، ولا تقلق يا سيدي، فبعدها ينادي بيومي بإقامة الصلاة.. وكان سراج قد استعد بالناي.. سبحان الله! أنغام شجية تكاد تسمع فيها حروف الأذان محكمة الأداء، كأنك تسمعها عن مزامير داود! وأقام بيومي الصلاة، وصليت بالجماعة، ما شاء الله! الخضوع والخشوع، والايمان والوقار، وهذا الشباب المتفتح على الدين والدنيا في آن واحد.

ثم تناولنا العصير، وعبرت عن اعجابي باتقان سراج للعزف بالناي.. فقال طيفور: لقد لحن لك خصيصاً بيتين من شعر الحب القديم، يتصيد بهما شيئاً من شعرك، قلت لسراج: وما هما البيتان؟ قال: هما من اختيار معلمي للناي، واحد من شعراء الأغاني اسمه الحكم بن قنبر، ثم انطلق يعزف على الناي، وحذيفة يستعد للغناء.. وأنشدني حذيفة البيتين أولاً، وهما:

فما أقصر اسم الحب! يا ويح ذي الحب!

وأعظم بلواه على العاشق الصب!

يمـر به لـفظ الـلـســـان بســـرعـــة

ويـغـــرق من عـــانـاه في لجـج الكــرب

ومع الغناء، ومـساندة الآخــرين في مواضع من اللحــن، ملأ الطرب قلوبنا، وتخيلت انني في قصـر هارون الرشيد أو المأمون: وكان ابن قنبر معاصراً لهما، وسـمعهما الخليفة المأمون من تلحين ابن محرز وغنائه.

والتفت إليَّ طيفور وقـال: نحن على الشرط! هات من شعرك يا عمي، وفي الحب كما اتفقنا.. فأنشدتهم..

هـمـــــســـــات تسـلـلـت من ورائـي

من خــلال الخــمــيلة الفــيــحــاء

ناعـــمـــات.. كــانهـــا ورق الورد

طفـــا فـــوق مـــوجـــة من ضـــيـــاء

قـــــالـت لـه: انـت حـــــبـي!

وأنــت مـــــــالـك قــلـبــي

ومـنـك مـــــري وعـــــذبـي

وانــت عــــــــذري وذنـبــي

أجـــابـهـــا: انت ســـحـــري

وانـت ربـة شـــــعـــــري

ومـــنـــك حــلــوي ومـــــري

وانــت ذنـبــي وعـــــــذري

وصاح سراج: أكتبها يا حذيفة! لابد أن ألحنها ـ إن شاء الله ـ وأقدمها إلى الشاعر في مناسبة جميلة.. أليست هذه أكثر موسيقية، وأوجز عبارة، وأعمق صدقاً وحرارة مما يطاردنا به مؤلفو الأغاني الآن، في التلفزيون والاذاعة وأشرطة الفيديو وقاعات الطرب من كلمات مرصوصة، تتبرأ كل واحدة من جارتها؟ فرددت شاكراً، وإذا بيومي يسألني: لماذا يكثر الحب في شعرك؟ قلت: لأن الحب عندي هو الهدى، أعرف به طريقي إلى الله، وإلى العلم وإلى الحق، وإلى الصبر، وإلى الخير ـ وهذه كلها من صفات الله تعالى.. أما الحقد والبغض والتعصب العنيد والشر فهي كلها من صفات الشيطان، نعوذ بالله منه!

قال سراج: كلام معقول.. قلت مبتسما: إن أية مشكلة في الحياة يحلها الحب، ويعقدها البغض.. نحن في السنة الرابعة من مطاردة الصرب للمسلمين في البوسنة والهرسك، وفي السنة العاشرة من صراع الأخوة الأعداء في أفغانستان، وفي السنة الستين أو السبعين من ظلم الصهيونية للعرب في فلسطين.. هذا هو الضلال، وأشد منه ضلالاً الواقفون على الحياد، والمتاجرون بهذه القضايا، والذين ينافقون ويكذب فعلهم قولهم ثم إن العصر الذي نعيش فيه سدت المادة به كل المنافذ إلى القلوب والأرواح، فجاء كثير من الشعراء اليوم متخبطين في الفوضى والكراهية والرفض، أو في التزلف الذليل الدنيء.. ولأن أرواحهم وقلوبهم قد عميت في هذه الظلمات المتراكبة، جاء شعرهم اما ضعيفاً تافهاً

متعفناً، أو جباناً رعديداً مرتعشاً من الخوف والحذر، أو ملغوزاً مرموزاً لا يفصح عن شيء ولا تتبين فيه رأياً، أو معقداً ملتوياً كأنه كان في بعض معتقلات الظلم والاضطهاد ثم جذبه الشاعر من رجليه، يجره على الأرض حتى لا يسمع منه أحد إلا الصراخ والبكاء.. ولو سكت الشعراء إلا عن الحب ولا ورثوا النساء ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم.. قال حذيفة: ولو لجأوا بدل المدح إلى الهجاء، أما كان أحسن؟ قلت: شعر الهجاء فضائحه طنانة رنانة، مثل شعر الحب.. فاعلم يا بني أن شاعر الحب الذي لا يحب، عرضة لأن ينزلق في الاسفاف الجنسي، وصراخ الهياج والشبق، وهذا قد يبدو جذاباً ومسلياً، ولكنه يشبه أشرطة الفيديو التي تعرفونها ـ أو لا تعرفونها ـ وهي تدر على أصحابها الملايين لأن الرذيلة كانت دائماً أغلى ثمناً من الفضيلة وشعر الهجاء جيد لأنه يرينا الوجه الآخر من الصورة، الوجه القبيح المشوه، وهو بذلك يقوي نفورنا من القبح والشر والجبن والدناءة.. ولكن الهجاء ينزلق هو ايضاً إلى نوع من السباب الرخيص المتدني الذي ليست له قيمة فنية إلا بالاقذاع والاسفاف.. وقاطعني بيومي قائلاً: اسمعنا من شعرك في الحب، يا عمي! قلت: يا بيومي!، أنا لا أبرىء نفسي، ولست من الزاهدين القانتين وإذا أحببت اتجهت بقلبي إلى الحبيبة أناجيها لا بالروح وحدها، بل بالعينين والأذنين وسائر الحواس، وبكل الاعزاز والاكبار والتقدير.. لكن ايضاً بكل حرارة الشوق.. وكل نشوة الشهوة.. فالانسان في دار البلاء هذه روح وجسد، ومستحيل أن نصبح ـ مهما صمنا وصلينا

وزهدنا ـ من خصيان الشيطان، لكننا، أو من عصم الله منا، نجد القوة لكبح الجماح والوقوف عند حد، حتى عمر بن أبي ربيعة الذي قيل في غزله ما قيل، أصابه خيال الناس بقصص وحكايات هو بريء منها، وما أكثرها.. قال الراوي وهو الاصمعي عن أبي سفيان بن العلاء، قالت: بصرتُ الثريا الجميلة التي طالما شبب بها عمر بصرت به وهو يطوف بالكعبة، فاختمرت وتلثمت وزحمته ومسحت بكفها على كمه، فعلق العطر بثوبه فجعل الناس يقولون: ما هذا زي احرام! فصاح بهم:

ادخل الله، رب موسى وعيسى

جنة الخلد من ملاني خلوقا

مسحت كفها بجيب قميصي

حين طفنا بالبيت، مسحا رفيقا

فقال له عبدالله بن عمر: مثل هذا القول تقول في هذه المواضع!؟ فقال له: يا أبا عبدالرحمن! قد سمعت مني ما سمعت، فورب هذه البنية، ما حللت ازاري على حرام قط! ولكن أين نحن الآن من عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، والمتظاهر بالدين عندنا ينبش عن تهم غير موجودة لا يثبت وجودها، بل ليثبت وجوده هو! على حين يشهد بعينيه ابادة المسلمين في كل مكان فيكتفي بالدعاء لهم بالنصر وعلى اعدائهم بغضب الله! قال طيفور: عجيب! حتى عمر بن أبي ربيعة؟ قلت: والثريا يا طيفور، ألم تقرأ له فيها:

قـــال لي صـــاحـــبي لـيـــعلم مـــابي

احـب الـقـــــتـــــــول، أخت الـربـاب

قلت وجـــدي بهـــا كـــوجـدك بالـعــذب

إذا مـــــا منـعت بـرد الـشــــــراب

مـن رســـولـي إلـى الثـــريـا فـــإني

ضــقـت ذرعــاً بحـــبـهـــا، والكتـــاب!

وعاد سراج يقول: وشعرك أنت يا أستاذ، وما سمعنا منه إلا القليل، قلت: لك واجب الاكـرام وقرأت له من سيرة البـهلول وصفاً لشاعر موسيقي يقول في الغزل:

غنى غناء مـحتـرف/ أنا بعيـنيهـا كلف/ وخدها/ ونهـدها/ وأنفها/ وعطفها/ وخـصرها/ وثغرها/ ومن صدودها تلف/ ليت العـذول ينخسف!/ رمى إليـه سامع بعض الدراهم/ فـردها له، وقال: أنت واهم/ فأنـا بحمد الله لا أشكر العدم/ أنا مـحترم!/ خذها وشكراً للكرم/ لكنني أشكو الفراق/ وهي المريضة بالعراق/ وما لها سواي راق!/ مشى بها الزمان عني ورحل/ لم يبق لي إلا التغني بالغزل/ نغم خطير/ من غـير أجنحة يطير/ وبه أغني/ إن مر عفـريت عليه ونفخ/ ثار اللهيب فـيه، والجمر صـرخ/ قولوا مـعي: ويل الهـوى!/ من النوى/ داء ومـاله دوا/ إلا الوصـال/ لكن إذا ما الهجـر طال/ ومضى الشباب/ فاقنع بتخـييل الخيال/ حـتى توارى في التـراب/ قولوا مـعي: يا للعـذاب!/ الحب في الأرض له عرش وراية/ وحكمـه عسف وحـيف وغواية/ وفي

السماء. . فيه نور وهدى/ ومنه غيث وندى/ وصوته كأنه اعجاز آية/ ورحمة بلا نهاية/ .

وقال حذيفة: هذا شعر حديث مما يسمونه شعر التفعيلة، فهل تكتب الشعر العمودي أيضاً؟ قلت نعم، وبحسب الموضوع، ففي سيرة البهلولة، رمته مغامراته إلى رحلة في جهنم والعياذ بالله! ـ في المنام طبعاً ـ وكان له صديق حمله حلم المنام إلى الجنة، فراح يغيظ البهلول ويقص عليه هذا النعيم:

مست كفي يدها عفوا
فشعرت بعاصفة سخنة
وببرد الحب على كبدي
وكأني جادتني مزنه
وتحرر قلبي من قلق
كأسير قد فكوا سجنه
صرخ البهلول: اسكت فلقد
تركت أقوالك بي جُنة
من نال الحب فذاك غنى
إن فزت به فلك المنه

وكان الشيخ عبدالسلام يدق الباب، وبيومي يضحك ويقول: وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح. . أما الشيخ فكان صاخباً يصيح: في هذا اللهيب تزعجون الرجل؟ قلت بالعكس لقد أعطوني فرصة الكلام عن أجمل موضوع: إنه الحب!.

السياسة.. كلام في كلام!..

كنّا في خلاء البر. . نتنسم هواء الليل، استشفاءً من حرّ المدينة بالنهار. وكنا عـدداً كبيـراً من الأصدقاء، في مـقدمتـهم صديقنا الشيخ عبدالسلام، وسمعت في الجمع شيخاً طويل اللحية، قصير الثوب، يقـول وهو يهز رأسه ذات اليمين وذات اليـسار: لا حول ولا قوة إلا بالله! يبـدو ان الساعة قد اقـتربت. فقاطعـه صديقنا البـدوي الظريف: إن الله مع الصـابرين، وكل آت قـريب! قـال الرجل الصـالح: هناك علامـات وامارات يا اخوان. غـضب الله على عباده واضح في هذه الزلازل في أقـصى الشرق من روسيا، وفي جزر اليونان، وفي السـيول والفيضانـات المغرقة في تايلاند، وفي البراكين في اندونيسيا وايطاليـا والمكسيك، وفي انتشار مرض انهيار المناعة المكتسبة في جميع أنحاء العالم، وفي استحالة ترقيع

✿ جريدة الرياض ٢٤/١/١٤١٦هـ ـ٢٢/٦/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٥٩

طبقة الأوزون التي ملأها عبث التقنيات الهوجاء ثقوباً، وفي انتشار الحروب والمجاعات بين البشر. أليس ذلك مؤذناً بأن الموضوع أكثر جدية مما نتصور؟ وتنحنح صديقنا الدكتور مراد وقال: ولكن الصرب ما يزالون بخير، مجدين في قتل المسلمين، وتخريب بيوتهم ومدنهم، يجدون من يؤيدهم في حلقات السياسة العالمية كالروس مثلاً، والفرنسيين أخيراً إذ يرى رئيسهم الجديد المسيو جاك شيراك ان اتخاذ قرار حاسم في هذه القضية قد يؤدي إلى اتساع دائرة النزاع، وفي نفس الوقت يصر على استئناف التجارب الذرية الحربية، وكأنه ينوي إسكات أصوات المحتجين على اتساع دائرة النزاع وتهديدهم بقنابله الذرية. والخلاصة أن البشر، والمسؤولين عن بقائهم على هذه الأرض، هم المسؤولون عما يخطرون به من مضاعفة المشاكل، والتمهيد لما لا قبل للناس به من المصائب والجوائح والمحن، ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، خذ مثلاً هذه المماطلة اللزجة المطاطة إلى مالا نهاية في سلوك اسرائيل حول قضايا السلام في الشرق الأوسط. هي تغني، ولها جوقة من السياسيين ترد عليها، أحياناً بوضوح، وكثيراً بغموض، وإذا كاد معين الصبر أن ينفد قام واعظ يدعي انه مخلص في حب السلام، ينصح بضبط النفس، وطول البال، وعشرات الآلاف من عرب فلسطين في معتقلات الذل والعذاب منذ سنين طويلة، في ظروف من القسوة تذكر بمعتقلات الهتلرية النازية ليهود. كما أن مدافعهم ورشاشاتهم وصواريخهم وطائراتهم وزوارقهم المسلحة تضرب ضربات رهيبة في لبنان: في

الشريط الحدودي (الأمني) وعلى السواحل، وفي زوارق الصيادين اللبنانيين وفي اقليم التفاح، وعلى أطراف سد العركمون في «مشغرة» وحتى في اقليم البقاع. وهم مع ذلك يحلفون بالله جهد ايمانهم انهم ما يريدون إلا الخير والسلام وعودة العلاقات الإنسانية الأخوية بين اليهود والعرب تحت شعار (التطبيع). وهنا صاح أخونا أبوغازي الفلسطيني قائلاً: الله يخرب بيوتهم! طردوني أنا وزوجتي وأولادي من وطني، واستولوا على مزرعة لنا بقرب (يافا) تنبت البرتقال والخيار واللوبيا والطماطم والبطيخ والتين والعنب. واغتصبوا مثل ذلك من أخي وشقيقي وطردوا أسرته من البلاد، ووضعوه في المعتقل بتهمة التخابر مع الأعداء! طيّب.. الأعداء صاروا الآن أصدقاء وهو باق في سجنه! والذين صاروا أصدقاء، والذين وعدوا بالتطبيع لم يشترطوا خروج هذه الآلاف المناصرة لهم، المحتمية بهم من السجون.. وإذا تكلمنا قالوا: ممنوع الكلام في السياسة.. ممنوع علينا، أما هم فلا يكفون عن الكلام!.

وقال الشيخ عبدالسلام: العجيب أن أية حرفة أو صناعة أو مهنة لا يمكن لانسان أن يشتغل بها إلا إذا قدّم ما يثبت معرفتها واتقانه لها وخبرته بها، حتى إمام المسجد، لابد أن يكون متبحراً في اللغة العربية وأصول الدين والشريعة وتفسير الكتاب والسنة.. حتى سائق الحافلة لابد أن يؤدي اختبارات صعبة في قوانين السير، وقواعد الميكانيكا، واختبارات نفسية تبين انه يحب سلامة الناس، وأنه بعيد عن الشرود واللا مبالاة، وانه سليم النظر،

كامل الصحة والقوة. . هنا فضلاً عن المهندس أو الطبيب أو المعلّم أو القاضي. . إلا السياسي، وكأنها تجارة بدون رأسمال، أكثر من ميل إلى المشاحنة واللجاج والتـهديد بالعنف والصراخ والبكاء في المآزق والقدرة على (التأقلم) في السجون أو في القصور، وموهبة اختـراع الاشاعة واطلاقـها، واستـقبال السـذج والبسطاء بالبـشر والترحاب وإعطائهم من التعظيم والتفـخيم ما ليس لهم، والبراعة في توجيه هذه الجموع إلى الهـدف الذي اختاره. قال ابونغيمش: يعني السياسة. . كلام في كلام! قال الشيخ عبدالسلام: والله أكبر إذا انطبع هذا الكلام في مـنشورات أو اهتـمت به بعض الجـرائد فخصـصت صفحاتهـا للدعوة له، وتقاسمـته في الغنائم. قلت: لكن لماذا لا يحكم العلماء أو الفـلاسفة؟ وقاطعني الدكـتور مراد ضاحكاً وقال: لقـد أثبت كثير من الفلاسـفة والمفكرين أنهم أشد خطراً على العـالم إذا آمن بدعوتهم من عـباد الله البسـطاء. لقد حكم اليونان بالاعدام على سقراط أعظم فلاسفـتهم، بتهمة إفساد الشباب وجرى اليهود على قتل أنبيائهم أو اعلان العصيان ضدهم بتهمة. . التضليل! وعوقب الإمام أحمد بن حنبل بالجلد حتى كاد يموت بتهمة اعتـقاده في القرآن عكس المذهب الرسمي للدولة في ذاك الوقت. وعاش الفيلسوف الاقـتصادي، صاحب نظرية المادية الجـدلية في تفـسيـر التـاريخ، التي بنى عليـها أسس السـياسـة الشيوعية. . عاش صاحبنا هذا فقيراً متشرداً جائعاً مريضاً، وشغل بفلسفتـه العالم المعاصر قرابة قـرن من الزمان، فاشتعلت بسبـبها حـروب عالميـة، وأخرى اقليـميـة، وقامت من أجلهـا سجـون

ومجازر، وهاجر ملايين من أوطانهم خوفاً على حياتهم وأسرهم وأعراضهم، ثم ظل جاثماً على صدر العالم كالكابوس المخيف طوال ثلاثة أرباع القرن وانهار بين عشية وضحاها! وكأن المؤمنين به قد أصابهم الخجل من عار هذا الايمان ـ أو الاذعان ـ فحطموا تماثيله هو ولينين وستالين، وهم الآن يطالبون بمواراة جثة لينين التراب، بعد بقائها ـ محنطة ـ في صندوق من الزجاج يزورونها في موسكو، ويطوفون بها سبعين عاماً! هؤلاء يا صديقي بعض الفلاسفة الذين تسأل لماذا لم يحكموا العالم. أما العلماء فلعلك مازلت تذكر الخميني وما جلبته جمهوريته الاسلامية في إيران من متاعب ومن فظائع وفضائح، ومن فقر وحرمان لطبقات بسيطة من الشعب الايراني العريق، الذي لا ناقة له ولا جمل في كل ما جره عليه آية الله، روح الله الخميني! هذا في الاسلام وفي العصر الحديث، أما في النصرانية فإن الحساب طويل لا يكاد ينتهي: الراهب الكاثوليكي (توركويمادا)، المشرف على (السلام الروحي، للملكة إيزابيلا)، هو المهندس الحقيقي لمحاكم التفتيش ـ وهي محاكم دينية سرية لارغام المسلمين واليهود وسواهم من غير الكاثوليك على الارتداد عن أديانهم ومذاهبهم، أو القتل. وكان التفنن في ارهابهم خلاصة مركزة من وصف جهنم في الكتب الدينية، وغيرها من كتب الأدب اللاتيني، مثل (الإنيادة) لفرجيل، أو (جحيم دانتي) الذي أبدعه الشاعر الإيطالي العبقري (دانتي آليغييري). فهذا الشيخ النصراني كان وراء إخلاء الأندلس من المسلمين وغيرهم، لأنه كان لا يطيق (الآخر)، أي الذي

يختلف معه في الديـن، مهما كان مؤمناً بالله وملائكتـه وكتبه ورسوله، وأخـذ خلفاؤه يرهبـون الكاثوليك الأسبـان لأنهم ـ في ذوقهم ـ ليسوا بكاثوليك بالقدر الكافي! فكانوا يصلبون ويجلدون ويكوون بالنار، ويحرقـون الناس أحياء. وكل هذا كان رغـبة من الكاثوليكية الأوروبيـة في التعميـة على الهزائم المنكرة التي لقيـها الغزاة الصـليبيـون من العرب والمسلمين في الشـرق، في فلسطين ولبنان وسوريا ومصـر وتونس وغيرها. أما في التاريخ البـعيد في الزمـان والمكان، فإن (بوذا) الهندي الأصل، أراد أن يقـيم للناس فلسـفة أسـاسـها الـتأمل في ملك الـسمـوات والأرض، وتجنب الحـروب، والاقبـال على استـيعـاب الحكمة ومكارم الأخـلاق، فاضطهده قـومه وتركهم إلى التبت، ثم إلى جنوب شـرق آسيا، فـآمنت به مـئـات الملايين من الصين واليـابان وكـوريا وفـيـتنام وكمـبوتشـيا وتايلاند، ومع ذلك ظهـرت فيهم تيـارات مخـتلفة تناحروا بسـببهـا، وكرهوا المسيـحيين والمسلمين واليـهود وشيـعة كونـفوشـيوس في الصين وبراهمـا في الهند.. وماتـزال الحروب والمذابح تشب بينهم إلى الآن. فاحمد الله على بقاء السياسة مهنة لا تحتاج إلى مؤهـلات أو شهادات، والحكم فيها اقـبال الشعوب عليها، وتدخل الفلسطيني أبوغـازي في الحديث وقال: بشرط ألا يكون هناك ضغط أو ارهاب من الحاكـم للمحكومين، وألا يجمع صفـوفهم بالخطب الطـويلة، والوعود الكاذبة، وصـور المستـقبل الساحرة، فالصهاينة عندنا أكثرهم غير قادرين على التفكير إلا من خلال ما يقول لهم زعيم حـزبهم. أنا أعرف يهودياً من القدس،

زعيمه آربيل شارون، وهو يقـول دائماً لا سلام لاسرائيل إذا بقي عربي واحد في القدس! ولا سلام للشرق الأوسط إذا قامت دولة للعرب في فـلسطين. ولا سلام للعالم إذا حـصلت مواجـهة بين الدولة الاسرائيليـة والدولة الفلسطينية، فـهذا كيف أقـنعه بامكان التـعايـش السلمي؟ قلت له إن شـارون إذا حكمكم سـيكون في اسرائيل مثل صدام حسين في العراق: كثير من القعقعة والجعجعة والفرقعة، ثم فضائح يندى لها الجبين! فصاح اليهودي في وجهي صدام في عينك؟ نحن عندنـا أسلحة ذرية، وعندنا رؤوس أموال لا تحصـى في بنوك العالم أصـحابهـا يهود غـير اسـرائيليين، مما يجـعلهم فوق الشـبهـات، وتذكـر عندما اقـتحم المصـريون خط بارليف، وحـرروا قناة الـسـويس، ومـشـوا في سـيناء بضـعـة كيلومتـرات، جاءنا طيارون (متطوعون) من اليـهود والأمريكان، مزودين بأدق وأقوى طائرات قتال كـانت معروفة في ذاك الوقت، تحمل من لطائف القنابل العنقودية والانشطارية والتلفـزيونية أشياء مذهلة، حـتى أن الرئيس السادات عندما قـبل الهدنة أعلن بأعلى صوته انه مستعد لمحاربة اسرائيل في أي وقت، ولكنه غير مستعد لمحـاربة أمـــريكا، وأمـريكا لم تحـــاربه الا بالمتطوعين الـيـهـود والأمريكان وبالأموال التي تتقاطر على اسرائيل.

كان الشـيخ عبدالسـلام ينصت ولا يقول شيـئا، وأخيـراً وجه الخطاب إلى الدكتـور مراد، وقال: لماذا ذكرت أنبيـاء بني اسرائيل وبوذا وكونفوشيوس وبراهما ضمن الـسياسيين الفاشلين، وهما ـ على أكثر تقـدير ـ دعاة دينيون. قال الدكتور مـراد: لو فحصت

ملفات من اضطهدوا منهم ـ أنبياء أو فـلاسفة أو مؤسسي أديان ـ لوجدت أن التـهمـة التي كانت موجـهة إليهـم كانت في الأصل سياسية، فبعـضهم كان يرمي إلى تحرير الفكر الانساني من الجهل والتعصـب والكبرياء والوحشيـة، وبعضهم كانوا دعـاة سلام مثل الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة بين العرب واسرائيل، وقبله المهاتما غاندي، وقبلهما المسيح عليه السلام، لولا معجزة رفعه بها ربه الى السماء قبل أن يقتله اليهود، والغريب ان التطرف السياسي يصـيب الجمـوع المختلفـة عندما تربطه بالدين، وإلـى الآن جرت المصطلحات العـقائدية، إذا ترك شخص حزبه الـى حزب آخر أن يلقب في الحـزب الذي تركـه بلقب (الخـائن) وفي الحـزب الذي انضم اليه بلقب (المهتدى)! وما أكثـر الكلام في السياسة عن غير علم. وقد تعود (بسمارك) مؤسس أمانيا الحديثة في القرن الماضي أن يقول: لا تصدق أي كلام تسـمعه: قبل معركـة انتخابية، ولا أثناء حرب، ولا بعـد مباراة في الرمـاية بين صيـادين. أما المفكر البريطاني درايدن فـيقول: رجل السيـاسة لا يحب ولا يكره! بل يمضي إلى أهدافه ببـرود. وكلامه هذا ذكرني بالشعـرة التي كانت بين معاوية والناس.

قمر السماء.. وقمر الشعراء..

ناداني صديقنا الشيخ عبدالسلام بالهاتف في ساعة الظهيرة، وقال: عندنا سمك طازج، فما رأيك أن تحضر عندي للغداء؟ فرددت معتذراً وشاكراً. . وكان اعتذاري بأن الخروج من بيتي في هذه الحرارة الجهنمية يحرك المسامير المدقوقة في فقرات ظهري فاشعر ـ وقاكم الله ـ بآلام عاتية، أنا في غنى عنها، ثم إن السمك المشوي بما يحاصره من التحابيش والأبازير والبهارات، يجرّ وراءه ـ في حرّ هذا الصيف ـ عطشاً لا يطفئه إلا الماء الكثير المثلج، الذي يزيد من الأثقال على المعدة، حتى لا يكون لذلك حل إلا النوم، وأنت تعلم يا شيخنا أنني أتجنب نوم القيلولة تحايلاً على نوم الليل. . أضف إلى ذلك أنني أكتب (الكشكول) لهذا الأسبوع. . فقاطعني مستفسراً في أي موضوع هو؟ فأجبت: عن

❁ جريدة الرياض ١/٢/١٤١٦هـ ـ٢٩/٦/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٦٦

القمر، صاح: يا أخي! دع هذه الموضوعات (الرخوة) للمراهقين!
أجبت: أنت واهم يا مولانا، وموضوعي - تقريباً - لا رخاوة فيه.. فأنا هذه المرة أكتب عن (قمر السماء).. قال: الآن فهمت، فأنت تقاطع الشمس بسبب الحر، وتهجرها إلى القمر، أجبت: تقريباً.. قال: لك ما تريد، وإلى لقاء عندك هذا المساء، على كثير من العصير المثلج، بسبب السمك.. والحر أيضاً..
قلت: أهلاً وسهلاً..!

أما موضوع القمر، فقد فكرت فيه لأول وهلة وأنا أردد أبياتاً قديمة من شعر الغزل، كان منها:

واستقبلتْ قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

ثم راجعت نفسي فقلت: إن (القمرين) هنا يمكن أن يكونا الشمس والقمر جميعاً، حسب التعبير العربي الشائع منذ القدم.. وقد استعمل المتنبي في قصيدة زعم أنها في مدح كافور الأخشيدي، وهي في الحقيقة في هجائه كل بيت من أبياتها، إذا تأمله القارىء أو السامع، وجد أنه يجرد صاحبه من كل فضل، جاء منها مثلاً.

عدوك مذموم بكل لسان
وإن كان من أعدائك القمران!
ولله سر في علاك! إنما
كلام العدا ضَرب من الهذيان

أتلمس الأعداء، بعد الذي رأوا
قيام دليل، أو وضوح بيان؟
رأوا كل من يبغى لك العذر يبتلي
بغدر حياة.. أو بغدر زمان!

وعدت إلى ذاكرتي أنبش فيها عن شعر لا يلتبس فيه القمر بالشمس، فتذكرت قول الشاعر:

رأت قمر السماء فأذكرتني
ياليَ وصْلها بالرقمتين
كلانا ناظرٌ قمراً، ولكن
رأيت بعينها، ورأت بعيني

وحضرني شعر ابن زريق البغدادي عندما هاجر إلى الأندلس، ثم حنّ إلى من يحب ببغداد فقال:

استودع الله في بغداد لي قمرا
بالكَرخ من فلك الأزرار تطلعُهُ

ثم تزاحمت أقمار الشعراء والعشاق في رأسي، فخشيت أن استسلم لاغرائها، فيصل الشيخ عبدالسلام وأنا بعد في (خواطر المراهقين) كما يقول.. لكن ماذا أقول عن قمر السماء؟ لقد عبده قوم ـ بل أقوام ـ في هذه الدنيا، وما زالت من ذلك بقايا في

عادات البشر إلى الآن، منها الطقوس المقترنة بخسوف القمر في بعض الأديان، وطقوس أخرى خاصة ببزوغ الهلال يسمونها في الديانة اليهودية (رأس الشهر) وله عندك نظام خاص في الإضاءة بالشموع، وفي الصلوات والأدعية، كما أن قوم ابراهيم الأول في بابل كان القمر من معبوداتهم، واسمه عندهم (سين) ومن أباطرتهم «نارام سين» أي (حبيب سين) والامبراطور سنْخَاريت، واسمه بالبابلية (سين ـ اخ ـ إريب) أي القمر ارتضى أخاً له! ثم شبه جزيرة سينا في مصر، سميت بذلك لأن أهلها القدماء كانوا يعبدون الإله سين، خلافاً لسكان وادي النيل الذين كانوا يعبدون رَعْ ـ إله الشمس.

ورحت أعصر ذهني في كل ما أعلم عن القمر، وقفز لي خيال مجنون إلى الصعود إلى القمر في مركبات تدفعها صواريخ جبارة إلى خارج الجاذبية الأرضية.. وتكررت رحلات رواد الفضاء نحو القمر ـ فرادى وجماعات ـ وأقيمت فيه محطة كاملة لإصلاح المركبات الفضائية، وتزويدها بما تحتاج إليه من قطع الغيار! ولكن الموضوع بدا لي بعيداً كل البعد عن دائرة اهتمامي.. فجنحتُ إلى زحام كثيف آخر من (الأقمار الصناعية) وهي آلات رصد، وجمع للمعلومات، وارسال لها، تطير كالذباب في الفضاء الخارجي، وترسل إلى الأرض الصور و الأصوات والمعلومات الخاصة بالحرارة والضغط الجوي والاشعاعات الكونية.. وابتسمت من شعوري بالافلاس أمام هذا الثراء العلمي المذهل، وأيضاً من

تذكـري لصديق من مـشـايخ الأزهر، كان إذا رأى امـرأة سافـرة ومزخرفة بشكل صارخ، يقول: هذه من الأقمار الصناعية! ثم يهز رأسه أسفاً على زمن مضى، وينشد بيت المتنبي المشهور:

حُسنُ مجلوب بنظرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وفجأة تذكـرت ملاحظة لغوية لبعض علمـاء اللغات المقارنة، ذكر فيها ان الشمس والقمر في جميع لغات العالم ما زالتا تُخفيان الكثيرمن أسرارهما، و مقدمة ذلك تأنيث كل منهما أو تذكيره في جمـيع اللغات، فالقـمر مذكّر في العـربية واخواتهـا عن اللغات الساميـة، والشمس مؤنثة في العـربية، ومذكرة في أكـثر اللغات السامية، والقمر مؤنث في اللغة اللاتينيـة وما تفرغ منها كالفرنسية والايطاليـة والاسبانيـة، والشمس مـذكرة! وبالعكس في الـلغات الجرمانية! وتلمس كثير من الباحثين أسباب ذلك، فأشاروا إلى أنه عندما تكون القوة والجبروات صفة لـلمسمى فإنه يأتي مذكراً، أما إذا كان الملحوظ فيه هو الرفق والحنان فـإنه يؤنث.. فالعرب مثلاً - هم وغيرهم من السامـيين - لاحظوا ارتباط القمر بالماء، في المد والجـزر، وبدرجة الحـرارة المعـتدلة الملائمـة للأسـفار بالقـوافل، والمناسـبة لمسـامرات الليـالي الساحـرة في الصحـراء، وكل تلك صفات تعطيه أهمـية أساسية في الحياة، وقوة وجـبروتاً فذكروه، وبقيت الشمـس تذكر وتؤنث في لغات كثيـرة من تلك السلالة، وهو كـلام يعوزه الدليـل القاطع، ويمكن تأويـله تماماً في الاتجـاه العكسي.

ورأيي في مثل هذه المشكلة الخاصة بالتذكير والتأنيث في المسميات الجمادية ترجع إلى طبيعة أساطير معينة رواها البشر في بداية وجودهم على هذه الأرض، وجعلوا لكل منها رمزاً حياً من إنسان أو حيوان، أعطوه في سياق القصة صفة الذكورة أو الأنوثة حسب الدور الذي كان متخيلاً في القصة. . ولو تتبعنا اسم الماء في لغات العالم لوجدنا ان بعضها يؤنثه، وبعضها يذكره، وبعضها يضعه في صيغة الجمع، بدون مفرد، مثل اللغة العبرية والسريانية.

ومن أكثر الكواكب ارتباطاً بالأساطير (القمر)، وإذا كان الخالق سبحانه وتعالى خلق الشمس للفصل بين النهار والليل، بحيث عرف بها الإنسان حساب الأيام، وكذلك للفصل بين فصول السنة الأربعة: الربيع والصيف والخريف و الشتاء، وأيضاً للتمييز بين المشرق والمغرب، فقد خلق القمر لقياس الليل، وحساب الشهور، ولتعليم الناس وغيرهم من الكائنات الحية، إن طبيعة الدنيا التي نعيش فيها هي التغير الدائم بالحر والبرد (الشمس) والزيادة والنقصان، والوجود والعدم (القمر) الذي يبزغ هلالاً، ثم ينمو كل يوم إلى أن يصير بدراً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يختفي نهائياً، ودورته هذه أصبحت تسمى شهراً (من الهلال إلى المحاق) كما أنه خلق الرياح لواقح، لأن النبات لا تستطيع ذكوره ولا إناثه أن تتحرك من مواضعها حتى تلتقي فيتم تلقيحها بالرياح أو ما يتحرك فوق هذه النباتات من طيور أو حشرات ومع إطالة التأمل يتبين لنا أن الكون يقوم على نظام، في منتهى الدقة، ما تزال

بعض دقائق أسراره خافية علينا، ومن هنا أصبح الحكماء في كل انحاء العالم، وجيلاً بعد جيل، على أن كل ما يعمله ابن آدم من أعمال تغسل نظام هذا الكون عمداً، إنما هو جريمة شنيعة، لو أهمل الناس في مقاومتها، ومحو آثارها، لكان جزاؤهم الدمار، وهو جزاء عادل عن اهمال جرّ هذا الدمار.

أما الذين اعتبروا القمر مؤنثاً فإنهم ربطوه بدورة الطمث الشهرية للنساء، ولاحظوا أيضاً أنه لا يرسل الضوء من ذاته، بل هو مجرد مرآة تعكس نور الشمس وترسله إلى الأرض وكذلك جرت شعوب كثيرة في العالم على اعتبار الشمس رمزاً للرجل والقمر رمزاً للمرأة التي تتبعه، وتستمد منه كل ما تعطيه للعالم من النمور.. وعلى هذا النمط جاء تفسير الشمس والقمر في رؤيا يوسف عليه السلام، فالشمس يعقوب أبوه، والقمر راجيل أمه، ولعلها لم تكن قد ماتت في ذلك الوقت، لأن نفس تلك الرؤيا وتفسيرها وردا بالنص في التوراة أيضاً، وإن كان كثير من المفسرين المسلمين مثل محمد بن سيرين قد جاروا أقدم معبري الرؤيا من اليونان القدماء، فأجازوا أن تكون رؤية القمر في المنام تدل على وزير أو قائد كبير لأنه يعكس تألق الملك كما يعكس القمر تألق الشمس.. وإذا غطى السحاب القمر في المنام دل ذلك على نذير سوء.. وإن رأت المرأة أن القمر في حجرها ولدت غلاماً من أبناء السعادة، إلا إذا اغلقت عليه باباً أو لفتة في ثوب، فإنها تلد بنتاً! وأما ابن شاهين وعبدالغني النابلسي فإنهما فصلا وأطالا في التأويل، لدرجة أن الأخير رتب رؤية القمر في المنام

على البروج الاثني عشر: فرؤيته في برج الحمل خير، وفي برج الثور عكس ذلك، والجوزاء مثله، والسرطان جيد خصوصاً في الزواج، والأسد سيء في أمر المال، وفي السنبلة جيد، وغير ذلك في الميزان، وجيد في العقرب إلا في السفر، وسيء في القوس خصوصاً في الزراعة، وكذلك في الجدي خصوصاً في البناء، ومثله أيضاً في برج الدلو خصوصاً في المعاملات بارسال المندوبين، والقمر في برج الحوت جيد! والله وحده أعلم، وأنا أسوق هنا مثالاً لمحاولات شيوخ من المسلمين تعاطي هذا النشاط المشبوه.

وقال الصينيون اننا نستنزل المطر بالقمر، لأننا لاحظنا أن الطيور المائية يتحسن شكلها وصحتها مع نمو القمر، وتنقص مع نقصانه، وينقلون عن أحد مشاهير حكمائهم (هواي ـ نان ـ تسيو) ان القمر رمز للخصوبة في الطبيعة والإنسان، وللقمر عند كل أمة وجوه وأسرار، أكثر بكثير من وجوهه الفلكية.

التعصب.. وحدوده..

بارك الله في الأصدقاء، سمعوا بوعكة صحية أصابتني - ازعاجها أكثر بكثير من خطورتها - فتقاطروا لزيارتي حتى امتلأ بهم البيت من حولي، وكان صديقنا الشيخ عبدالسلام أول الزائرين، ثم انتظم عقدهم عندي شيباً وشباناً، يسألونني عن مرضي، فأجيب: نزلة برد اجتمع عليها الحر والغبار وكثرة العمل وقلة النوم، فانهزمت أمامها كما ترون! ولأنني أكره الأقراص والحبوب والسفوف واللعوق، وإبر المضادات الحيوية، وما يؤخذ تقطيراً في الأنف، أو غرغرة في الحلق، أو تدليكاً على الصدر والظهر، فقد اكتفيت بالشاي وعصير الليمون وبعض الفاكهة، والظاهر أن نزلة البرد شعرت انني أسخر منها، فغضبت وانقلبت إلى حمى وسعال وعطاس وبلغم ومخاط وصداع وهُزال، وبدأت

✽ جريدة الرياض ٨/ ٢/ ١٤١٦هـ ـ٦/ ٧/ ١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٧٣

ارتعش، وأبحث عن بقيـة من القوة فلا أجدها، وأشـعر في هذا الصيف اللاهب بالبرودة تسري في أوصـالي، ولا تفارقني مهما اثقلت من الأغطية، تماماً كما قال المتنبي:

فرشت لها المطارف والحشايا فعافتها .. وباتت في عظامي!

ولكن ـ والحق يقال ـ كـانت زيارة هذا الجمع الحاشد سـبباً في انتعاشي، إلى أن بدأ الشاب طيفور يقول متلعثماً: ممكن السؤال يا عمي؟ قلت متـخابثاً: عن الحب طبعاً؟ فـرد بسرعة: لا! لا! إلى أن يمنّ الله عليك بالشـفاء. قلت: فمـا السؤال إذن؟ فـقاطع الشيخ عبدالسلام وقال: كان ينوي أن يسألك عن «التعصب» لأنه كان في جـدال مع ابني بيـومي.. وبقية الـعصبـة، إذ منهم من يتعـصب للهلال، أو النصر، أو الوفـاق، أو الأهلي، أو الزمالك .. إلى آخر هذه الأندية الـتي كثرت بينهـا المباريات النهـائية هذه الأيام. وفكرت طويلاً ثم سـألت الشـيخ عن رأيه. فاجـابني بأن التعـصب في الرياضة ومـا يشبـهها أمـر محـمود إذا لم يتـجاوز الحدود. وإذا هم يسألونني عن حـدود التعصب؟ ولم يكن عندي جواب عن سؤالهم فاكتفيت بقولي: من قال (لا أدري) فقد أفتى! قلت: ومع ذلك فـإذا تجـاوزت الحـماسـة حـدودها، حـتى في الرياضـة، وقع الناس في النزاع والشـجار، وفـضـيلتك تعلم أن «حـرب داحس والغـبراء» الـتي أفنت آلافـاً من فرسـان العـرب الصناديد في الجاهلية، بدأت بسباق بين فرسين، ثم اندلع لهيبها، وتركت في النفوس عداوات وثارات لم يطفئها إلا الإسلام. فقال

بيـومي ولد الشـيخ عـبـدالسـلام: لكن الأندية في حـاجـة إلى مشجـعين! قلت: هذا صحيح، وكذلك أهل الفن من الموسـيقيين والمغنين والرسامين والمهندسين والمزخرفين. والتـشجيع هو أسلوب من التحمس والاعجاب، لكن إذا انتقل إلى التطاول على الجانب المنافس، والانزلاق إلى العنف والتآمر والتخذيل فإن ذلك انسلاخ من مكارم الأخلاق التي هي الأسـاس الأول للفضائل الرياضـية، ويكفـينا ما نراه في صـراع الأحزاب السيـاسيـة على السلطة في الدول التي تفخر بأنهـا ديمقراطية، وكيف تغص صحفـها المختلفة بالافتراءات والفضائح بل إلى الدعـوة إلى العنف واغتيال الخصوم أحيـاناً. ذلك أن في التعـصب ريحاً من الحمـاقة، عندمـا يتعطل العقل عن العمل، وتنشط الأهـواء بدلاً منه. وقديماً سئل ابراهيم النظام من أئمـة علم الكلام في أوائل العـصر العـباسي: مـا حد الحمق؟ فقال للسائل: سألتني عمّا ليس له حدّ! والتعصب موقف عناد لا يقوم على منطق أو عـقل، فهو بذلك من فـروع الحمق. فاضاف البـدوي الذكي «انو نغيمش» ان التعـصب ـ طال عمرك ـ شيء لا يجيء من العـقل ولكن من الأعصـاب، مثل الغـضب، والشهوة، والروعة. . ومـا إلى ذلك. قلت له باعجاب: احسنت يا شيخ، وساعدتك اللغة.

قال طيفور: ولماذا اختلف الـعقل عن الأعصاب؟ أجبت: لأن العقل من مهماته تخفـيف حدة جموح الأعصاب ـ ان أمكنه ذلك ـ فهـو كابح للـتطرف، لأن كلمة العـقل معناها في أصل اللـغة (الربط) يقـال (عقلت الدابة) أي: ربطتـها وقـيّدتهـا، وجاء في

حديثه عليه الصلاة والسلام جواباً لاعرابي يسأله: هل أترك ناقتي هنا وأتوكّل على الله؟ (أعـقلها وتوكل): أمـا مادة العـصب فإن أصل معناها التوتر والشد القـوي، يقال يوم (عصيب) أي شديد، والعصابة نسيج يُشدّ على الرأس حتى لا يتطاير الشعر في الهواء، خصوصاً ـ يا حذيفة ـ الشـعر الذهبي الحريري اللامع! ـ وسمعت الضحك المكتـوم من بيومي وطيفـور وسراج. وسأل هذا الأخـير عن حرب (العـصابات) قلت: هي مـجاميع من المحـاربين تقوت باجتـماعها على هدف واحـد، وكذلك العصبـة، فكل هذا معناه القـوة والشدة والـتجـمع ولأن العـصب هو الذي يقف من وراء العضلات والأربطة والمفـاصل فيمنحها قوتها وشـدتها، بحيث إذا انهارت الأعـصاب فقد الانسـان تماسكه، أما إذا انهار العـقل فإن الإنسان يصـبح كالسيارة السـريعة إذا تحطمت كوابحهـا فانطلقت على غير هدى. وآسف جداً على هذه الثرثرة اللغوية التي كان لا بد منهـا للحـديث عن التـعـصب، الذي هو التـشرد والتـقـوي والاصرار. وهو بدرجـة معـقولة مـحمود ومطـلوب في أغراض الخيـر. فأنت تتـعصب للحـق، والخير أي تطـالب بهمـا وتدعو إليهـما. وتتعصب لوطنك، أي تـتمسك بأمنه وحريتـه ورضائه، لكن . . إياك أن يجرك هذا إلى التعصب ضد (أوطان) الآخرين، وإلا كان هـذا جنوناً: مثل تعـصب اليهـود ضد عـرب فلسطين، وبالتالي ضد العرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومثل تعصب الروس ضـد الشيشان، وضـد كل الأقليات القومـية التي تطالب بالانعتاق من العبودية للروس. وكـانت روسيا قد عبرت

على لسان رئيسها المتعصب، بوريس يلتسين ـ ان الشيشان إنما هي مجرد نتوء صغير جداً في جنب روسيا ذات الهول والحول والهيل والهيلمان، يمكن محوه من خريطة الوجود في بضع ساعات، وهب بهذه العصبية الجارفة ينشر الموت والدمار والرعب والغضب الوحشي على رؤوس أولئك المسلمين الصامتين. وكان زعيمهم جنرال الطيران السوفياتي في أيام العزّ «جوهر دوداييف» راسخاً كالصخرة! كانت الأعصاب المتوهجة بلهيب الفودكا تناطح العقل المسلم المطالب بالحق. ومضى نصف عام على تلك الرؤيا المزعجة، وأفاق يلتسين من سكرته مراراً، فلم ير في النهاية إلا المفاوضة طريقاً للنجاة، بعد أن كاد البرلمان في موسكو يقف في وجهه هو وأعوانه من المتعصبين. وتتكرر المهزلة على نحو اكثر عاراً في البوسنة والهرسك، حيث يرفع الصربي «ريدوفان كاراذيتش» راية التعصب العنصري والديني واللغوي في وجوه المسلمين!! والكل يعلم أن العنصر الصربي والكرواتي والجبل الأسود والسلوفيني ليس عنصراً إلا في خيال أولئك الأفاقين، فهم (عنصرياً) أخلاط وانشاج من البلغار والغجر والنّور، سقطوا من قلب آسيا في هذا البلقان السيء الحظ بمن فيه من هذه العشائر الراسبة في قاعة كالحثالة. وهم من الناحية الدينية لم يخرجوا من ظلمات الوثنية إلى مذهب من المذاهب المسيحية إلا بعد بعثة المسيح بألف سنة! وليتهم كانوا على مذهب واحد، وعلى مبدأ ثابت، من أخلاق المسيح عليه السلام! والواقع انهم شراذم شتى تؤمن بالعنف مثل «المافيا» لولا ان قامت لهم إمارة تحت حماية

الجيـران، أصبـحت «مملكة» على رقعـة اوروبية تلعب عليـها ممالك كـبيرة أخـرى النمسـا والمجر وتشـيكوسلوفاكـيا وبريطـانيا وايطاليا واليـونان وتركيا ورومانيا وروسـيا لعبة شطرنج، أوقـفها هتلر بتعـصبه الجـرماني الممقوت، ثم لعب عـليها تيتـو بعد زوال شبح هتلر لعبة العمر التي لن تتكرر مـرة أخرى في يوغوسلافيا، لأن دول الحلفاء أرادت ذلك، وفضت النزاع عـلى البلقان بعد أن حررت أوروبا بأكملها من العصـبية العنصرية النازية. ولو كان في القوى الدوليـة الآن رجل رشيد لقرر ان يسـحق رأس هذه الأفعى بضربة قاضـية، لولا ان كلاً من الأطراف ذات العلاقـة يخاف من الآخر، ولذلك وضعوا عنهم اثنين من الـغرباء تماماً على المنطقة: الرجل الطيب الهادىء يازوشي أكاشي من أقصى الشرق في آسيا، والوزير السـويدي من أقـصـى الغـرب في أوروبا! والـصـرب والكروات والجبل الأسـود ترعرعوا في حل السيـاسات القذرة لا يستـطيع التعامـل معهم رجل شـريف إلا بالنعل أو العـصا. . أو السيف، ولكن ذكـر السيف ممنوع مراعـاة لخاطر يلتسين، وخـوفاً منه وهو شـبح أصبح لا يخـيف احداً حـتى جيـرانه في البلطيق (ليـتوانيا واسـتونيـا ولاتفيـا)، ولا جيـرانه في العالم الإسـلامي (الشيشان ـ أوزبكستان ـ طاجيكستان ـ افغانستان. . الخ).

قـال الشيخ عـبدالسـلام: الخلاصـة ان فقـدان العقل يسـبب الجنون، وفقدان الأعـصاب يسبب الجنون أيضاً. فقاطعـته قائلاً: مهـلاً يا مولانا! إن فـقدان العـقل إما أن يؤدي إلى الجنون كـما قلت، أو إلى نوع من الذهول الفكري، ونقص الادراك، يـصبح

به فاقد العـقل أقرب إلى فصيلة التيـوس منه إلى فصيلة بني آدم، بحيث لا يستطيع ان يعـيش مع الناس، كما قال جميل بـن معمر في غزل لبثينة:

وإن قـلت ردي بـعض عـــــقلي أعش بـه

مع الـناس .. قـــالـت: ذاك منك بـعـــيـــد

فصــاح سراج: الله! أعد! فنظر إليـه الشيخ عبدالســلام قائلاً وساخراً ذلك منك بعيداً.

أم التـعـصب فليس جنوناً كله، بل إن أكـثـره جـهل، وشلل فكري وثقافي، وظلمات بعضها فوق بعض. وسأقرأ لكم سطوراً من كتـاب (إخبار العلماء بأخـبار الحكماء) لابن القـفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ تفصح عن العـلاقة العضوية بين الجـهل والتعصب. ففي ترجـمة العلاّمـة عبدالســلام بن عبـدالقادر الجيلي البـغدادي المدعو بالركن، يذكـر أنه اتهم في دينه لتبحره في فلسـفة اليونان والهنود: أو ما يسمى (علوم الأوائل) من المنطق والطب والكيمياء والهندسة والفلك، حـتى وشى به بعض الحاقدين فـصودرت كل كتبه، وخرج الأمر باحراقها علنـاً في ميدان ببغداد اسمه الرحبة، ويقول ابن القفطي: واخبـرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي، قال: كنت ببغداد يومئذ تاجراً، فـحضرت المحفل، وسمعت كلام ابن المارستانيـة (عبدالله التيمي البكري) وشـاهدت في يده كتاب الهيئـة (خريطة السماء) لابن الهيـثم، وهو يشير إلى الدائرة التي مـثل بها الفلـك، وهو يقول: وهذه الداهيـة الدهمـاء، والنازلة

الصماء، والمصـيبة العميـاء! وبعد تمام كلامه خرقـها وألقاها إلى النار! قـال: فاسـتـدللت على جـهله وتعصـبـه، إذ لم يكن في (الهيئـة) كفر، وإنما هي طريق إلى الايمان، ومعـرفة الله عز وجل فيما احكمه ودبره. واسـتمر «الركن» في السجن إلى أن أفرج عنه رابع عشـر شهر ربيع الزول سنة تسع وثمـانين وخمسمـائة! وقانا الله وإياكم الجاهلين المتعصبين!

ما غريب إلا الشيطان

أسرعت بشوق ولهفة إلى جرس الهاتف يناديني بباريس، وكان صديقنا الشيخ عبدالسلام، يقول بصوته الأجش: أوحشتنا يا أخانا! فأجبت ضاحكاً: وأنا أكثر! قال: أشعر ـ والحمد لله ـ أن صحتك الآن احسن، من السرعة التي رددت بها على ندائي، قلت: الصحة طال عمرك ـ كما هي، إذ مازلت انتظر موعدي مع المستشفى بعد أيام، قال: فهذا النشاط نحو الهاتف لا بد أن يكون على أمل أن تسمع صوتاً رقيقاً رخيماً حبيباً.. لكن قل: بالعربية أم بالفرنسية؟ قلت متخابثاً: الهاتف عندنا يقوم بالترجمة الفورية وحده! قال: لا يا شيخ؟ وقلت: وفضيلتك تعلم أن لغة القلوب لا تحتاج إلى ترجمة. قال: خطأ! فموسى عليه السلام احتاج إلى وزير من أهله، هارون أخيه، الذي كان أفصح منه لساناً، ليقوم

✿ جريدة الرياض ١٥/٢/١٤١٦هـ ـ١٣/٧/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٨٠

بالترجمة الفورية بينه وبين فرعون. أجبت: لم تكن هذه بلغة الحب والغرام، بل كانت لغة التحدي والتبليغ والتهديد. قال الشيخ مداعباً: من يدري؟ ربما كان فيها بعض الملاينة والدبلوماسية مثل لغة ياسر عرفات مع شمعون بيريز. رددت قائلاً: القياس مع الفارق، فموسى يبلغ فرعون كلام الله، أما بيريز وعرفت فهما يتبادلان آراء منظمة التحرير الفلسطينية ووجهات النظر الصهيونية . . المعتدلة إلى حد ما.

قال الشيخ: المعتدلة عندنا، أو عندهم؟ أجبت: عند الطرفين، فاليمين الصهيوني الرابض وراء شعاراته الموروثة من القرن التاسع عشر، مازال يرفض خطوات السلام التي يقترحها بيريز ورابين، واليمين الفلسطيني (حماس) يعتبر دبلوماسية منظمة التحرير خيانة. قال الشيخ: وأنت ماذا ترى؟ أجبت: أدعو للطرفين، أو للأطراف كلها، بالهداية، والوقاية من الايرانيين والروس والأمريكان والصين، حتى لا تغرق القضية في مستنقعات الأهواء الدولية، مثل الصومال والبوسنة والهرسك، ففي العالم يا مولانا لا يتنازل أحد عن شيء لأخيه إلا مقابل شيء آخر، والسلام لا يأتي بالأحضان والقبل، بل بالمنافع، أما الأحضان والقبل فعملة خاصة بالعشاق فقط! قال: أنت أدرى ولكن قل لي: هل انت سعيد في فرنسا؟ أجبت: كيف أكون سعيداً وأنا أعيش في بؤرة صراع مرير بين الشرق والغرب، يزداد مرارة كل يوم، لا سيما على أثر سيطرة المتطرفين الاسلاميين الجزائريين على طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، وإعلانهم ان جميع ركابها رهائن في

أيديهم؟ ثم هجوم كتيبة التدخل على الطائرة في مرسيليا، وقتل المتطرفين الأربعة. ودخول الكثير من الإعلاميين الغربيين في حملة على الإسلام والمسلمين، زادت عنفاً وسوءاً بعد أن قام متطرفون آخرون باغتيال أربعة من رجال الدين الكاثوليكي في الجزائر.

إن الحضارة الغربية قشرة رقيقة يختفي تحتها الوحش، وإذا أزيلت هذه القشرة استوى الإمريكي في نيويورك والزولو في افريقيا وعضو الأكاديمية في باريس أو لندن وعضو المافيا في كولومبيا أو صقلية. والإعلاميون الصائدون في الماء العكر يبذلون النفس والنفيس في إحياء «الحروب الصليبية» هم ومن ورائهم من تجار الأسلحة في السوق السوداء.

قال الشيخ: أفهم من ذلك أن احوال النفسية ليست على ما يرام؟ قلت: أنا كما قال الشاعر:

يا رحما للغريب في البلد النا   زح آه ماذا بنفسه صنعا؟

فارق احبابه، فما انتفعوا   بالعيش من بعده، ولا انتفعنا

قال صاحبي: أذكر ان لك شعراً في «سيرة البهلول» سمعته منك فاعجبني، فهل تتذكر منه شيئاً؟ قلت: أتذكر منه شذرات، من هنا وهناك، وكان البهلول، قد رحل إلى أوروبا، وهناك تذكر دياره واحبابه، واستبد به الحنين، ومطلع هذا الشعر:

نار بقلب غريب الدار تتعد   لا سيما عندما ينبو به البلد

ثم تذكر شظايا من شعر قدماء العشاق، فأخذ يحوم حولها

جاهداً ويقول:

«بنتم وبنا» .. ولكم مني قسم
«وجداننا - والله! - بعدكم عدم»
وجنة الخلد بلا حب سأم..
والعيش مر .. بين يأس وندم
قولوا له: أحبه.. نعم! نعم!
«أحبه أحبه .. ولو ظلم»
والشوق يرسم في قلب الفتى صوراً
من أرضه، سحرها يعنو له الأبد
ترف من فوقها للحب أجنحة
كأنها جنة المأوى لمن وعدوا
سياحة في رؤى اسطورة عجب
بها الحنين إلى الأوطان ينفرد
تاعاد يبصر فيها الفقر مفترساً
انيابه الجور والارهاب والنكد
كلا، ولم ير من طيف النساء بها
سوى ظباء لها يستسلم الأسد
الهدب فوق نعاس الحب منسدل
والصدر تحت الإباء الحر مرتعد

وفي بريق الثنايا عـــربدت فتن

الماء والنار والصهبـاء والبـرد

يا ويح صاحبنا! لما استبد به

عذاب غربته، والقرب مفتعد

وصاح: لا!: فالهوى العذري في بلدي

أنا الشقي، وفيها الأهل قد سعدوا

يا ويح لي! هاشي حيثما ذهبت

رجلاي في الأرض .. لا أهل ولا ولد

قال الشيخ: سبحان الله! تقول العامة عندنا في مصر: ما يوسخ المربط غير الحمار الغريب! قلت ضاحكاً: لا تعتمد يا مولانا على أمثال العوام، فقد قالوا ايضاً: الاقارب عقارب! أجاب: ولكننا نتحمل الكثير من أذاهم، ولا نتحمل القليل من الغريب، قلت: كلامك صحيح، والغريب قريب في كل مكان، حتى في أكثر البلاد تقدماً وادعاء للديمقراطية، والغربة تكون باللغة، وبلون البشرة، وبملامح الوجه، وأيضاً بالدين، وكذلك بالمذهب في الدين الواحد. لقد كفرت روسيا بالأديان منذ أكثر من ثمانين عاماً، ومع ذلك فهي تدافع عن حثالة من الصرب لأنهم مسيحيون مثلهم، وأرثوذكس من نفس مذهبهم ويصلون في دفاعهم عن أولئك المجرمين إلى السكوت على تهريب الأسلحة إليهم، بل إلى استخدام حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن لاسقاط اتفاق دولي يمكن المسلمين في البوسنة والهرسك من

الخلاص من العـدوان الصربي المتـمسك بتـدمير الإسـلام بالمذابح والتـهـجـيـر واغـتـصـاب الأرض والغـذاء والدواء والأعـراض والممتلكات، بعد أن باؤوا بالخزي وبالهـزيمة المخجلة أمام الاسلام في افغانستان، ثم عاد الروس اليوم بنفس الحقد على الاسالم إلى عـدوان ظالم على المسلمين الشـيشـان، وقد تـبين جهلهم حـتى بطبيعة هذا الاقليم، فهم يضربون عـاصمة الشيشان، وهي ليست بمكمن المقاومة في تلك البلاد الجبلية الوعرة التي يمكن أن تمتد فيها المقاومة وحرب العصابات أجيالاً دون أن يسلموا سلاحهم للروس كمـا أمر بذلـك الرئيس المتربع على أنقـاض ما بقي مـن الاتحاد السوفياتي، بوريس يلتسين.

قال الشـيـخ: وألمانيا التـي تركت «اللاسامـية» الهتلريـة بعد ان ضربهـا الحلفاء في الحـرب العالميـة الثانية، تجـعل من المس لمين الأتراك العاملين في ربوعها بناء عـلى رغبتها وطلبها وتشجـيعها، عدواً شـعـبياً مـقرراً للكراهيـة والمطاردة والتعـذيب لمثل المسلمين المغـاربة في فرنسـا، والمسلمين البنـغال والهنود والبـاكـستـان في بريطانيـا، والمـسلمين الأندونيـسـيين في هولـندا. . وهذه ظاهرة تستحق الدراسة الدقـيقة العميقة قـبل أن يتعرض الإسلام كله إلى (اجماع) عدائي من العـالم كله. وقلت لصاحبي: على أن تتناول هذه الدراسةظاهرة التطرف الإسلامي المتولد من هـذه العصبيات، ليشـمل تفاصـيل الفروق الاجتـماعـية والاقتـصادية والحـضارية والعـسكرية بين جـمـيع الأطراف المتنازعـة. قلت ضـاحكاً: ألم تلاحظ يا مولانا ان جـميع العصبيـات العرقية والدينيـة والمذهبية

والاقليميــة واللونية، تتلاشى أمام الحب؟ صــاح: يا للهول! هذا صحــيح، بل ان الجمــال الغريب في الــذكور والإناث له جــاذبية خاصــة: الأسود يعشق الشقــراء، وهي تهيم بالأسود والأســمر، والعربي ـ بعد الاســلام ـ كان سهل الوقوع في حب الفــارسيات والروميات والمصريات، والأندلسي يتغنى بجمال البربر، والسوري والعراقي كانا يحنان إلى الخزر والتــتر والياقوت والقلمون والخطا، والجميع كانوا في مطبخ الحروب الصليبــية يختلطون وينسجمون، قلت: نعم! وفي أســمــاء العــائلات الأوروبيــة «ســارازان» وهو «العربي» في لغات الصليبيين، وأسكالوني، ودماسي، وموزولي، أي العسقلاني والدمشقي والموصلي، كما نجد في أسماء العائلات الاسلامــية «الأفرنجي» أي الــصليبي والرومي والهندي والعــجمي البشناق (من البوسنة) والأرناؤوطي (من البانيا) والتبريزي والتركي والصين. . . الخ، وكــان الناس في غــرامبــاتهم كانــوا بنعمــة الله إخوانا، يصــدق عليهم بيــت من الشعر للــشيخ محــيي الدين بن عربي قــاله في الحب الإلهي، ولكنه يصح في الحب الذي تلــتقي فيه القلوب بين الرجال والنساء، ولا يعلم سر ذلك إلا الله:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه .. فالحب ديني وايماني

قال الشــيخ متــحيراً: فــرأيك أن الحب هو الصورة الطبــيعــية الربانية للديمقراطية، وأن العداوة والبغضاء والتعصب والتطرف هي من عمل الشيــطان؟ قلت متهرباً من الاجابة: ولا تــنس التعصب الجنسي ايضــاً يا مولانا، فــتطرف الرجل في التحكــم في مصــير النســاء ليس من الدين في شيء، وفي احــصــاء فــرنسي تبين ان

عشرة في المائة من الأزواج الفرنسـيين يضربون زوجاتهم في جيلنا هذا، وهي نسبة عـالية جداً، قال الشيخ عبدالسـلام: كان عليهم احصـاء الزوجات اللاتي يضربن أزواجـهن أيضاً. قلت: اسكت حتى لا تسمعك زوجاتنا.

لماذا انقرضت النعامة؟..

سـؤال آخر أطرحـه على نفـسي قـبل هذا، وهو: لماذا فكّرت اليـوم في النعـامة؟ بصـراحة كـنت أتطلع إلى شاشـة التلفـزيون بباريس، وكان المشـهد المعروض لآخر مبـتكرات الأزياء؟ النسائية في هذا الشتاء، ولم اهتم بأسراب الغواني الحسان اللائي يتحركن تحت الأضواء المختلفة الألوان، بقدر اهتمامي بالكثير من «الزوائد» الداخلة في زينتهن. ولاحظت كثرة ريش النعام في تلك الزوائد: على الصدور، وعلى الأعطاف والأكـتاف، وعلى القبـعات، ولم أسأل نفـسي من أين حصل مـصمم هذه الزخـارف على كل هذا المقدار من ريش النعام، لأن الألياف الصناعية تأتي في هذا الزمن الكذاب المنافق بالعـجب العـجـاب، ولو كان ريش الـنعام بهـذه الغزارة لما يئست ـ وأنا الفقيـر إلى الله تعالى ـ من تصوري نائماً

✿ جريدة الرياض ٢٢/٢/١٤١٦هـ ـ ٢٠/٧/١٩٩٥م ـ العدد ٩٨٨٧

على ريش النعام، وهو الغـاية في النعمة والنعيم والنعـومة، أنعم الله علينا وعليكم! وان كنت أتصـور صديقنا الشـيخ عبـدالسلام يقول لي ناصحاً: اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم! فأقول له: نعم! وهي من أرق ألفاظ لغـتنا في الجواب بالايجاب وقـد حلّت محلّ «إي» التي تقـال للموافـقة المحايـدة، وتتأكد أحـياناً بالـقسم «إي والله» التي يرى الإمام الزمخشري انها تآكلت من كثرة الاستعمال بحيث أبقى المتكلمون على واو القسم دون لفظ الجلالة، فصار في عامياتنا «إيوَ» أو «أَيوَ» أو «أيوه».

ولم أقل أيوه أو نعم لأي من تلك العرائس التي تتمايل وتتأوَّد وتميس على الشاشـة لأنني كنت أفكر في النعامة، أكـبر طائر في عالم الحقيقة، لا في عـالم الأساطير، ذلك أن (الرُخ) أكبر منها، ولكنه خـرافة، إذا نشر جناحـيه على قـوم حجب ضـوء الشمس وغمرهم الظلام، وكذلك (العنقاء) وهي أيضاً طائر خرافيٌّ يعيش ألف سنة إلى أن يشعر بأن (شبابه) قد بدأ يوليّ، فيعبر البحار إلى أن يصل إلى بادية الشـام والعـراق ونجـد، فيـربض تحت شـمس الصـيف المحـرقـة إلى أن يشب اللهـيب في ريشـه العـتـيق هذا فيـحتـرق! وتنفض العنقاء رمـاده، فينبـت لها ريش آخـر جديد يصحـبها ألف سنة أخـرى، ودعوني أحـسدها، فقـد بدأ الشيب يشتعل في رأسي قبل أن أبلغ العشرين، حتى عم شعري كله ـ أو ما بقي منه ـ مع أنه صـحبني في بادية العراق والشـام ونجد سنين طوالاً، كما عرف نيران الحروب، وجمر الشوق الذي لا ينطفىء، ولهيب الحب الذي لا يخمد، فلم يزده ذلك إلا نصوعاً وسطوعاً

أو أذكر انني قلت ذات يوم ـ منذ عهدي البعيد، أي وأنا مقبل على العشرين من عمري ـ شعراً بدا هكذا:

ما بالصبابة يستثار نشيدي

كلا.. ولا بالوجد والتسهيد

قد شاب شيطاني.. وشاب زمانه

وأفاق من سحر العيون السود

وأكاد الآن أسمع شيطاني يسخر مني قائلاً: أنت شبت؟ ربما! أما أنا فلا، كما انك لم تفق!

وكان عليّ أن أغيّر مجرى الحوار، فقلت لشيطاني: هل تعلم أن الطائر الخرافي اليوناني (الفينيكس) هو العنقاء، وانهم كانوا يرسمونه على شكل النخلة بسعفها، يتراقص فيه اللهيب إيذاناً بعودة الشباب؟ فأجابني: وهل تعلم أنهم سموا الساحل الشامي للبحر حيث يطلّ عليهم النخيل: أرض فينيكس، أي فينيقيا؟ ثم قال لي: وهل تعلم أن البشر جميعاً كانوا يضيقون ذرعاً بالشيخوخة، ويبحثون عن أدوية وعقاقير لتجديد الشباب، فلا يحصلون من ذلك إلا على نتائج محدودة جداً، ولا أقول هذا إلا من باب التأدب والمجاملة. قلت ودخل هذا في الأساطير، ولابد ـ إذا كنت شيطاناً مثقفاً ـ من انك تعرف أسطورة البطل البابلي (قلقامش) الذي وقف أمام الموت حائراً: فهو يعتقد أن الإله أبدي وانه حي لا يموت، والانسان يشبهه في أنه ناطق وعاقل وحكيم ـ بإذن خالقه ـ ولكنه يموت، كما يموت الحمار، وأصبحت هذه

المعضلة هاجساً يؤرقه ويستولي على تفكيره، إلى أن سمع من بعض أسلافه أن الآلهة تأكل من (الشجرة المحرَّمة) التي لم يصل أحد من البشر إلى مكانها! فأراد هذا البطل الأسطوري أن يحصل ـ بأي ثمن ـ على غصن من هذه الشجرة، فيزرعه في أرض بابل، فيأكل منه الناس، ويستريحون من الشيب والهرم والموت، وبعد مغامرات هائلة عرضت له «عشتروت» إلاهة الجمال والحب والجنس عندهم، فأخذته، وهو يتبعها دمياً سلساً، إلى أن ألقته في الجحيم! وآمن قومه برجوعه، ونشطوا إلى مساعدته بدراسة كل الأسرار الطبية الموجودة في جميع النباتات التي يعرفونها، وانقضى أمر القوم بالموت، دون أن يرجع إليهم البطل، ولكن الصيدلة تقدمت بخطى عملاقة.

ومن الشجرة والنخلة والفينيكس، تظهر لنا النعامة في بيئتها الطبيعية طائراً جميلاً طويل العنق جداً، دعوه بحق العنقاء. وكانوا يعشقون النظر إليه، وأكل لحمه، ويضربون المثل ببيضه في النقاء والجمال. وكان الفراعنة في مصر يعرفون النعام، ربما من قبل مجيئهم مع مجرى النيل من قبل القارة الافريقية، وكان ريش النعام يضرب عندهم مثلاً ورمزاً للعدالة والحق، ويعتقدون ان كل شعرة في الريشة تساوي أختها طولاً، ولا يعتريها القصر كلما اقتربت من طرف الريشة كما هي الحال في سائر العصافير والطيور، وصبروا على رسم آلهة العدل (معت) متوجة بأكليل من ريش النعام، عندما ترأس جلسة محاسبة الناس على أعمالهم في

الدنيا. وكان المسؤولون في الدولة الفرعونية ـ ابتداء من فرعون نفسه ـ يميزون أنفسهم بحمل مهشة من ريش النعام، يطردون بها الذباب، ويرمزون بها إلى عدالتهم! ولو بحثنا في الأساطير الفارسية القديمة لوجدنا عن النعامة الكثير مما يستحق الذكر، فهي تسمى في لغتهم «شتره مرغ» أي البعير الطائر. ونحن نعلم ان بعض ذوات الأربع كانت تصور بجناحين، إشارة إلى تكريمها وتقديسها. فالثيران الحارسة للمعابد والقصور، كانوا ينحتونها برأس انسان وجناحي نسر، وكذلك بعض الكائنات العلوية ـ أو السفلية ـ كانت تزوَّد بجناحين أو أربعة أو ستة بحسب الأسطورة التي تتحدث عنها، وكانت الأجنحة ـ للشياطين فقط ـ تشبه أجنحة الخفاش. وقد انتبه شعراء العرب إلى تسمية الفرس للنعامة بالبعير الطائر، وسخروا من هذه التسمية، فقال شاعرهم:

ومثلُ نعامة تُدعى بعيراً
تعاصيّنا إذا ما قيل طيري
فإن قيل احملي.. قالت فاني
من الطير المرفه في الوكور

وإذا كانت النعامة طائراً لا يطير، فقد أوتيت في ساقيها بسرعة في الجري تغنيها عن الطيران.

ونقل زكريا القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات» ان النعامة حيوان صحيح حاسة الشم والسمع، خلافاً للدميري في كتابه

«حيـاة الحيـوان» الذي زعم انها صـمّاء لا تسمع ولكـنه يؤكد أن حـاسة الشم عـندها قوية تـغنيهـا عن السـمع، وهو قـول غيـر صحيح، وظن بعض قدماء الباحثين في طبائع الحيوان انها مخلوق وسط بين الإبل والطيور، فهي تبيـض ولها ريش ومنقار، ولكنها لا تطير. واعترض الجاحظ في كتابه «الحيوان» بأن الدجاج لا يطير أيضـاً، ولكن لا خـلاف في كـونه طائرا، وعـجب ممن يعـدون الخفـاش من الطيور مع أنه يلد وليس له ريش ولا منـقار، ولكنه يطير! ولذلك أجمع الـفقهاء على تحريم أكله. أمـا لحم النعام فلا خلاف في أن أكله حـلال، وانه من الطيبات. ولأنه يعـيش عادة في القفار والصحراوات فقد عدّه الناس من الصيد الثمين، وهذا ـ إلى جانب نعومة ريشه ـ من أهم أسباب انقراضه، في أقاليم يكثر فيها الجوع، ويعتمد أهلها على الصيد.

قالوا: وعظام ساقيها لا نخاع فيها، فإذا أصيبت بكسر عجزت النعـامة عن الطيـران، وبقيت إلى أن تموت، وهذا غـير صـحيح أيضاً، ولكن لثقل بدنها، وانها من ذوات الساقين لا الأربع، فإذا انكسرت إحدى ساقيها تعذر عليها القيام والحركة.

ودخلت النعـامة في أمـثال الناس فـقالوا: شـالت نعامـته أي مات، ويقـولون ركب جناحي نعامة، أي لاذ بالفـرار، ويضربون بها المثل في الحماقة، لأنها قد تبتعد عن وكرها، فترى بيض نعامة أخرى فتحضنه، قال ابراهيم بن هرمة:

كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيض أخرى جناحا

ومن غرائب النعـام انه يبتلع الجمـر والحديد والحصى ويتـغذى به ويهضـمه ولا يضره ومن التراث الشـعبي ما حكاه كعب الأحـبار مـأخوذاً من الاسـرائيليـات، قال: لما أهبط اللـه تعالى آدم عليـه الصلاة والسـلام، جاءه ميكائيل بشـيء من حب الجنة وقال: هذا رزقك ورزق أولادك من بعدك. قم فأحرث الأرض وأبذر الحب! قال: ولم يزل الحب مـن عهد آدم إلى عـهد ادريس عليـه السلام كبيضة النعامة! فلما كفر الناس نقص إلى بيضة الدجاجة، ثم إلى بيضـة الحمامة، ثم قـدر البندقة، وكان في زمن العـزيز على قدر الحمـصة! ورؤية النعـام في المنام تدل على نعمـة سابغـة وزوجة صالحة وفرج قريب.

والله أعلم!.



جهنم.. السياحية!..

ليس هذا العنوان من وحي الصيف، ولا من وحي العربدة الصربية في سراييفو أو غيرها من البلدان الاسلامية في البوسنة والهرسك، ولا من إصرار الرئيس الفرنسي الجديد «جاك شيراك» على مواصلة تفجيراته الذرية، على بعد أكثر من عشرين ألف كيلومتر من باريس، جرياً على سنة سلفه «دي غول» الذي كان يؤمن - إلى جانب بطولته في تحرير فرنسا من القدم الهمجية الهتلرية - بضرورة القدرة على أن يقول (لا) للأمريكان، وبأن ذلك لن يتأتى إلا بالقوة الضاربة الرادعة، وكأن الزمن من دي غول إلى شيراك - وهو أكثر من ربع قرن بكثير - لم يتحرك في العالم كله، وانه ما زال مركوناً إلى جدار الانتظار!.. فمن أين جاءتني فكرة هذا العنوان؟ من كتاب ظهر في فرنسا في العام

✽ جريدة الرياض ٢٩/٢/١٤١٦هـ-٢٧/٧/١٩٩٥م - العدد ٩٨٩٤

الماضي بعنوان (تاريخ مبـهم) للعلامة «جـورج ميلنوا». . وظننت في البداية أن الكتاب أبدعه مؤلفه للتسلية. . اي والله! ولما كانت التسلية عزيزة المنال في هذا الزمن الغبي الثقيل الظل، فقد أخذت الكتـاب مـتفـائلاً ـ على الرغم من عنوانه ـ ومـسـروراً. . ومنذ الصفحـات الأولى وجدته دراسة عميقـة وجادة لفكرة العذاب في الآخـرة في جـميع المـلل والنحل والأديان، وبأسلوب لا تعـوزه التسلية في هدوئه وبعده عن الخـطابيات أو الوعظيات، لدرجة أنه وهو يعرض لفكرة العذاب الأبدي بعد الموت عند فلاسفة اليونان، (اقتـبس) سخرية من سـخريات الأديب الفرنسي القـديم «رابيليه» من القرن الخامس عـشر الميلادي، حيث كان من أوائل من كـتبوا بالفرنسيـة ـ بدل اللاتينية» واخرجوها بذلك من حضيض الـعامية إلى أوج الفصاحـة. . كان يصف في روايته الطويلة (جـرجانتوا) جـولة سيـاحـيـة) في جهنم، رأى فـيـهـا الفيلسـوف اليـوناني (يوجينسي) وهو من زعماء المدرسة «الكلبية» في الفلسفة، سماهم الناس بذلك لأنهم كـانوا لا يتوارون عن أنظار الناس فـي كل ما تفرض التقاليـد التستر فيه، في الحمـام وفي مخالطة النساء، وفي شرب الخمـر، والغناء، والرقص وغيرها. . فكانوا يتصرفـون كما تتصرف الكلاب تماماً. . وأضع بين قـوسين ان التصوف الاسلامي كانت فيه طريقة شبيهة بالكلبيين تسمى «الملامتية» أو «أهل الملامة» وكانوا يقولون ان المتصوف الزاهد في نعيم الدنيا يجد عوضاً عنها في احترام الناس له وتبركهم به، كلما رأوه كـثير الصلاة والصيام والقيـام. . وان الزاهد حقاً هو من يزهد حتى في احـترام الناس

له، ويأتي أفعالاً يستهجنها الناس، فيثورون في وجهه، ويواجهونه بأشد الملام، وكان «ديوجينسي» شديد التقشف في الدنيا، يسكن في خابية كبيرة مكسورة من الفخار، ويرى ان عذاب جهنم لن يكون بالنار أو بالزبانية أو بالزمهرير، بل بالندم المؤلم، على ما عمل في دنياه من أعمال الغفلة والغباء! ويفاجأ رابيليه بصاحبنا جالساً في وسط جهنم إلى مائدة أنيقة عليها من ألوان الطعام والشراب ما لا يخطر بالبال، وحوله كوكبة من الصبايا الجميلات الفاتنات، وهن يخدمنه، ويدللنه ويداعبنه، وقد توجنه بالزهور والرياحين! غير معقول! كل هذا في جهنم! انها قطعة من الجنة! وسأله السائح فأجاب: اسكت.. انني أعذب بالندم على ما حرمت منه نفسي في الحياة الدنيا بلا مبرر! جنبك الله الندم على ما فات!

وعدت إلى الكتاب من أوله، فرأيت المؤلف يتعامل مع موضوعه بذكاء وصبر، ويبدأ فيه بأن العذاب الأخروي كان في اعتقاد البشر البدائيين (جماعياً) لأن المسؤولية الفردية لم تكن قد ظهرت بعد.. فالأمة التي تتفشى فيها الرذيلة، تسلط (الآلهة) عليها الطوفان أو الدمار أو الوباء، أو القحط، أو الحرائق التي تأكل الأخضر واليابس، فإذا ماتوا ابتلعتهم احشاء الأرض، ولم يبعثوا أبداً.. أما القبيلة أو العشيرة أو الأمة الفاضلة فإنها وحدها تبعث، وعبورها من الموت إلى الحياة الأبدية، يبدأ بقنطرة ـ أو صراط ـ تطور بعد ذلك إلى أن كان عبوره صعباً محفوفاً بالمخاطر، خصوصاً عندما بدأ الضمير الانساني يدرك الفرق بين

الاستقامة والاجرام.. حيث تحول الصراط إلى معبر يتسع للصالحين ويضيق للطالحين فيسقطون منه إلى هوة الموت الأبدي الذي لا بعث من بعده.. ثم يمضي المؤلف في وصف تطور المسؤولية الشخصية، وانها عرفت في ظل الحضارات القديمة الضخمة المزودة بشرائع ومحاكم وقضاة، فتصوروا الآخرة على غرار نظامهم في الدنيا: المصريون ـ البابليون ـ اليونان ـ الهنود ـ الرومان، ثم وقف عند الديانات السماوية، فلاحظ أن موسى لم يأخذ عنه بنو اسرائيل أي ذكر لما بعد الموت، في ما رووه عنه من التوراة. وتساءل المؤلف: لعل السبب ان مجتمعهم على أيام موسى ما كان فيه شيء من ملامح الدولة، كانوا في التيه بهذه الصحراوات، ينزل عليهم طعامهم من المن والسلوى كل يوم، وكانت مشاكلهم الصغيرة لا تحتاج إلى شرطة أو سجون أو جلادين، وكان حلها إلى شيوخ العشائر.. ولم يعرف اليهود البعث والنشور والحساب إلا متأخرين، حيث بدأ المظلوم منهم، إذا كان ضعيفاً يسلم أمره إلى الله، لينتقم من ظالمه، وقد انتقم الله لأولئك المظلومين فسلط الحروب العاتية على اليهود حتى أزالت ملك الظالمين، واخرجت الجميع من ديارهم فشهد المظلوم ما حل بالظالم من الوبال وجاء أنبياء اليهود أثناء هذه الكوارث وبعدها فتكلموا عن «يوم الرب» بما يظهر منه انه «يوم الحساب»، ثم ظهر المسيح عليه السلام فأفاض هو والحواريون في تذكير الناس بالآخرة وما فيها من ثواب للمؤمنين، وعقاب للعصاة، ثم فصل الاسلام في ذلك.. وكانت آيات القرآن الكريم في الوعد

والوعيد والترغيب والترهيب غاية في التفصيل، وقمة في البلاغة والاعجاز، لأن الإسلام كان دعوة إلى بناء حضارة يجب ان تقوم على العدل والاحسان، وكانت مسؤولية الفرد أمام الله، وأمام المجتمع من أسس تلك الحضارة.. وقد آتت أكلها في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن أعقبه من الخلفاء، فأصبحت الدولة الإسلامية بعد أقل من قرن واحد من نزول القرآن أقوى حضارة على ظهر الأرض، ورثت حضارات العراق ومصر وايران والهند واليونان والرومان وغيرهم، وصارت المدينة، ثم دمشق، وبغداد، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة مشاعل حضارة للبشر جميعاً.

وسألت نفسي، وأنا اقرأ هذا الكتاب عما كنت أعرفه قبله عن (جهنم).. فظهر لي قليلاً نحيلاً، أعرف أطرافاً من العذاب الأخروي عند الفراعنة، وأعلم أن بطل العراق الأسطوري «جلجامش» سقط في جهنم، وهو يبحث عن النبات الذي يأكل منه الآلهة فلا يموتون ولا يهرمون! وأعرف ألواناً من الجحيم وردت في ملاحم اليونان.. ولكن هذه الزيارات (السياحية) المتكررة إلى جهنم ما كنت أعرف منها إلا ما جاء في (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري، وأطرافاً من وصف الجحيم عند الروماني الشاعر (لوكريس) من القرن الأول قبل المسيح، ومن اتباع مذهب «ابيقور» في اللذة.. وهو يبدو فيها متشائماً، عندما ينقل الجحيم إلى دنيا الناس هذه.. وقد تأثر بها شاعر روماني آخر جاء بعده بجيل واحد هو «فرجيل» صاحب ملحمة الأنيادة،

وفيها سياحة في الجحيم أيضاً..

وكنت أظن ان (دانتي) الايطالي ـ ق: ١٣ ـ ١٤م قد تأثر في ملحمته (الكوميديا الإلهية) بأبي العلاء المعري في رحلته إلى الجحيم، وهي الجزء الأول من الكوميديا، يليها الجزء الثاني (المطهر) وهي دار العذاب المؤقت، ثم (الجنة).. ولكنني وجدته يتبع خطوات ـ أسلافه الرومان، وأكد ذلك عندي أنه وضع نبينا محمد ﷺ في جحيمه، ولا عجب لأن الحروب الصليبية كانت تشرف على نهايتها، وتنتقل فيها أوروبا النصرانية الكهنوتية من هزيمة إلى هزيمة أمام المسلمين.

ودخل عندي وأنا أكتب هذه السطور صديقنا الشيخ عبدالسلام، وذكرني بأن محاكم التفتيش التي اخترعها كهنة النصرانية بقصد تنصير من بقي في الأندلس من المسلمين، واليهود، انشأوا فيها ألواناً من العذاب على غرار عذاب الآخرة: النار ـ مقامع الحديد ـ السلاسل ـ وكانوا هم (الزبانية) أجبت: نعم، وقد أشار مؤلف هذا الكتاب إلى هذه (النسخة) من الجحيم، قال: وكدت أنسى، لكن كيف نسيت أنت أيضاً ان في «سيرة البهلول» من شعرك، رحلة إلى جهنم، اقرأ لي بالله شيئاً منها؟ فقرأت:

تساءل بهلول: أين الجحيم؟/ وصاحبه جامد لا يريم/ فراح الظلام يشيع/ وسارت جبال الغمام/ وجلجل صوت فظيع/ تضخم فيه أنين الجراح/ يغطي هزيم الرياح/ وينقض في الكون

كل النظام/ يقول: الجحيم هنا، عن شمال/ فخوضا طريق الوبال/ تلجلج بهلول عند الكلام/ وصاح فتاه: الأمان الأمان/ كلانا غريب بهذا المكان/ وغايتنا كلها ان نرى/ جهنم.. كي نحذرا/.. ولاح لنا شبه باب/ سلالمه من سيوف حداد/ وحارسه ناظر بارتياب/..

ومن فوقنا سحب من رماد/ ولم ندر ماذا نقول/ ولم يتعرض لنا في الدخول/ وحدنا عن الدرج الأنكد/ إلى درك قد من جلمد/ به الصمت أملس.. مثل الجليد/ سوى همسات كطريق الحديد/ تقول: استمر! استمر! واياك ان تتوانى! وسر/.. وقهقه ضاحك ساخر/ ونحن نكاد ان نبكي/ يقول: تعز يا زائر/ ولا تجزع من المهلك/ فأنت بديرتي دائر/ جهنم كلها ملكي/ وطوفان اللظى غامر/ ولا ينجى سوى فلكي/ وجاء زورق مضيء/ يسوقه فتى وضيء/ قال: اركبوا!!../ نمضي لجولة يسوؤني ان تتعبوا/ بالسير في تلك المحلة.. وقعقعت والفلك يجري/ قهقهة منه مريبة/ اي انقلاب! اي سرا! قد البسا الملاح صورة رهيبة/ وعاصف الرصاص للفلك لطخ؛ وشرشر الكبريت.. والموج انتفخ/ ثم اختفى الملاح في صنج دخان/ يصيح: تباً لبني الانسان!/ هنا السعير/ له هدير/ والزمهرير/ له صرير/ ستحرقان وتبردان/ وبعد هذا تحمدان/ أولاً.. فباسمي سبحا!/ ومجدا ابليس/ كي تفلحا/ أجاب بهلول: الا أخسا ياتعيس! قال الشيخ: كفى.. كفى.. والعياذ بالله! ونحن مازلنا في الطريق، قلت: جهنم كبيرة يامولانا.. وبعيدة أيضاً.



الأدب النظيف.. والأدب الآخر!..

جاء صديقي الدكتور مراد منذ أيام، وكان المساء قد نشر رايته، ولكنه لم يهزم العنيد عن حر النهار. ولحق بنا صديقنا الشيخ عبدالسلام، وجلسنا في شرفة مسكني نشرب الشاي، وبعدها تأفف الدكتور مراد قائلاً: ما زال المساء حاراً، فما رأيكم في نزهة في البر؟ فأجاب الشيخ وقال: فكرة نيرة، فالمدينة ما تزال بخيلة بالنسيم، من فرط ما حزنت من سخونة الشمس في جلدها من الاسفلت والاسمنت، وانطلقت بنا سيارة الدكتور مراد خارج الرياض، ولمحنا من بعيد سيارات متراصة، وبريق وجه تلفزيون يتهلّل فوق احدى السيارات. ثم اقترب منا شابان فسلّما بأدب جمّ، وسألا إذا كنا نبغي أية مساعدة. فشكرناهما وسألنا إذا كانت الأرض لهما. فاستغرقا في الضحك وقالا: لا، ولكنّنا

❁ جريدة الرياض ٧/٣/١٤١٦هـ - ٣/٨/١٩٩٥م - العدد ٩٩٠١

نحتفل بنجاحنا في اختبارات جامعة الإمام، نحن ومن معنا هناك، لكن دعونا نسأل: أليس هذا الرجل ذو الشعر الأبيض كاتب الكشكول؟ أجبت ضاحكاً ومشيراً إلى أحد الصديقين: والشيخ عبدالسلام! ثم قدمت صاحب السيارة: الدكتور مراد، الأستاذ بجامعة الملك سعود. قال أحدهما: وأين تذهبون؟ قلت: لا أين لنا، وإنما نطلب نفحة النسيم. وصاح الآخر: هذه أحسن هدية لنجاحنا، أن نجالس هذه النخبة من الكرام! تفضلوا وشاركونا جلستنا! وكان النسيم قد حمل إلى أنف الشيخ شيئاً من أريج الشواء، فقال: لا يأبى الكرامة إلا لئيم! توكلنا على الله، وسرنا معهما.

كان بعض الشباب مشغولاً بالشواء، وبعضهم بغسل الخس والخيار والطماطم، وبعضهم بتشقيق الشمام أو تسخين الخبز على الجمر أو مد السماط على الرمل. وتذكرت أمامهم أن الأبنية كلها لا تساوي يوماً جميلاً من أيام الشباب. كانت لهم في كل التفاتة كلمة مرحة، لاذعة أحياناً، ولطيفة حيناً، وطريفة في الحالين. قال أحدهم وهو يروح الشواء: لابد من الاتيان على كل هذا اللحم، فالحر شديد. ورجوعه معنا في السيارة غير مضمون ولا مأمون، فقال أحدهم: وإلا كنا مثل ذلك البخيل الذي زاره جماعة من عشيرته، فذبح تيسا وقطعه أوصالاً صغيرة، يقدم لهم بعضها كل يوم، وأصحابه ينتظرون تغيير البرنامج وهو لا يتغير، فصاح أحد ضيوفه: تيسك هذا (عاش) على مائدتك أطول مما عاشه في الحياة الدنيا! وكان التلفزيون يبث صوراً وأخباراً من

ويلات الحرب على المسلمين في البوسنة والشيشان، فصاح أحدهم: سدوا هذا الجهاز، فقد سئمنا سماع عويله وبكائه على الإسلام، وأخشى أن تتعود أعصاب الناس على ذلك، فتفقد مشاعرها وتبرد وتتبلد، ولا تزيد على هز الرؤوس، وكبت الأسى في النفوس. وكاد جدال أن ينشب بين اثنين منهما، قال أحدهما لا فائدة! لقد ذهبت إلى أفغانستان للمشاركة في تحريرها من الشيوعية ثم ندمت على ذلك، بعدما رأيت بعيني مزارع المخدرات مزدهرة هناك،. تدرّ الملايين على الزعماء ذوي اللحى الطويلة، والأسماء الأطول! وحسم آخر النقاش بغمزة على جهاز التحكم من بعد، فصمت هذا الثرثار، ثم التفت أحد الشباب إلى الشيخ عبدالسلام سائلاً: ما قول فضيلتكم في الأدب الإسلامي؟ فابتسم الشيخ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: أنا أسمع وأقرأ كثيراً عن هذا «الأدب الإسلامي» ولكنني ما زلت حائراً أمام هذه التسمية فكرت أولاً أن الأدب الإسلامي أدب من الشعر والنثر أبدعه مسلمون. لكن رأيت «الأخطل» النصراني من فحول شعراء الإسلام في أيام بني أمية، يجالس الخلفاء ويدخل عليهم بلا استئذان. ورأيت الأمة الإسلامية في تلك العصور تختلف مذاهبها، وكل مذهب منها يعلن تكفير الباقين، إلا في الشعر. فعمران بن حطّان وقطري بن الفجاءة من زعماء الخوارج، ولكن شعرهم وخطبهم يحفظها الجميع، وابن المقفّع كان مجوسياً وأسلم رغبة في الرقي في وظيفته، لا رغبة في الجنة، وكان الخليفة قد أمره باعتناق الإسلام، فوعده بذلك في الغد، ثم سار

الخليفة بالليل يتفقد قاعات الديوان، فوجد ابن المقفع قد أوقد ناراً صغيرة وجلس يصلـي لها. واستشاط أمير المؤمنين غـضباً وصاح به: أما وعدتني أن تسلم غداً؟ فأجاب: وأنا ما زلت عند وعدي، ولكن لو جاءني المـوت هذه الليلة، أفالقى الله على غـير دين؟! وشهد كثير من أصدقائه ومعـاصريه أنهم سمعوه أحيانا إذا مر بنار موقدة ـ بعد إسلامه ـ يتمثل بقول الشاعر:

يـا دار عـــــاتكـة الـتـي اتـغـــــزّل

حـــذَر العـــدَى وبه الفـــؤاد مـــوكل

إنـي لأمـنـحـك الـصـــــــدود وإنـنـي

قـــســمـــا اليك ـ مع الـصــدود ـ لأمْـــيَلُ

ثم يقابلـنا الأسعد بن مماتي في الدولة الأيـوبية، وكان شـاعراً مجيداً، كـما كان نصرانياً قبطياً ملتـزماً، إلى أن نصل إلى العصر الحديث فنجد كـثيراً من الأدباء قد خدمـوا اللغة والأدب والتاريخ الإ«لامي وهم نصـارى: خليل مطران، جـورجي زيدان، جبـران خليل جبـران، ميـخائيل نعيـمة، الأب أنطوان صـالحاني، الأب لويس شـيـخـو، الأب اسـتاس مـاري الكرملـي، المعلم بطرس البستاني، صاحب معجم «مـحيط المحيط» الشاعر إيليا أبوماضي، الشاعر إلياس أبوشبكة، ومن الدروز الشاعر المعاصر فؤاد الخشن، ومن الشيعة الشاعر الحديث أحمد محمود سعيد (أدونيس)، ومن مؤلفي المعاجم العربية المحترمـة الشيخ سعيد الشرتوني (نصراني)

ومعاصره جرجس همام الشويري، ألّف الأول معجم «أقرب الموارد» والثاني «معجم الطالب» والأب لويس المعلوف اليسوعي صاحب «المنجد» والراهب «جرمانوس فرحات» مؤلف «سفينة النحاة» وكذلك في العلويين شعراء في الصف الأول من هذا الفن، مثل «بدوي الجبل» والشاعر المبدع «سليمان العيسى» وغيرهم مما يضيق عنهم، لا هذا المقال، بل مجلد كامل. فهل نشطب كل هؤلاء من الفكر الإسلامي تحت الشعار البغيض (التطهير الديني)؟ وإذا أدخلناهم إلى سوق الأدب الإسلامي سيسألنا كثير من المسلمين عن الشعراء عمر الخيام وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي وعاكف بك وناظم حكمت، فكلهم شعراء وكلهم مسلمون، ولكنهم لم يكونوا عرباً، فكتب بعضهم بالفارسية وبعضهم بالتركية، ولو شرّقنا وغرّبنا في العالم لوجدنا من اخواننا المؤمنين في البوسنة والهرسك وكوسوفو والبانيا والسنغال والصومال والفلبين وماليزيا وجزر الهند الشرقية من كتبوا أدباً (إسلامياً) لكن بلغاتهم، فإذا أهملناهم أضفنا إلى (التطهير الديني) مصيبة جديدة هي (التطهير اللغوي).

فقال واحد من أولئك الشباب: إن الدعوة إلى أدب إسلامي كانت اقتراحاً في ندوة إسلامية عقدت في الهند، وتردد المجتمعون بين (أدب الدعوة) من ناحية و(الأدب الإسلامي) من ناحية أخرى، واستقر الرأي على التسمية الأخيرة، قال الدكتور مراد: هذا طبيعي في الهند، حيث تكثر الأديان ـ حتى لتعد بالمئات ـ ومعظمها مما يصفه الإسلام بالكفر. والمسلمون في الهند

أقلية صغيرة نسبياً، ومن حقها أن تميز كيانها الفكري بصبغة أدبها، لا سيما ونحن نعلم ما بين هذه الطوائف من عداوات: الهندوس، والسّيخ، والبراهمة، والمجوس، والبوذيون، ومع كثرة العدد، والفقر، والجهل، ينبثق الارهاب بين هذه الطوائف، والمسلمون في الصف الأول من المضطهدين، ووسط هذا الخوف هم في حاجة إلى تأكيد الذات، ووضع «الأدب الإسلامي» في المنزلة اللائقة به. أما في البلاد الإسلامية ـ أو ذات الأغلبية الإسلامية ـ فكل أدب يظهر فيها هو أدب إسلامي.

تنحنح احد الحاضرين في هذه الندوة وقال: جاء الطعام! وعلى حدّ علمي أن الأدب الإسلامي يهدف القائمون به إلى الوصول إلى «أدب نظيف شريف عفيف» قال الشيخ عبدالسلام: ستكون هذه نكبة كبيرة في تاريخ الأدب، تطرَدُ فيها من الإسلام ـ على الأقل من صفوف الأدباء ـ وجوه لامعة مثل عمر بن أبي ربيعة، وجرير والفرزدق والأخطل وأبي نواس ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وابن حجاج وابن سكّرة وأبي الشمقمق وكل من روى عنه أبو الفرج الأصفهاني أغنية في كتاب (الأغاني) ثم الشعراء مؤلفي الأغاني في العصر الحديث، فماذا يبقى لنا بعد هذا؟ فصاح شاب متحمس مخففاً من طنين صوته أن فمه مملوء بالشواء وقال: الحلال بين والحرام بين! فقلت: صدق عليه الصلام والسلام فيما قال، ولكن هذا يدخل في السلوك الأخلاقي من ناحية، والتفصيل الفقهي من ناحية أخرى، أما الفن فالبراعة فيه أنه دائماً (على الحافة) «بين بين» ويأخذ في ثنيات الطرق، ويحوم

حول الحمى ولكن لا يقع فيه، ولو حصرنا الأدب في دائرة «الأدب النظيف » فسوف يتهافت الناس شيباً وشباناً ، نساء ورجالاً على(الأدب الآخر). ونقرأ كليلة ودمنة لابن المقفع، ولا نقرأ له نفسه (الأدب الكبير) أو (الأدب الصغير) ونقرأ (مجنون ليلى) لشوقي، ولا نقرأ (الشوقيات) وكنا نفر فرار السليم من الأجرب من مطالعة (أدب الدنيا والدين) للحسن البصري والماوردي. وكنا نمر مرور الكرام على قصيدة الصحابي الجليل سالم بن وابهة الأسدي رضي الله عنه، التي يقول فيها:

أحبّ الفتى ينفي الفواحش سمعه

كأن بِهِ عن كل فاحشة وَقْرَا

سليم دواعي الصدر، لا باسطا أذى

ولا مانعا خيرا، ولا قائلاً هجُرْا

ونحفظ معلقة أمرىء القيس ـ على صعوبتها ـ بكاملها ـ ونتلذذ بانشائها، وسألت من جانبي: مَنْ الذي يتولى (تنظيف الأدب)؟ هل سيعهد بذلك إلى وزارات الاعلام في العالم الإسلامي، أم إلى الهيئات الإسلامية «المتخصصة»؟ أما الاعلام فإنه يقوم بمهمته على كثير من الاستحياء حتى لا يقع في سوء تفاهم مع حضارة العصر. وأما الهيئات الإسلامية فقد حصل في العالم المسيحي شيء مشابه لهذا، إذ تكونت في الفاتيكان لجنة من شيوخ النصرانية اسمها لجنة «الفهرست» ترصد الجرائد والكتب

والمسرحيات والأفلام التي تظهر في العالم وتضع ما لا تراه «مناسباً» في الفهرست، ثم تعلق بذلك نشرة في جميع الكنائس والأديرة والمعاهد، وتنشره في صحفها ومجلاتها محذرة (المؤمنين) من الاستسلام لاغراء الشيطان، فكان أولئك المؤمنون يتتبعون هذه القائمة السوداء (الفهرست) ليختاروا منها أشد ما فيها جموحا عن الصراط المستقيم، حتى أوصى الفاتيكان بأن تواصل لجنة الفهرست عملها في الخفاء بعد أن تبينت أنها كانت تقوم بدعاية تجارية مجانية لانتاج لا يرضى عنه الله ولا المسيح، ولا القدّيسين والشهداء.

وفي الطرف الآخر من الجلسة تفجر ضحك مجلجل، وقال أحد الشباب: كان جاري يروي نكتة، فعفواً . . قال الشيخ عبدالسلام: قلها ولا تخف. قال: في قرية كان القاضي هو إمام المسجد، وجاء عيد الأضحى والرجل فقير، يرفض الرشوة، ويقوم بخدمة المسجد لوجه الله، وبات حزينا لضيق ذات يده. وكانت له زوجة صالحة فقالت له: لا تحزن ! نذبح الديك عند عودتك من صلاة العيد! وسمع بعض الجيران فأشاعوا الخبر في القرية، وعند الفجر ساق كل منهم ما استطاع: خروف أو تيس أو عنز. وعاد الشيخ من المسجد فقال لزوجته: أكرمي هذا الديك، فقد فداه الله بأكثر مما فدى به ابن سيدنا ابراهيم عليه السلام! فقال احدهم: أهذه النكتة من الأدب النظيف أم من الأدب الآخر؟

سراب أغلى من الماء..

وأقصد بهذا السراب حال هيئة الأمم المتحدة الآن .. وما أظن أن السادة الكرام وارن كريستوفر وكوزيريف وبطرس غالي يخالفونني في وجهة نظري.. إلا قليلاً .. وهو قليل باهظ التكاليف أغلى من السلام المنشود بكثير.. ولكن شبح الحرب المخيف يدفع العالم إلى التشبث بهذه القشة التي أسأل الله ألا تقصم ظهر البعير .. مع أن هذا البعير قصم ظهر هتلر، قبل اختراع هيئة الأمم المتحدة، وقصم ظهر الدكتاتورية الشيوعية في ظلها، وبدون مشاركتها! أما الآن ـ وياللمرارة ـ فإن هذه الهيئة بهيلها وهليمانها لا تستطيع ان تقنع اسرائيل باطلاق سراح الآلاف المؤلفة من الفلسطينيين من سجونها ومعتقلاتها، ولا أن تفهمها ان زياراتها اليومية ـ ليلاً ونهاراً ـ لجنوب لبنان حتى اقليم التفاح

❁ جريدة الرياض ١٤/٣/١٤١٦هـ ـ ١٠/٨/١٩٩٥م ـ العدد ٩٩٠٨

وسهل البقـاع، بالدبابات والطائرات وقوارب الرعب في شواطىء الصـيادين، ليـست من الأعمـال المستـحبـة لمن يكرر كل يوم انه يبحث عن الـسلام! ولاسرائيل ـ ربما ـ بعض العـذر أمام الفـتوة الشرسة للصهيونية المتحجرة، ولكنها تترك أولئك المعربدين يصبون جام الحقد الدفين على العرب، سكان البلاد الأصليين. . وإذا بدا لحكومة اسرائيل ان تكشر لهم عن انيابها، وتظهر قليلاً من «العين الحـمراء» كـان ذلك بلطف رائع، فـالشرطة تدفـعـهم بالتي هي أحـسن، ولو كان مكـانهم عرب لكان رصـاص الرشـاشات قـد لعلع، ثم زمجـر الديناميت في بيـوت العرب فـزلزلها من الرأس إلى القدم . . وينتـهي كل هذا بقرار من الهيئـة الموقرة . .يضاف رقمه إلـى عمود طويل من الأرقام، بعـضها ينتظر التنفيـذ منذ ما يكاد يصل إلى نـصف قرن، مـنذ قرار الـتقـسـيم الصـادر عـام ١٩٤٧م! وصـفوف الانـتظار طويلة جـداً، تقف فـيهـا البـوسنة والهـرسك وسط مـسـتنقع من دمـاء المسلمين، مـنذ سنين، ثم الصومـال، والصحراء الواقـعة جنوبي المملكة المغـربية، ورواندا، والشيشـان، والأفغان، والتبت بزعيمـها الروحي «الدالاي لاما» الذي يعيش في المـنفى منذ عشرات السنين، ويـعيش شعـبه في الاستعباد والقهر تحت أنياب التنين الزاحف من الصين الشعبية . . هذا إلى نزوات السـادة الكبـار بناة الحـضـارات الثـقـيلة والذرية والفـضائية فـي هذا الزمن الأجرب، الذي مـا ينفك يحك جلده حتى الدم بحثـاً عن اشياء اشتـرك هو في تدميرها، منها الضـمير الانسـاني والأخلاق، والـكرامة، والابداع الجـمـالي والفني . .

وحتى الايمان بالله! وعندما تطرح مشكلة من هذا القبيل على هيئة الأمم المتحدة، أو مجلس الأمن، أو اليونسكو، أو منظمة الصحة العالمية، أو منظمة حماية الطفل.. إلى كل هذه النتوءات البارزة من الأمم المتحدة .. عندما تُطرح مشكلة من هذا القبيل يقابلونها إما بالاستغراب والاستخفاف، أو يدرجونها تحت رقم من أرقامهم القديمة حتى يقال ان المجلس الموقر قد قتلها بحثاً، أو - كثيراً جداً - يزعمون ان الملابسات «السياسية العالمية» توجب تأجيل النظر فيها، خشية اندلاع حرب عالمية بسببها .. والناس من خوف الموت في موت!! وهكذا تخصصت هيئة الأمم المتحدة منذ زمن طويل في تسويق السراب - وهو في اصطلاحها السلام - بثمن أعلى وأغلى من أية حرب متصورة .. والكل يعلم أن وقوع البلاء خير من انتظاره..

لكن الناس، منذ الأوائل، كانوا يتهافتون على السراب ويفتنون به، ويغرقون فيه، ويندمون، حيث لا ينفع الندم، وهنا قفز إلى ذاكرتي شعر شاعر من ابناء جيلي كنت - ومازلت - على خلاف معه دائماً .. كان يجري وراء السراب بأي ثمن، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجدالله عنده فوفاه حسابه.. وهو على الرغم من ذلك قد أدمن الجري وراء السراب، حتى تنقطع أنفاسه .. أطال الله عمره وأنفاسه! فهو على الأقل يعي هذه النقيصة من نفسه .. يقول مثلاً:

ألا إن قلبي قبوُ حوى

عزيف العفاريت .. لا يستقر

فذاك يصيح بحمى الدماء

ونار القلوب، وفوضى البشر

وهذا يمزق شرع السماء

ومن مقلتيه يطير الشرر

وتلك تمنى بحسن الختام

وتعد بين القضا والقدر

وقد أعطشتني إلى ما تريد

وقالت هنا الماء!.. لا تنتحر!

وقلبي يصدق كل الذي

يراه .. ولكنه يقشعر!

له الله في حيرة الهائمين

فلا من يقر .. ولا من يفر

واعلم مقدماً أن معركة اسطورية ستنشب بيننا، لأنه قال هذا الشعر في زمن الحداثة، منذ عشرات السنين، ومن المؤكد أنه الآن لا يعتقده، ولا يرحب بذكره. . وأذكر له أيضاً ـ لتكون المعركة بيننا حاسمة ونهائية ـ انه ضاق ذرعاً بالشعر العمودي، ولم يوافق لا على قصيدة النثر، ولا على شعر التفعيلة فكتب موشحات

أذكر منها:

.. ورجعت صوتاً درت أنه   تمسني من وقعه ساحر
فرحت أصغي من جديد.. كما   شاءت، وساء لحنها السادر
السراب .. السراب!   خادع فنان
قطرة من سحاب!   انني عطشان

ولو علم صاحبي انني تذكرته ـ هو وشعره ـ وأنا أفكر في افلاس هيئة الأمم المتحدة، حتى عن المال، كما أعلنه اثنان، أو ثلاثة من الذين شغلوا مكان الأمين العام فيها، وآخرهم الدكتور بطرس غالي نفسه، أو علم صاحبي بهذا لارتفع ترمومتر الغضب عنده إلى درجة الغليان! فهو مازال يشارك الجنرال الفرنسي دي غول في قوله: هذا الشيء الذي يسمى نفسه «الأمم المتحدة»! وقوله مرة أخرى: الأمم التي «تزعم» انها متحدة! وذلك من سنين طويلة لم تكن فيها الهيئة العالمية الموقرة قد انتقلت بعد «من الفقه إلى الحجامة» كما قال الشعبي، فقيه البصرة وقاضي قضاتها في أوج الدولة العباسية، وقبل أن ينتقل العراق من هارون الرشيد إلى صدام حسين!!.

ولكن عندما يكون الماء غزيراً، هل تكسد سوق السراب؟! .. منطقياً نعم! وعملياً لا! ففي فلسطين مثلاً يشاء الجشع الصهيوني ان تبرز مشكلة المياه فتهدد مفاوضات السلام .. ونحن في عصر تحلية مياه البحار، واسرائيل لها ساحل على البحر المتوسط وآخر

على البحر الأحمر، وبينهمـا نهر الأردن، وعدد كبير من الوديان والشـعاب والينابيع ... ولكن الصـهيـونية تريد أن تسـيطر على الماء، وتتـاجـر على العـرب بالسـراب.. وحـيـا الله المفـاوض الفلسطيني الذي وضع «العقدة في المنشـار» لنظرائه اليهود، لعلهم يفهـمون أن البـلاهة لم تعد مـرضاً مزمناً في المخ العربي، وأن الأرض في مقابل السلام يجب أن تعود إلى أصحابها بمائها ونباتها وحيواناتها باستثناء صهـاينتها.. ولعل موقف اخواننا الفلسطينيين من الماء ينبه اخواننا في لبنان لـيفتحوا عيـونهم على مياه الليطاني والحصباني.

وشرحت مرئـياتي لصديقنا الشيخ عـبدالسلام فقـهقه بعصـبية وقال: نعـوذ بالله من الادبار بعد الاقبـال .. دعنا من اسرائيل، وتعال إلى وادي النيل .. النزاع يقف الآن على حـافة الحرب .. فالـسودان يهدد بمـضايقـة مصر في مـياه النـيل .. ومصر تـهدد الســودان بالويل والثـبـور وعظائم الأمـور! ولا يخلو الأمـر من مشاكل مع الحبـشة من ناحية وافريقيا الـوسطى من ناحية أخرى، والنيل يسـقي الجمـيع بسـخاء وكـرم، ولا ينضب معـينه إلا إذا فسدت المجـتمعات التي تعيش على ضـفتيه، ودب فيـها الجشع والشقاق والنفاق واخذتهم العـزة بالإثم، وندرت فيهم كلمة الحق وشـاعت بينهم الفتن والقـلاقل، وانعـدم فـيـهم الرجل الحكيم الرشيد، الذي يقول فيسمعون قوله ويفهمونه:

قالت الضفـدع قولاً ... فسـرته الحكمـاء

في فمي ماء.. وهل ينـ ... ـطق من في فيه ماء؟

إن كثيراً من بلاد الله كـانت خصبة كثيـرة الخيرات، ثم أصبح ماؤها غوراً مع ركونها إلى الكسل والاسراف وعدم تقدير ما هي فيه من نعمة الماء فتصحرت وعاد زرعها هشيماً تذروه الريح، وبعضها سادته البغضاء والأحقاد فشغل بها عن ما تطالبه به الأرض من عناية، وبقيت انهارها جارية وأهلها في بؤس وضيق من العيش يشهد بحماقتهم . . الدجلة والفرات مثلاً، من أعظم أنهار العالم، وأرض العراق بينهما من أجمل أقاليم الدنيا، لكن نفور شعوبها بعضهم من بعض أوجد حالة من البغض يتعذر معها التعاون في الخير . . المسلمون فيهم شيعة وسنة والسنة فيهم عرب وأكراد وتركمان، والشيعة فيهم عرب وفرس، والعرب فيهم مسيحيون، والمسيحيون فهم سريان كاثوليك وارمن ارثوذكس وناطرة ويعاقبة وآشوريون (بقايا الآشوريين القدماء) والعرب فيهم بدو وحضر، والبدو لهم عشائر وقبائل، والحضر لهم مراكز وحواضر.

ظهر السومريون في جنوب العراق ووسطه منذ القرن الأربعين قبل المسيح، ثم بادوا، وأعقبهم الأكاديون فالبابليون فالآشوريون، ثم بادوا أيضاً، وظهر على الأطراف الجودي والأوري والأوراتو والآمور، ثم طوي بساطهم كذلك، فخضع العراق للحكم الفارسي الف سنة، ثم حرره الإسلام، وانطلق منه إلى ايران نفسها فحررها من حكم كسرى كان منطقه قائماً على البطش والجور. . كل هذا ودجلة والفرات يجريان ولا يرى الناس منهما إلا السراب لفساد النظام والادارة، وتفسخ الأمة، وتعمق

جذور الرعب من الحاكم في نفوس الناس من أيام بختنصر إلى دارا الفارسي إلى زياد الأموي إلى الحجاج بن يوسف الثقفي .. إلى آخره، وما خفي كان أعظم.

وقلت للشيخ عبدالسلام: إن أمر الماء غريب.. فالأقمار الصناعية التي تحوم حول الاجرام السماوية الأخرى لم تجد حتى الآن كوكباً يحتوي على الغازين المكونين للماء: الأكسجين والهيدروجين إلا على هذه الأرض العجوز التي تحملنا. القمر فيه تربة كتراب الأرض، لكن بلا ماء، مما جعله خالياً من الحياة، والمشترى والزهرة وعطارد كذلك، فالماء باجماع العلماء الطبيعيين وعلماء الدين ـ في كل الأديان ـ هو أصل الحياة ومادتها .. وذكر له الباحثون المعاصرون مميزات أساسية أهمها أنه (غذاء) فجسم الإنسان يحتوي على سبعين في المائة من الماء، وبعض النباتات الحية النامية تصل إلى نسبة تسعين في المائة من الماء، وهو (مطهر) ينظف كل شيء يغسله ويزيل عنه الشوائب، ولهذا دخل في اكثر العبادات والأديان المختلفة للطهارة، وهو (منعش) يساعد على تجديد الأنسجة، حتى شاع عن بعض العيون والينابيع والوديان أن مياهها تشفي الأمراض الجلدية، ومن ذلك بحيرة في مدينة (لورد) الفرنسية .. والطهارة بالماء شرط في الاغتسال والوضوء في الإسلام .. إلا إن تعذر فيجب التيمم بالتراب..

جاء رجل إلى أحد قضاة بغداد فقال: إنني أغوص في النهر مرتين أو ثلاثاً ثم يبقى عندي شك في أن الماء لم يعمم جسمي

وأخشى أن أصلي على غير طهـارة.. فأجابه القاضي: لا تصل!
فسأله أحـد الحاضرين: أتنهى عبداً إذا صلى؟ قال: يغـمس نفسه في النهر مراراً ويشك أنه طاهر، فهو مجنون سقط عنه التكليف!



نصائح مجانية لهواة العنف

يوم الجمعة الماضي قضيت انا وصديقنا الشيخ عبدالسلام امام التلفزيون نتابع حملة خادم الحرمين الشريفين لحماية المسلمين في البوسنة والهرسك - او من بقي منهم - بعد ثلاثة اعوام من حرب ابادة يشعل الصرب نيرانها، وتباركها روسيا - او ما بقي منها - فتغدق على الصرب من خزائن اسلحتها مدداً لا ينفد، لان الرئيس يلتسين بعد ان افلس افلاساً مبكياً في الحفاظ على وحدة الامبراطورية الروسية البالية، يريد ان يلعب ورقة البلقان، ذلك الاسم الذي كان مزعجاً حتى القرن الماضي، عندما كانت الدولة العثمانية التركية تتزعم العالم الاسلامي، وتمثل امام اوروبا المسيحية قوة معادية عقائدياً، يجب تمزيقها بأي ثمن. وقد تمزقت الدولة العثمانية فعلاً، كما تمزقت معها المسيحية الاوروبية ايضاً،

❁ جريدة الرياض ٢١/٣/١٤١٦هـ-١٧/٨/١٩٩٥م - العدد ٩٩١٥

فالبابا في روما اصبح يرش الماء المبارك على زوار الفاتيكان، ولكنه لا يحكم، وقد يفتي احياناً فلا يطاع، وتاريخه مع هذه السخرية طويل جداً، وقبلها كان هو الذي يتوج كل ملوك اوروبا، ويسقط من لايعجبه منهم، ويمارس الارهاب والتعذيب على اي مفكر يجرؤ على ان يسأل ـ ولو بكثير من السذاجة ـ هذا البابا لماذا هو بابا؟ الى ان يشهد علناً بان «الحبر الاعظم» هو ظل الله على الارض، والامين على اسرار المسيح، والمرجع الاوحد المعصوم من الخطأ. . آمين! وبدأت سخرية النصارى من قداسة البابا منذ نهاية الحرب الصليبية، بعد ان ظل كل يوم، وعلى مدى مائتين من السنين يبشر رعاياه بالنصر على المسلمين، ومحو اثر محمد وما جاء به من القرآن والاسلام! والقى كثير من ملوك اوروبا وفرسانها وامرائها في اتون هذه الحرب، ومات اكثرهم في القدس ويافا وعسقلان وحطين او في صور وصيدا وبعلبك ، او في دمشق وحمص وحلب وحماة او حتى في الكرك والجرش في اعماق الاقاليم الاردنية، او في المنصورة بمصر او في تونس، بدأ الانسان الاوروبي يفكر من جديد في البابا، لماذا هو بابا؟ ولماذا، في الفقر والجوع والمرض والجهل المطبق والحياة القذرة المتدنية، يعيش هو ومن حوله في هذا الترف الاسطوري؟ ولماذا تنهال عليه الزكاة من كل شعوب اوروبا، وامريكا الحديثة العهد بالوجود على خرائط العالم؟ لماذا يجند المستعمرون الاسبان والبرتغال جيوشاً من الكلاب الضارية تنهش «الهنود الحمر» سكان امريكا الاصليين، لانهم لا يعرفون ما هو الصليب! لماذا يبارك سفنهم وراياتهم وقد

اوقروها خمـراً، وعبيداً، وجواري، وهم قـراصنة لا يتورعون اذا لعب الخمر برؤوسهم عن تدنيس اسم الله والمسيح والعذراء باقذع الشتائم واللعنات! في تلك الازمان كانت شراذم الصرب تهيم في على وجهها في عرب آسيا وشرق اوروبا. . وتعبد الاصنام! في حين ان الذين سبقوهم الى تلـك الاقاليم مثل الالبان «الارناؤوط» والبوسنة والهرسك «البـشناق» قد وصلتها الدعوة الاسـلامية عن طريق الاتراك او القبـارصة المسلمين او التجار السـوريين او شيوخ المسلمين الناجين من مـحاكم التفـتيش النصرانيـة في اسبانيـا بعد طردهم جـميعـاً من الاندلس، وهذه اركان مـن مجاهل الـتاريخ الاسلامي تحتاج الى كثير من التحقيق.

استقر الصرب بكثافـة في بلغاريا، ثم نشبت بينهم وبين قبائل البلغار وقائع وحروب وضغوط الجأتهم الى هذا الجزء من البلقان، فاخـتاروا مـا وجدوه آمناً هناك، لـكثرة الجبـال، وكفـاية المراعي للماشية.

وأسرعت الكنيسة النصرانية الشرقـية «الارثوذكسية» الى تنصير الصرب عـلى هذا المذهب، وهو المذهب الرسمي للروس ايـضاً، وتفـرعت منه شعـبـة سادت في اليـونان، ولعلهـا اعرق شـعب الارثوذكـسيـة، هي والشعـبة الـقبطيـة في مصـر، ورأى بابوات الفاتيكان جـانباً ضـخماً من نفـوذهم يتفتت ثـم فوجئـوا بظهور مذهب نصرانـي معارض للسلطة البابوية هو المذهب البـروتستنتي الذي اســسه الراهب الالماني المنشق، مـارتن لوثر، واتبـاعه الآن

يملؤون المانيا وهولندا وسويسرا واجزاء ضخمة من امريكا الشمالية.

فليس عجيباً في هذا المهرجان العقائدي ان يفكر الصرب في «التطهير العرقي والديني» لمسلمي البوسنة والهرسك وان يرى زعيمهم «ريدوفان كراديتش» ان هذا الشعب، مادام هو قد قرر ان يمحوه من هلاهيل يوغوسلافيا السابقة، مقدر لجميع الوان الاضطهاد، نعم! كل شيء مباح: الممتلكات، اعراض النساء، دماء الاطفال والشباب والشيوخ، والمساجد ،المرافق، المستشفيات، كل هذا للتدمير والابادة، كنا ننظر الى مقتطفات من اشرطة مصورة لهذه المذابح، وما احاط بها من صراخ واستغاثة ودموع، وكنا نشهد صلاة المسلمين على الموتى منهم في تلك المذابح وجثثهم مصفوفة جنباً الى جنب، تحت جناح الموت، والمصلون يكادون، رغم النحيب والنشيج والبكاء، يغبطونهم على انهم استراحوا من عذاب الحياة الدنيا، وفازوا بالشهادة، والتفت الى الشيخ عبدالسلام وقال: عندي فكرة لكن لا ادري كيف ادعو لها. وقلت: وما هي طال عمرك؟ قال: الدنيا مليئة بالقساة من الاشقياء، اعضاء المافيا، عصابات اللصوص، قطاع الطرق.. الخ لماذ لا يحاول «العالم الفاضل» استثمارهم، فيسول لهم ان يرسلوا فريقاً منهم لخطف ريدوفان كراديتش، حياً او ميتاً، فاذا وصل حياً طلبنا لمن خطفوه فدية باهظة جداً، بعد ابقائه في الحفظ والصون والمساومة معه وعليه، وان وصل ميتاً فقد اراح واستراح،

كما ان االاقـوياء الاشداء الذين قتلوه يكونون قد تقـربوا بقتله الى الله سبحانـه وتعالى، وخلصوا اناساً مسالمين وضـعفاء من شره، وتكون لهم مكافـأة مـجزية ايضـاً ممن يرون مـوته كان نوعـاً من التأمين على حـياتهم واعراضـهم وممتلكاتهم، قلت: هل تدري يا مـولانا ان هذا كـان ـ ومـازال ـ جـزءاً لا يتـجـزأ من الـتنظيم الصهيوني؟ ففي اوائل الاربعينات والحرب العالمية الثانية قائمة على قدم وساق، كان «اللورد موين» وزيراً للمـستعمرات في بريطانيا، ورفض ان يسمح لمجموعة من اليهود الهاربين من الارهاب النازي على ظهر سفينة قديمة مسروقة من الساحل اليوناني، رفض اللورد موين السماح لهم بالنزول في فلسطين، محتجاً بانهم ليست معهم جوازات تثبت شخصيتـهم وقد يكونون من الفرق الخاصة الالمانية المدربة على التخريب والتدمير.

وانتهى الامر بهذه الـسفينة، بعد نحو شهر في الـبحار بالغرق في عاصـفة هوجاء ومـات كل ركابهـا، وبعد ذلك بشهـور كان اللورد موين في زيارة رسمـية الى مصر، فتسلل اليـه من الشباب الصهيـوني اثنان هما الياهو بشوري، والياهو حكيم، فـقتلاه وهو منصرف من منزل الـسفير البريطاني وحـاولا الهرب، ولكن احد رجال الشرطة تمكن من القبض عليهمـا، وادعيا امام المحقق انهما لا يعرفـان التفاهم الا بالعـبرية ، فحضـرت باستدعـاء من النيابة لأقوم بالترجـمة، وبعد ان تبادلنا بعض العبارات بالعـبرية، انطلقا يتحدثان العربية الجيـدة وقالا للمحقق: اردنا ان تثبت وزارة العدل المصرية ان في فلسطين شـعبا غيـر عربي ولا مسلم لغتـه العبرية

ليكون هذا رسمياً ، وصدر عليهما حكم بالقتل نفذ في القاهرة، وبعد ذلك بنحو اربعين عاماً طالب مناحيم بيجن في اول زيارة له لمصر برفاتهما، وعاد بهما الى القدس حيث اعد لهما قبرا في مقبرة الأبطال!

قال صديقي الشيخ: هذا يذكرني بقصة الشاعر بكر بن النطاح الحنفي، كان من ارفد الشعراء في العصر العباسي، ومع ذلك كان لصاً، سفاحاً، قاطع طريق. فقبض عليه رجال الامير ابي دلف العجلي واتفق معه على ان يتوب، فيجعل منه حاجباً له وحارساً لقصره، ووافق هو على ذلك، وذات يوم كان ابو دلف يسخر منه، ويقول: انك لا تنقطع عن التغني بمغامراتك وامجادك في القوة والفتوة، وانت هنا تعطي شعرك للقيان يتغنين به لقد لان عودك يا ابن النطاح فما عدت تخشى الا ان تقول :

أكذّبُ عيني عنك في كل ما ترى

وأُسمعُ اذني منك ما ليس تسمَعُ

فقال: لا أيها الأمير ! اعطني فرساً وسيفاً واتركني حتى ترى ما احسنه! فاعطاه سيفاً وفرساً، وانطلق الى الجبال فرأى قافلة محملة بالنفائس وعليها حرس شديد فقاتلهم حتى انهزموا عنه، وكانوامن اعوان الامير! فذهبوا اليه وهم جرحى ومضروبون وحكوا له ما لقوه في طريقهم من هجوم لص عليهم لم يروا له مثيلاً، ثم وصفوه فعرف الامير انه بكر بن النطاح وقال: لا جرم! لقد استثرناه وكنا في غنى عن ذلك! ثم وصل صاحبنا ومعه

القافلة، لانه عرف انها للأمير، وهكذا عفا الامير عنه بعد ان نجح في هذا الاختبار الصعب. .

قلت: وتذكر فضيلتك قصة جرجس بن بختيشوع طبيب المأمون، عندما جاء الحرس الى أمير المؤمنين باثنين من اللصوص ليأمر بقتلهما بجريمة الافساد في الارض، فاخذا يتوسلان اليه ويطلبان العفو عنهما، فقال الخليفة: بلغني انكما تسرقان ما شئتما دون ان يشعر بكما احد، وطبيبي جرجس بن بختيشوع من البخلاء المشهورين، ومن كبار الاثرياء ايضاً وانا اختبركما بان تذهبا فتسرقا اي شيء من داره، ثم احضرا ما سرقتما اليّ، وانا اعرف ما عند ابن بختيشوع فلا تأخذا شيئاً من مكان آخر وتكذبا علي، وتدعيان انه لبختيشوع، فانصرفا وفي هزيع متأخر من الليل حضرا يحملان صندوقاً ثقيلاً ضخماً، فقال الخليفة: انا لا أذكر انني رأيت هذا الصندوق في بيت ابن بختيشوع، فابتسم احد اللصين وفتح الصندوق فرأى المأمون طبيبه مربوطاً بالحبال، وفمه محشواً بالقطن! وقال اللص الثاني: الصندوق فقط من عندنا.

وأخيراً قال الشيخ: هناك اناس لو تركتهم وشأنهم لعاثوا في الارض فساداً، ومع نظم القضاء العجيبة في العالم ـ حتى في الخلافات السياسية ـ يظل المجرم في امن وامان طالما اختلف القضاة، فمجلس النواب الامريكي يوافق على رفع الحظر على الأسلحة المفروض على البوسنة والرئيس كلينتون يهدد باستعمال حقه في نقض القرار، الا اذا اخذ اكثر من ثلثي الاصوات في مجلس الشيوخ، وفخامة بوريس يلتسين الذي لم يعد يلقب

بالرفيق يلتسين، يهدد من جـانبه برفع الحظر من جانب واحد عن الصرب.

والحظر كان مرفوعاً وتهـريب الاسلحة كان نشيطاً منذ البداية، فهـذه الآلاف من القنابل والصـواريخ التي تتسـاقط كل يوم على رؤوس مسلمي الـبوسنة، وهذه المدافع وناقـلات الجنود والألغام ليست من مخزون الصناعة اليوغسلافية.

وتنهد الشيخ قائلاً: إن حملة خادم الحرمين الشريفين قد تكون اشارة تحذير من الحرب للضمير العالمي.

جواز للزواج

يكثـر الزواج في مـوسم الاجازة الصـيـفيـة، لأن الجـمع بين (رأسين) في الحـلال يحتاج الى تـفرغ. وفي البـلاد الغربية يـكثر الزواج في الخريف، أو الشتـاء. ولعل السبب في ذلك هو ظهور الناس ـ رجالاً ونسـاء ـ عراة، أو شـبه عراة في المصـايف، على سواحل البحار والمحيطات، وفي الغـابات، وعلى سفوح الجبال، مما يترك للجنسين حرية الانتقاء والاخـتيار.. فالصيف هناك ايضا هو موسم التمـهيد للزواج، ثم تأتي الاجراءات المدنـية والدينية، وهي كثيرة ومعـقدة، ولا يتم الزواج إلا في الفصل البارد، حيث تحتاج الأجـسام ـ والأرواح ـ الى دفء لا تؤمنه التدفئـة المركزية، ولا الفحم والحطب.

وحـيث يمكن لشـرارة الغرام المنـطلقة في المصـيف ان تقـوى

❀ جريدة الرياض ٢٨/٣/١٤١٦هـ ـ٢٤/٨/١٩٩٥م ـ العدد ٩٩٢٢

وتستشرى وتتحـول الى حريق. ومع ذلك فإن هذا الرباط المقدس هناك لا يكون اقـوى منه هنا، بـدليل ان حـالات الطلاق عندهم تفوق ما عندنا، والخلافات الناشبة في الأسر الحديثة المنشأة لا تقل هناك حدة وشراسة، والطلاق عندنا ـ وهو أبغض الحلال عند الله ـ يظل مع ذلك حلالاً، أما عندهم فإنه حـرام وإثم كبير يقع على حافة الارتداد عن الإيمان المـسيحي، وهو طويل ومعقـد بما يكتنفه من استـسـلام لنزوات المحكمـة الملّيـة اليـهـودية كـذلك. وفي كلتاالحالتين يـبقى تعدد الزوجات عندهم (جريمة) يـعاقب القانون عليها بالالغاء والحبس والغـرامة. وهكذا يظل المخرج الوحيد من تلك الملمات في التعايش الغرامي مع عشيقة ـ أو أكثر ـ بشرط ان تكون قد جاوزت الثـانية عشرة من عمرها، وألا تكون مـتزوجة، وان تعيش مع صاحـبها بمحض اختيـارها، بلا ارهاب ولا اجبار، وان يكون مسؤولاً امام القانون عن أبوته لما قد يأتي من أولاد من ذلك التعـايش السلمي. وباختصـار فهو صـورة اخرى من زواج المتعة.

كنت اتبادل هذه الآراء مع زمـيل فرنسي يهودي يشغل وظـيفة (الحاخام) في باريس، عندما كنت هناك لاستكمال علاج طبي في الشتاء الماضي. وقلت له: إن الاحصـاءات عندكم تقدم أرقاما في الطلاق وكذلك في عدد الأطفال المولودين في ظل زواج حر ـ أي غير ديني ولا قانوني ـ تدعو الى التشاؤم. فأجابني بسخرية: هناك متناقضات كثيرة في تشريعات الزواج في العالم. فهناك مجتمعات (تبيع) العروس بثمن متفق عليـه يأخذه وليها، ولا ينفق منه شيئاً

على زواجها. ومجتمعات اخرى (تشتري) العريس للعروس بثمن يدفع اليـه. وفي قانـون حمـورابي البـابلي من عام ١٧٥٠ قـبل المسيح ينص التشريع على (مهـر) يدفعه العريس للعروس، يسمى باللغة البـابلية (شريـقتو) ثم هدية الزفـاف التي تدفعهـا العروس للعـريس واسـمـهـا عندهم (طرمـاتو). وقـبل هذا كـان الزواج بالخطف، وبالأسر في الحروب، وبـالتبادل بين القبائل، كـما كان تعدد الزوجات شائعاً في بعض المجـتمعات ذات النظام (الرجالي) وكان تعـدد الأزواج للمرأة الواحـدة شائعاً في المجـتمـعات ذات النظام (الأمومي)، ولم يكن هذا التعدد مشروطاً بظروف معينة أو بعدد مـحدود، فأنت ترى ان الزواج كـالثوب المرقع - عند كـافة الأمم - يجمع رقعاً من كافة الأنسجة والألوان، ولولا توفيق خالق أولئك الناس لما نجح زواج واحـد بين البشر. قلت: أنا مـا سألت عن الزواج، بل عن الطلاق وكثرته وانتشاره في جميع المجتمعات الانسانيـة حتى عند الذين يعـتبـر الطلاق عندهم حرامـاً، أو شر الحلال.

اغمض الحاخام عـينيه وبدأ يفكر، ثم قال: هل تعلم ان تاريخ الأسرة في رأي اليهود لم يبدأ بزواج، ولكن بدأ بطلاق؟ فصحت في وجهـه: نهارك أسود! إن آدم لم يطـلق حواء، حتى واليـهود يعتـقدون انها هـي التي كانت السبب في خـروجهـما من الجنة! فضحك ضحكة مكتومة من خلال لحيته الكثة الرثة وقال: عندنا، في التلمود والمدراش والتفسير الصوفي اليهودي المسمى (الاشراق) وباللغة العـبرية (الزوهر) يقولون ان آدم عندماخلقـه الله، خلقه

خنثى، أي مزيجا من الذكـر والأنثى، وذكروا انه لم يكن له وجه وقفـا، بل وجهان! قاطعـته قائلا ومـازحاً: مثل شيـوخ التلمود؟ فأجاب بـهدوء: يا ليت! كان له وجه رجل مكتـمل الرجولة من ناحية، ومحيا امرأة غراء فرعاء فاتنة من الناحية المقابلة! وخلق له رفيـقة تؤنس وحـشتـه، فاختـلفا ذات يوم وتشـاجرا، فانـشبت أظافرها، في وجهـه النسائي فنزعته وسلخته، فـبقي أبونا آدم بعد هذه المعركة الحامية بوجهه الخشن المهيب بلحيته وشواربه، وطردها خالقـها من الجنة، واحال هـيأتها الى صـورة الغيلان، فـهربت، وهي ما تزال تعـيش مع الحيتـان واسماك القرش... في البـحر الأحمر! ألا ترى ان آدم قد بدأ بالطلاق لا بالزواج؟

احببت إذا صـدق ما قاله احباركم... وهيـهات! قال: طوّل بالك، زوج الله حواء لآدم، وكانت قطعة منه، فـأحبها وهام بها وسعـد معهـا، حتى بعـد الطرد من الجنة، والدليل على ذلك انا وأنت وأربعة مليـارات من ابناء آدم وحواء تملأ الدنيا من اقـصاها الى اقصاها، وتشعل غيرة الرفـيقة الأولى لآدم ـ واسمها ليليت ـ اي فاتنة الليلة، فـتأتي لتؤذي ابناء حواء وهم أطـفال، فتصيـبهم بالصرع والحمى والمرض والموت، وتتخير منهم الذكور خصوصاً. ولأجل هذا توجـد في المخلفـات الشـعبيـة اليهـودية تعـويذات ونصـوص من الرقيـة للدفاع عن الأطفـال ضد «ليليت»، ولأنـها تعيش في ا لبحر، وتتـغذى بالسمك، فقد انتشـرت في كثير من المجتـمعات اليهـودية عادة تعليق صورة ثـلاثة أسماك فوق مـهد

الطفل. واذا كـان الطفل ذكراً علق من يحـضر لختانه في الـيوم السابع من ولادته سـمكة أو اكثر ـ من الفـضة ـ في غرفتـه حتى يلتئم جـرح الختان جيـداً وبدون الم او مضاعـفات، وقلت وهل تؤمن انت بهـذا؟ فـأجابني: انا لا أؤمن بشـيء، ولكني احتـرم معتقدات الآخرين إذا كانت تريحهم.

وفي كل مرة اسـمع عن خلاف حـاد بين زوج وزوجتـه اتذكر حديثي هذا مع الحاخـام، وآخر ما حضـرني من ذلك ان فتاة من أقاربي، جميلة رائعة، وجامعية مثقفة، تزوجها رجل من العشيرة ضـابط في احدى الادارات العـسكرية وبعـد عـدد من السنين لم يرزقـا بأولاد، وفكر زوجهـا في ان يتزوج بثـانية حـتى ينجب، فقلـت له: هل قمت بفـحص تمهيـدي؟ فأجابني: لا فـائدة من الفحص، فهي عاقر مائة في المائة فسألته: ربما كان العقم فيك لا فيها، فصـاح غاضبا: سبحان الله! محارب مـثلي ممتلىء شجاعة وقوة وفـتوة يكون عقـيما؟ وخـيرها بين زوجـة ثانية أو الطلاق، فاخـتارت الطلاق وما كـادت تستوفي عدتهـا حتى خطبهـا آخر، وحـملت منه ورزقا بمـولود، فلما علم هذا الـبطل المغوار اصـابه ذهول، ومـا زال لا يجرؤ على الزواج الى الآن خـشيـة ان يعلم الناس انه الصق عيـبه بالمرأة التي طلقهـا! والفحص الطبي للزواج تأمين وشرط تفرضه بعض الدول الآن قبل عقد الزواج.

ووصل صديقنا الشيخ عـبدالسلام وأنا اكتب. فقـدمت اليه ما تحت يدي. فقال: غير موافق فالله سبحانه وتعالى يعلم وحده ما

في الأرحام! أجبت: حقا يا فضيلة الشيخ، لكن ما ليس في الأرحام - وهو ايضا في علم الله - لكن يمكن ان يتبينه الطب الحديث، كما يمكن ان يتبين اذا كان احد الزوجين مصابا بأمراض معدية او وراثية او بعوائق تجب معالجتها قبل الزواج، انت يا شيخ عندما تنوي السفر الى بلد غير بلدك يطلبون منك جواز سفر بجميع البيانات الخاصة بك ويطلبون شهادات طبية بالتحصين من الأمراض الوبائية ويطلبون منك ما يثبت انك قادر على السفر والاقامة ثم العودة الى بلدك، وكل هذا بكفالة الدولة التي منحتك الجواز، أليس الزواج - الذي يشمل الحياة كلها - جديرا بمثل هذه التحفظات؟ ضحك باستخفاف قائلا: تريد جوازاً للزواج؟ قلت وماذا فيها. ان اية ادارة للمرور لا تسمح بتسيير سيارة إلا بعد الفحص الميكانيكي، قال: وماذا يفيد الفحص في امر الزواج اذا كان الحب هوالباعث الأول له. فضحكت قائلا: قل هذا لغيري فأنت واصحاب الفضيلة تؤكدون ان الحب يأتي بعد الزواج لا قبله وان الحب الممهد للزواج والسابق له ليس اهلا للثقة فقد يكون اساسه الهياج الجنسي والشهوة البهيمية وهذه سرعان ما تزول. يقول احد ذوي التجربة الواسعة في ذلك الموضوع من الفرنسيين ان مثل العريس بعد الزواج كمثل الآكل في المطعم، لا ينظر في صحنه بل في صحن جاره، كما قال غيره من بني جلدته: ان الزواج وجبة ثقيلة لانها تبدأ بالحلوى، وعليك ان تستوعب ما يليها من المالح والمر والحامض والغليظ والثقيل.

ومن مستحدثات العصر مكاتب الترويج. وهي في البلاد التي

توجد فيها قلما تكتسب اصدقاء، وما اسهل حصولها على الاعداء إلا من كان من موظفيها حكيما وامينا وقليل ما هم! قال الراوي: دخلت ارملة عجوز الى احد هذه المكاتب، وكانت قد تزوجت بعد موت زوجها مرات عدة فلم يساعدها التوفيق فقالت للموظفة المسؤولة اريد زوجا جميلا، يجيد الحديث في اي موضوع كان، حتى في الموضوعات التي لا يعرف عنها شيئاً، دون ان يشعر السامعون بجهله، ويحسن تلخيص الحكايات المسلية، ويجيد الغناء، لكن اذا زادت ثرثرته وكثر كذبه عرف ذلك باشارة مني فسكت، فاجابت موظفة المكتب: طلبك يا سيدتي صعب جداً إلا اذا تزوجت جهاز تلفزيون! وقال الشيخ وفي يده ابريق الشاي يصب لنا منه: افهم من كل هذا ان الزواج موكول الى عناية الله ولا حيلة فيه للمصلحين ويذكرني هذا بمقطع لك في سيرة البهلول بعد ان اسس في بلد من الجهلة طريقة صوفية، وصارت النساء تترامى عليه ماذا قلت؟ احببت بعد ان بحثت في احد هذه الدفاتر الصغيرة التي اكتب فيها هذه السيرة الخيالية:

زواج؟! وانت تطوف المدائن/ وتدعو الى قلب ما هو كائن/ وتسخر من كل قانون وكاهن؟/ فلما سباك الجمال/ ولم تفتن البنت دون الرجال/ رجعت تقول: حرام.. حلال؟/ هو الحسن والحب والاشتياق/ وما دون ذلك فهو نفاق/ رددت: ولكنه لا يدوم/ اجاب: فأولى بألا تلوم/ من اغتنم الحظ حين يقوم/ وأخرجني من شرودي السحيق/ غناء رفيق/ وآلات عزف له. تتنادي؟ وعن كثب نحونا تتهادى/

وثم مصابيح مثل الدراري/ لها لعب في حلى الجواري/ وبهلول في وسط الموكب/ جديد، سعيد، بعيد، غبي!/ كتمثال ماض من الغابرين/ غدا صنما بعد.. للكافرين/ وكفكفت في الجفن دمع الندم/ وموهت في القلب لذع الألم/ وصاحت فتاة تفوق القمر:/ وليكم قد حضر!/ وبعد الهتاف له.·. والركوع/ اشار بايماءة للجموع.

وقلت في نفسي: ليس عجيبا ان يتبع بهلول، وتستبعد بالخرافة كل بلهاء، وكان الشيخ يتمتم «أعوذ بالله»!.

الهروب من الواقع ..

كنت في بيتي، بعد العصر، وحيداً أتثاءب كسلاً لا نوماً، ومللاً من حرّ الظهيرة، وطرق طارق بابي وإذا وراءه الفرج القريب! وجدت أمامي بيّومي بن الشيخ عبدالسلام وصديقيه حذيفة وعازف الناي السوري سراج، ومعهم نغيمش .. ابن صديقي البدوي الظريف. وبعد التحية قال نغيمش إن أباه أرسله يدعوني أنا والشيخ عبدالسلام والدكتور مراد، ومن نشاء من الأصدقاء إلى عشاء في الصحراء هذه الليلة، فقلت متهللاً: حباً وكرامة! ادخلوا واجلسوا وقاسموني في الشراب البارد والشاي، في هذا الحر اللاهب. فقال حذيفة: لعلنا لا نعطلك عن شغلك، قلت: إن الشغل ـ خصوصاً إذا كان فكرياً ـ غير ممكن في هذا الجو الخانق، فشكراً لكم على أن أخرجتموني من السآمة

❁ جريدة الرياض ٥/٤/١٤١٦هـ ـ٣١/٨/١٩٩٥م ـ العدد ٩٩٢٩

التي كنت فيهـا، لكن أين الكبار؟ فأجاب سـراج: هم من السآمة لا يستطيعـون حراكاً! والحمـد لله انهم رفضوا السيـر معنا، حتى نتحدث اليك بحرية و(بحبحـة)، فأنت ـ بالرغم من هذه الشيبة ـ تشعرنا دائماً أنك واحد منا، فـقلت مازحاً: آه يا خبثاء! تريدون أن تتحـدثوا معي عن الحب! فـرد بيومي ضاحكـاً: انت يا عمي تفهمنا جيداً، ثـم التفت إلى سراج قائلاً: ابدأ أنت بلحن مناسب على الناي، لمجـرد تسـخين (الطاسـة). فـبـدأ لحناً على الناي، وانطلق نغيمش وحذيفة وبيومي يترنمون على هذا اللحن:

لا تُخْـفِ مــا فـــعـلت بك الأشـــواق

واشـــرح هـواك .. فكـلنـا عـــشـــاقُ

فـعـسى يُعـينُكَ من شكوت لـه الهـوى

في حِــمْلهِ .. فــالعــاشــقـون رفــاق

فمـددت ذراعي وكفي طرباً وصحت: وماذا تريدون مني أكـثر من ذلك؟ انكم تعرفـون كل شيء، ومنكم نستفيـد. قال بيومي: يقول أبي ان الحب «كـلام فارغ» تقع فيـه النفوس المرفـهة التي لا تشـغلها همـوم الحياة! قـلت: أبوك صادق . . احـياناً! فصـفق بحماس وصاح: احـياناً فقط! قلت: يا لك من شيطان! إن الحب شغل شاغل يقع فيه المرفهون الذين لا هموم لهم بسهولة، للتسلية فقط، وبذلك فإن مغامراتهم فـيه لا تنتهي، ولا يموت منهم بسببه أحد، لأنه بحث عن شيء يثـير الاهتمـام، والهروب من الواقع

الرتيب الممل. أمـا الرجل المشغول بعـمله وتفكيره وانتـاجه فكان الله في عونه إذا وقع فيه. فقال حذيفة بصوت منخفض: وأنت يا عمي مشغول؟ قلت متصنعاً الغضب: يا ولد! لا تسألوا عن أشياء ان تبدو لكم تسؤكم. قـال متصنعاً البلاهة: اشـرح قليلاً يا عمي حتى نفهم. قلت: أما سمعت قول لاشاعر:

ومـا عَـجَبٌ ومـوتُ المحـبين في الهـوى

ولكـن بقـاءُ الـعـاشـقين عـجـيبُ

قال سراج: يا سلام؟ ومن قائل هذا الشعر؟ أجبت: حسب ما رواه الإمـام أبوالفرج بن الجـوزي ان قائـله فتى من بني عـذرة، سـمعـه منه عبـدالله بن عبـاس في مكة، أنشـده ثم لفظ النفس الأخير وسقط مـيتاً. قال عكرمة ـ مولى ابن عـباس: فمازال ابن عباس بقية يومه يتعوذ من الحب! قال بيومي: يظهر ان الحب بهذا الشكل مـرض لا يصيب الا الرجـال، فمـا سمعنـا بامرأة قتـلها الحب، قلت: النساء أرق قلوباً وأكثر انقياداً للعاطفة من الرجال، ولكنهن شـديدات الحـياء يصـبـرن حتى الموت ولا يـتغـزلن في الحـبيب، فـاياكم يا أولاد أن ينـتظر الواحد مـنكم ان الحلوة التي (عليها العين) تدبج قـصيدة في الغزل بحلاوته، وخـفة ظله. أما تلك التي تتغزل في ماله وجـاهه وهداياه فإنها ساقطة، ومع ذلك تنجح:

لـكـل سـاقـطـة فـي الحـي لاقـطـة

وكـل بائـرة يـومـاً لهـا سـوق

ومع ذلك، ومع قسوة التقاليد وصرامتها في الشرق: تقابلنا احياناً اشعار واخبار لعاشقات لم يطقن الكتمان، منهن ليلى العامرية حبيبة قيس التي رووا قولها:

باح مجنون عامر بهواه

وكتمت الأشجان في القلب وحدي

قال الراوي: كان عندنا بالكوفة فتي من آل المهلب بن أبي صفرة، من أعظم القواد في الاسلام، وكان الفتى ناسكاً تقياً، وكان ينزل في محله بني كندة فرأته امرأة ممن يحضرن مجالس العلم، فوقعت في حبه، وتعرضت له مراراً لعله ينظر إليها وهو لاه في أذكاره وتلاوته وتسابيحه. فلما اشتد بها الوجد كتبت ـ لنفسها ـ هذه الأبيات:

أيها الماشي بسمت وهيبة

ووجه جميل .. مالنا فيك مَطْمَعُ

أموت واحيا عند ذكرك تارة

ففي القلب مني حرقة ليس ترفع

أليس عجيباً عاشق يكتم الهوى

يُعلل بالآمال قلباً يقطع

بمن ليس يدري انني في وثاقة

بروضة أحزان بها الحزن يزرع

ثم ترنمت بهـذه الأبيات وهي في الطريق، فلم يلـتفت إليـها ولم يتنبـه لها. ووصل الأمر بهـا إلى أن استـوقفتـه في الطريق، وعاتبتـه على عدم اهتمامـه بها، فلزم بيته ولم يعـد يسير في هذا الطريق واشتد بها الوجد، وكتبت اليه وقد أشرفت على الموت:

تقـــول التـي قـــد شـــفـــهـــا حب نـاسك

وأمـــرضـــهـــا حُـــبًّـــا وغـــيّـــر حـــالـهـــا

أفي النـسك أن لا ترحم الـيـــوم عـــاشــــقـــاً

شكـــا حـــرقـــة في الـقلب مـــن ظالم لـهـــا

وقال سـراج ان هذين البيـتين يستـحقـان التلحين على الناي، لأنهمـا من البحر الطويل، وجـوهما حزيـن ثم انطلق يحاول ان يصنع فيهما لحناً أمامـنا، وعاد فهز الناي بيده، وقال: لا . . لا؟ هذا يحتـاج إلى أن أجلس وحيـداً في الهزيع الأخيـر من الليل، وأحاول من جديد. قلت: والله لا بأس بهـذا اللحن! فقال: في رأسي ما يمكن أن يخـرج بصورة أحسن منه، فـلو تكرمت باملاء البيـتين علي لأكتبـهما. وفجـأة صحت: نسينا الشـاي والشراب البارد، هنـا بعض الحلوى ايضاً، فـاشار بيومي قـائلاً: اجلس يا عـمي فانا اعـرف مكان كل شيء في الـبيت، فـاسـتدرك عليـه نغيمـش: ما انت وحدك، بيوت الكرام يعـرفها الجميع، فـابتسم بيـومي وشده مـعـه قائلاً: قـم! فانت تصنع الشـاي احـسن منا جميعاً. فقال نغـيمش مازحاً: وأنت تمسك البارد فيكون أبرد منا

جميعاً. وقمت مع ذلك لأنني كنت قـد اشتريت الحلوى وتركتها في مدخل سكني، لا في المكان الخاص بها.

وكان ســراج ساهماً يفكر، ثم قـال: فالحب في رأيك هروب من الواقع؟ قلت: لا! إن الحب نفسه جـزء لا يتجزأ من الواقع، إلا أن يكون كمـا ذكرت من قبل لمجـرد السلية للمتـرفين، وقتل الوقت .. أو قتل عبـاد الله ـ للفارغين والفارغات، وطبـعاً مثل هذا غير جدير بأن يسمى حباً، فـهو أشبه بالصيد أو بالدخول في مسابقة أو لعبة، يمكن ان تبدأ كل يوم من جديد ما دام الواقع في حالة فـراغ مخيف. فهنا لا مـفر من محـاولة الهروب من الواقع ويبقى هذا الحب الخفيف الهش الهازل في نفس خطورة المحاولات الأخـرى للهروب من الواقع، مـثل ادمان الخـمر أو المخـدرات، ومثل قضاء الحياة كلها في الخوف من الواقع باللجوء إلى المنجمين والعرافين لعلهم يتنبؤون عن بصيص من التغيير في هذا الواقع.. وما يقولون إلا كذباً. وهنا سمـعنا دقاً على الباب، ودخل الشيخ عبدالسلام يقول لابنه محتداً: بعثتك إلى الأستاذ لتبلغه ببرنامجنا هذا المساء وتـعود، ولم أشر عليك بـالبقاء.. يالكـع! رد بيومي مذكـراً أباه انه ارسله بصحبـة نغيـمش وحذيفة وسـراج ولم يأمر بالرجوع، وقررت الأغلبـية البقاء مع صديقك الدكتـور للاستفادة من كـلامه. وهز الشـيخ رأسه بخـبث وقال: ولعل كـلامه كـان مفيداً.. كان يتكلم في أي مـوضوع؟ أجاب بيومي: في الهروب من الواقع، وأضـاف حذيفـة: وفي الحب ايضاً. فـصاح الشـيخ عبدالسلام: هذا هو السـبب في بقائكم! وأكمل سراج: لأننا كنا

في فراغ نريد الهروب منه، وعـرفنا من الأستاذ ان الحب اللاعب الهازل غـير البريء ولا الجاد إنما هو مـثل المسكرات والمخدرات، قال الشيخ: وهل جربتم المسكرات والمخـدرات؟ فأجاب بيومي: رأينا السكارى عندمـا كنا في لبنـان، والحشـاشين عندمـا كنا في الصعـيد، وتأكدنـا انهم في تلك اللحظات يعيـشون فعـلاً خارج الواقع. فبرقت عينا الشيخ باعجاب قائلاً: ما هذا ياولد؟ من أين أخذت هذه الفصاحة؟ فضحك ساخراً وقال: بالتأكيد لم أحضرها في بيتنا! ورد أبوه قائلاً: لا حول ولا قوة إلا بالله! ما هذه الذرية الجاحدة التي نقدمها للوطن الآن؟ قلت: تفاءل يا شيخ فهي ذرية متحررة حـريصة على المعرفة، يُرجى منها كل خـير إن شاء الله. قال: هم على كل حـال يتصرفون أذكى منا، واتذكـر ما سمعـته منك في سـيرة البـهلول، عندمـا انقلب دجـالاً، وشيخ طريقـة صوفية، فعاش سعيداً. قال سراج: أنشدنا! فاسمعتهم:

ويلـي من الخـــال عـلى خـــد أســـيل!

في كـل لفـــتـــة، لـه قـــال وقـــيل

كـــروضــــة فـي الدار مـن ظل ظـليـل

أو دعـــــوة لقـــــبلة تـطـفي الـغـليـل

مــاست بـقـــد فـــارع فـــيـــه جـنون

يميـــد اعـــلاه بمشــــبــوب حـــرون

يفـــضي إلـى دنيـــا فـــتـــون وفـنون

تغـــوص فـي ليل مـن الســـمــــر.. طول

وَلَفــــهـــا في نـاظري مــــثل الهـــبــاء
يـدور بي بـين إبـاء واشـــــــتـــــــهـــــاء
كـيف التــقى فـيـهـا الجـمــالُ .. والغبـاء؟
فــحــقق البــهلول فــيــهـا المســتــحــيل

سكَتُّ أتابع في داخـلي/ جـدالَ الاباحي والعـاقل: / لو أنك كنت ظفرت بـها/ وذقت المروق من حُبـها/ وسـيطرت - يوماً - على قلبهـا/ لمجدت في فكرها العبقـرية/ وفي جسمهـا النشوات الطرية/ وصارت مـثالاً .. عديم المثال!/ وطهـراً .. وسحراً.. بعيـد المنال ولم ترها فـرة آثمة/ إذا بسـواك غدت هائمـة/ وكان احتجـاج/ فبهلول ليس سـوى المزاج/ وليس به ما يثير الهـياج/ فكيف تراه لدى البنت راج/ إذا لم يكن عقلها كالدجاج؟

وهنا قاطعني الشيخ عبدالسلام صائحاً: الوقت أزف، فهيا بنا! وإلا فالشباب مستعدون للبقاء معك إلى الصباح!.

الفهـرس

الموضــــــوع	الصفحة
إن كنت لا تدري	٥
اسرار القلب .. وقلب الأسرار	١٣
اسرائيليات للبيع!!	٢١
الرباط المقدس غرامياً وسياسياً	٢٩
شطارة	٣٧
أفكار .. عن الحمار	٤٥
القمة الإسلامية .. والأدب	٥٣
الأوانس العوانس	٦١
مخدرات في رؤوس البشر!	٦٩
الشيخوخة السعيدة!	٧٧
عصر الأعاصير	٨٥
بوليس بوريس!	٩٣
وبضدها تتميز الأشياء	١٠١
الحب .. وداد .. ومشايخ التلمود!!	١٠٩
يا هلا بالربيع!	١١٧
الجمال بدون فلسفة!	١٣٣
ابتزاز الفلوس .. من رؤوس التيوس	١٤١

الموضـــــــوع	الصفحة
البغائية في الشعر!	١٤٩
اللسان .. والأدب .. واللهب	١٦٥
السلام علينا .. وعليكم..!	١٨١
الحقد ضلال .. والحب هدى!	١٨٩
السياسة .. كلام في كلام!	١٩٧
قمر السماء .. وقمر الشعراء	٢٠٥
التعصب .. وحدوده	٢١٣
ما غريب إلا الشيطان	٢٢١
لماذا انقرضت النعامة؟	٢٢٩
جهنم .. السياحية..!	٢٣٧
الأدب النظيف .. والأدب الآخر!	٢٤٥
سراب أغلى من الماء	٢٥٣
نصائح مجانية لهواة العنف	٢٦٣
جواز للزواج	٢٧١
الهروب من الواقع	٢٧٩

صدر من كتاب الرياض

١ ـ امرؤ القيس العربي ـ ديسمبر ١٩٩٣م ـ فوزان الدبيبي.
٢ ـ ربيع الحرف ـ فبراير ١٩٩٤م ـ نورة خالد السعد
٣ ـ اللغة مفتاح الحضارة ـ مارس ١٩٩٤م ـ عدد من المختصين.
٤ ـ الكشكول ـ ابريل ١٩٩٤م ـ أ.د. حسن ظاظا.
٥ ـ أوراق رياضية ـ مايو ١٩٩٤م ـ د.أحمد بن محمد الضبيب.
٦ ـ قراءة في الفكر الأوروبي الحديث ـ يونيو ١٩٩٤م ـ هاشم الصالح.
٧ ـ من يقرأ المصباح ـ يوليو ١٩٩٤م ـ د. يحيى ساعاتي.
٨ ـ نقد الحداثة ـ أغسطس ١٩٩٤م ـ د.حامد أبو أحمد.
٩ ـ الانتخابات الأمريكية ـ سبتمبر ١٩٩٤ م ـ د.عبدالعزيز إبراهيم الفايز.
١٠ ـ مساءلات في الأدب واللغة ـ أكتوبر ١٩٩٤م ـ د.عبدالسلام المسدي.
١١ ـ الأطفال والتلوث البيئي ـ نوفمبر ١٩٩٤م ـ د.نوري ابن طاهر الطيب ـ بشير بن محمود جرار.
١٢ ـ الضفة الثالثة ـ ديسمبر ١٩٩٤م كمال ممدوح حمدي.
١٣ ـ مأزق القيم ـ يناير ١٩٩٥م مسلم بن عبدالله مسلم.
١٤ ـ وسم الإبل عند بعض القبائل ـ فبراير ١٩٩٥م ـ صالح غازي الجودي.
١٥ ـ أفكار في التنمية ـ مارس ١٩٩٥م ـ د.عبدالله حسن العبادي.
١٦ ـ بنية التخلف ـ ابريل ١٩٩٥م ـ الأستاذ ابراهيم البليهي
١٧ ـ العرب ومتطلبات المرحلة ـ مايو ١٩٩٥م ـ الأستا منح الصلح
١٨ ـ مأزق في المعادلة ـ يونيو ١٩٩٥م ـ د.خيرية ابراهيم

السقاف.

١٩ ـ تأثير ألف ليلة والمعلقات على أدب شاعر ألمانيا كوته ـ يوليو ١٩٩٥م ـ د.عدنان الرشيد.

٢٠ ـ تلوث المياه (المشكلة والأبعاد) ـ أغسطس ١٩٩٥م ـ د.نوري بن طاهر الطيب ـ أ.بشير بن محمود جرار

٢١ ـ أسوار الطين، سبتمبر ١٩٩٥م ـ حسن العلوي

٢٢ ـ كيف يعمل الاقتصاد ـ د.مختار محمد بلول ـ أكتوبر ١٩٩٥م.

٢٣ ـ الأدب، اللغة والفضاء ـ أحمد حامد أحمد نوفمبر ١٩٩٥م.

٢٤ ـ التجارب العملية في أسس التلوث الميكروبي البيئي ـ أ.د. عبدالوهاب رجب هاشم بن صادق ـ ديسمبر ١٩٩٥م.

٢٥ ـ ٢٦ـ الجميل ونظريات الفنون، دراسات في علم الجمال. د.رمضان بسطاويسي محمد ـ يناير ـ فبراير ١٩٩٦م.

٢٧ ـ التفاوض فن تحقيق الممكن ـ سيف عبدالعزيز السيف ـ مارس ١٩٩٦م.

٢٨ ـ لمحات .. من حديث الأساتذة ـ عبدالرحمن محمد أبوعمه ـ ابريل ١٩٩٦م

٢٩ ـ الضبط الببليوجرافي والتحليل الببليومتري في علم المكتبات والمعلومات ـ دراسة تطبيقية على مجلة شعر ـ د.أمين سليمان سيدو ـ مايو ١٩٩٦م

٣٠ ـ الخطاب والقارئ ـ نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ـ د.حامد أبو أحمد ـ يونيو ـ ١٩٩٦م.

٣١ ـ الرؤية الإنسانية في حركة اللغة ـ د.غالي سرحان القرشي ـ يوليو ١٩٩٦م.

٣٢ ـ الأدب الأندلسي بين حقيقته ومحاولة اغتياله. د.عبدالله بن

علي ثقفان ـ أغسطس ١٩٩٦م.

٣٣ـ٣٤ ـ مخطط الانحدار وإعادة البناء ـ د.خالص جلبي ـ سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٩٦م.

٣٥ ـ أضواء على دور قبيلة بلي في الحضارة العربية الإسلامية ـ د.سلامة محمد الهرفي البلوي ـ نوفمبر ١٩٩٦م.

٣٦ ـ المبيدات ـ الايجابيات والسلبيات، رؤية مستقبلية لاستخدامها بدول مجلس التعاون ـ د.فهمي حسن أمين العلي ـ ديسمبر ١٩٩٦م.

٣٧ ـ بدر شاكر السياب ـ دراسة نقدية أو ظواهر فنية من شعره ـ تأليف أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري/ أمين سليمان سيدو ـ يناير ١٩٩٧م

٣٨ ـ في نظرية الأدب ـ مقالات ودراسات ـ ترجمة وإعداد ـ د.محمد العمري ـ فبراير ١٩٩٧م

٣٩ ـ الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي ـ يحيى محمود بن جنيد «الساعاتي» ـ مارس ١٩٩٧م.

٤٠ ـ الألسنية الحديثة واللغة العربية ـ دراسة تحليلية تطبيقية لنظرية الحكم النحوي والربط على اللغة العربية ـ الدكتور/ محيي الدين حميدي ـ ابريل ١٩٩٧م.

٤١ ـ تأملات في مسرح برشت ـ د. عدنان الرشيد ـ مايو ١٩٩٧م.

٤٢ ـ نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي ـ حسن بن فرحان المالكي ـ يونيو ١٩٩٧م.

مطابع مؤسسة اليمامة الصحفية
الرياض ـ هاتف: ٤٤٢٠٠٠٠

نبذة عن المؤلف

حسن محمد توفيق ظاظا

- مواليد القاهرة ١٩١٩م.
- بدأ دراسة قرآنية في الريف، ثم تحول حسب رغبة أهله إلى التعليم العا ..، وبعد الثانوية العامة.:
- ليسانس اللغة العربية واللغات السامية من جامعة القاهرة عام ١٩٤١م.
- ماجستير في الأدب العبري والفكر اليهودي من الجامعة العبرية بالقدس (فلسطين) عام ١٩٤٤م.
- دبلوم الدولة العالي في الآثار وتاريخ الفن والحضارة من مدرسة اللوفر بباريس عام ١٩٥١م.
- دبلوم مدرسة اللغات الشرقية بباريس ١٩٥٥م.
- دكتوراه الدولة في الآداب من السربون بباريس، بدرجة الشرف الأولى وبالإجماع وحق التبادل مع الهيئات العلمية العالمية ١٩٥٨م.
- عمل معيداً ومحاضراً ومدرساً إلى أن شغل كرسي الدراسات اللغوية بجامعة الاسكندرية ١٩٦٩م.
- قام بالتدريس في عدد كبير من الجامعات مثل: الرباط (المغرب) ـ بيروت (لبنان) ـ الموصل وبغداد والبصرة (العراق) ـ الخرطوم وأم درمان (السودان).
- استاذ فقه اللغة والدراسات العبرية بجامعة الملك سعود بالرياض لمدة ١٢ عاماً.
- يعمل حالياً مستشاراً بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض.
- متزوج وله ابنة وابن وثلاثة أحفاد.
- من مؤلفاته المنشورة بالعربية:

المجموعة اللغوية: (١) (اللسان والإنسان، (٢) الساميون ولغاتهم، (٣) كلام العرب، (٤) الكشكول.

البحوث اليهودية:

(١) الفكر الديني اليهودي (٢) الشخصية الإسرائيلية (٣) أبحاث في الفكر اليهودي (٤) الصهيونية العالمية وإسرائيل، بالاشتراك مع د.فتح الله الخطيب (أستاذ الاقتصاد والسياسة بجامعة القاهرة)، والدكتورة عائشة راتب (أستاذة القانون الدولي بكلية حقوق القاهرة ووزيرة الشئون الاجتماعية سابقاً).

وعدد كبير من المؤلفات باللغات العبرية والفرنسية والانجليزية.

ردمك ; ISBN 9960 - 780 - 42 - 2
ردمد ; ISSN 1319 - 190X

السعر: ١٠ ريالات سعودية